
منتدى أنا المصرى

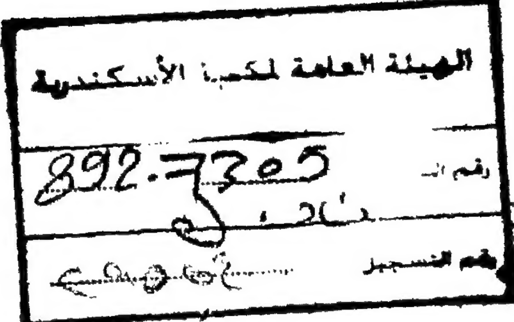
كان
ويكون


منتدى أنا المصرى

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

من تراث عبدالله النديم «٣»

كان ويكون



تقديم
د. عبدالعظيم رمضان

دراسة تحليلية
د. عبدالمنعم إبراهيم الجميعي

طبع بمطبعة دار الكتب
القاهرة ١٩٩٥



« الـذمم لا تضيع بـالعوارض ، والهمم تحيـا فى الشدائـد ..
والإنسـان عبارة عن سـطر يكتب فى صفحـات الـزمـان »

عبد الله النديم

« كان ويكون »

◆◆◆

تقـــــــــديم

يستمد عبد الله النديم أهميته فى تاريخ مصر من مصدرين : الأول ، وطنى ، ويتمثل فى مشاركته الايجابية فى الثورة العرابية كخطيب للثورة ومدافع بالكلمة المكتوبة عنها ، والثانى ، فكرى ، ويتمثل فيما أصدره من صحف وألفه من كتب ، ومن هنا كان اهتمام مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر باعادة نشر ما أصدره من صحف وكتب . فقد سبق للمركز أن نشر صحيفة « التنكيت والتبكيت » ، أولى الصحف التى أنشأها عبد الله النديم فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، ثم نشر صحيفة « الأستاذ » ، ثالثة الصحف التى أصدرها النديم بعد « التنكيت والتبكيت » و « الطائف » . وها نحن نقدم للقارىء كتاب « كان ويكون » أبرز مؤلفات عبد الله النديم التى كتبها بعد هزيمة الثورة العرابية وتصفيتها فى عام ١٨٨٢ .

وكانت سلطات الاحتلال قد نصبت المحاكم العسكرية لمحاكمة الثوار ، ونفت منهم من نفت وأعدمت من أعدمت ، وجاء دور محاسبة عبد الله النديم ، فلفقت له تهمة الاشتراك فى حرق الاسكندرية ، ونسبت للنديم أنه قال عند عودته من الاسكندرية بالقطار يوم ١٣ يولية ١٨٨٢ : « إننا حرقنا الاسكندرية ، وقتلت بمسدسى ثلاثة من الأجانب » ! وعندما علم بذلك أيقن أن مصيره لن يفترق عن مصير سليمان داود ، وهو الاعدام . فقرر الاختباء ، وواتاه الحظ بقبول الشيخ محمد الهمشرى ، عمدة

العتوه القبلية ، ايواءه فى داره ، رغم المخاطرة الجسيمة . ولكن الظروف تطلبت من النديم التنقل فى قرى مديرية الغربية وبلادها متنكرا ، وقد أقام ببعض هذه البلاد ، مثل « الكوم الطويل » ثلاث سنوات ، تحت اسم الشيخ يوسف المدنى ، كما أقام فى القرشية ضيفا على أحمد باشا المنشاوى مدعيا أنه عالم يمنى يدعى الشيخ على اليمنى ! وقد تزوج فى خلال هذه الضيافة بزوجته الثالثة . وظل على مغامرات هذا الاختفاء مدة تسع سنوات حتى تعرف عليه رجل بوليس سرى سابق ، فوشى به طمعا فى المكافأة التى رصدتها الحكومة للقبض عليه وقدرها ألف جنيه ، فألقى القبض عليه فى بلدة « الجميزة » فى ٢ اكتوبر ١٨٩١ ، وكان رئيس نيابة طنطا الذى أجرى التحقيق معه قاسم أمين !

على أن القبض على النديم أثار ضجة كبرى فى مصر والعالم الاسلامى ، وبدأت الصحف تكتب مطالبة بالعفو عنه ، فقرر مجلس الوزراء برئاسة عبد الرحمن باشا رشدى فى جلسته المنعقدة فى ١٢ اكتوبر ١٨٩١ ، ابعاد النديم إلى الشام ، والافراج عن جميع الذين قبض عليهم وسجنوا بتهمة معاونته على الاختفاء ، ومنح النديم ١٥٠ جنيها ليستعين بها فى منفاه فى شئون الحياة .

وقد سافر النديم إلى يافا من ميناء الاسكندرية وسط مظاهر تكريم الوطنيين ، وشيعه محافظ الاسكندرية عثمان باشا عرفى ، ووصل إلى يافا فى ١٨٩١/١٠/١٥ ، ولكنه لم يستمر طويلا لأن الخديو توفيق توفى فى تلك الأثناء وخلفه الخديو عباس حلمى فى يناير ١٨٩٢ ، وأراد أن يتقرب إلى الوطنيين ، فعفا عن النديم فى ٣ فبراير ١٨٩٢ وعاد النديم إلى مصر فى يوم ٩ مايو ١٨٩٢ ، بعد أن اختفى من الحياة السياسية ما يقرب من عشر سنوات - أى منذ ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ . وكان عمره قد اقترب من الـ٤٧ عاما .

على أن نضال النديم الوطنى والمحن التى مر بها ، خصوصا محنة الاختفاء ، أضعفت صحته ، وغلبت عليه روح التصوف ، فلبس العمامة الخضراء والجبة والقفطان وهى زى الأشراف المنتسبين إلى أسرة الرسول الكريم ، وجاهر باتصال نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبح يدعى : « السيد عبد الله نديم » .

على أن عملا وطنيا آخر كان ينتظر عبد الله النديم ، فقد عاد ليجد الاحتلال البريطانى يسيطر على البلاد ويخمد كل صوت ويشهر سيف الاغلاق على كل صحيفة وطنية ، فقد ألغى جريدة « الوطن » وعطل جريدة « الأهرام » ، وألغى جريدة « الشرق » وجريدة « الزمان » ، وأنذر جريدة « الصادق »

بالاغلاق ، ومنع جريدة العروة الوثقى من دخول البلاد .

ولكنه عاد ليجد الصلة بين حاكم البلاد واللورد كرومر قد تغيرت ، اذ بدأ الصدام بين الخديو عباس واللورد كرومر بسبب تسلط العميد البريطانى ، وأخذ الخيو عباس يتقرب من الوطنيين ، وحفظ له النديم جميل عفوه عنه وسماحه له بالعودة إلى مصر ، فسارع إلى تاييده وجعله رمزا للمقاومة الشعبية للاحتلال ، وطلب من الشباب أن يؤيدوه فى مقاومته للاحتلال . واتصل الخديو بالنديم وبجمعية الشبان التى يجتمع أعضاؤها به ، ومنحهم تأييده ومعونته ، وتوثقت أواصر الود بين عباس والنديم .

وقد سارع مصطفى كامل إلى لقاء النديم عندما علم بظهوره فى القاهرة ، وقدم نفسه اليه كطالب من طلبة الحقوق ، فرحب به ، ونشأت بين الفتى والنديم صلة كان لها تاثيرها البالغ فى مصطفى كامل ، فقد وجهته إلى العمل الصحفى بعد أن شرح له النديم أهمية الصحافة ودورها فى تنوير وتكوين الرأى العام .

وكانت خطة النديم لإيقاظ الوعى بين الشعب المصرى وتوعيته بأضرار الاحتلال ، هى إصدار جريدة يعبر فيها عن آرائه ويحفز فيها همم المصريين ، ولكن كيف السبيل إلى

إلى تضريح وزارة الداخلية ؟ لقد تغلب على ذلك بأن طلب إلى أخيه عبد الفتاح النديم استصدار ترخيص باصدار مجلة الأستاذ الأسبوعية ، على ألا تتعرض للأمور السياسية الداخلية والخارجية . وقد نالت هذه المجلة من الشهرة والانتشار في شهور قليلة ما لم تنله غيرها فى أعوام ، وكتب فيها كبار الكتاب والشعراء فى مصر والخارج ، وأصبحت أكثر الصحف انتشارا حتى اليومية منها ، وأصبحت منافسا خطرا للمقطم لسان حال الاحتلال ، وجاهر فيها النديم بنصرته للخديو وتأييده لسياسته .

على أنه عندما شعر كرومر بخطر « الأستاذ » أوعز إلى رياض باشا رئيس الوزراء بأن يرسل انذارا إلى « الأستاذ » بالغلق اذا تعرض للسياسة ، واتهمته المقطم والبروجرية بأنه يعد لثورة كالثورة العرابية ، وعندئذ طلب اللورد كرومر من الخديو نفى النديم لأنه يثير روح التعصب الدينى فى البلاد . فنفى النديم مرة أخرى خارج مصر ، وخرج آخر عدد من الأستاذ فى ١٨٩٣/٦/١٣ ، وغادر مصر إلى يافا فى منتصف يونية ١٨٩٣ ، ثم استقر بالآستانة ، ونال الحظوة لدى السلطان العثمانى وتعرف بذوى الفضل من الوزراء والعلماء ومنهم السيد جمال الدين الأفغانى ، وقضى نحبه بها فى ١١ أكتوبر ١٨٩٦ .

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء ، وهو كتاب : كان ويكون : كتبه النديم أثناء فترة الاختفاء عن عيون الانجليز ، وهو عبارة

عن مناظرة بين النديم وأحد الفرنسيين حول المشكلات الدينية والخلافات السياسية والتاريخية بين الشرق والغرب وعادات الأمم المختلفة ، والمقارنة بينها ، وأصل الأديان وفلسفتها – وهى مناظرة حبية تمت بالاتفاق بين المتناظرين .

وقد عهدنا إلى الدكتور عبد المنعم الجميعى بكتابة دراسة تحليلية له ، مع الحرص على طبعه بطريقة التصوير للحفاظ على شكله الذى صدر به من مطبعة « المحروسة » فى عام ١٨٩٢ .

ومركز الوثائق وتاريخ مصر المعاصر اذ يقوم بنشر هذا الكتاب ليأمل أن يكون قد أدى جزءا من رسالته فى الحفاظ على تاريخنا القومى ومصادره الأصلية .

والله ولى التوفيق

الهرم فى ٢٢ مايو ١٩٩٥

أ.د. عبد العظيم رمضان

رئيس اللجنة العلمية المشرفة على

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

دراسة تحليلية

يعتبر عبد الله النديم أحد كبار المؤلفين المصريين البارزين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فله من المؤلفات الكبيرة والصغيرة مايعد بالمئات منها الأشعار والأزجال والروايات ، والرسائل الأدبية والمقالات الصحفية والمؤلفات السياسية والعلمية والدينية التى شغلت افكار الكثيرين من الباحثين والسياسيين[١] .

ولعل أبرز هذه المؤلفات هو ماكتبه خلال فترة الاختفاء فبعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير تمكن النديم من الاختفاء عن عيون الانجليز داخل قرى مصر ونجوعها لفترة امتدت من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٩١ وقد اشرف على اختفائه جهاز من الوطنيين المصريين ساعدوه على الاختفاء عن عيون الحكومة وأمدوه بالكتب والمراجع التى ساعدته على التأليف والكتابة ومن هؤلاء الشيخ شحاته القصبى أحد مشايخ الطرق الصوفية المشهوريين والشيخ سعيد الأزهرى صديق النديم والذى آواه فى منزله حوالى شهر ، وامده بما يلزمه من كتب ، والشيخ محمد الهمشرى عمدة العتوة القبلية الذى أقام النديم فى داره ثلاث سنوات وغيرهم .

وبالرغم من قسوة فترة الاختفاء ، ووحشة الأماكن التى كان يختفى فيها النديم وظلمتها لدرجة أنه لم يعرف فيها الليل من النهار ، ولم يتمكن من الكتابة أو القراءة إلا على ضوء مصباح صغير من الغاز[٢] الكثير الدخان فإنه فكر فى التأليف والكتابة حتى يشغل وقته ويمارس هوايته ومع أن صديقه المتستر عليه نصحه بتأجيل ذلك حتى تتحسن الأحوال بقوله «يمنعك من الكتابة الآن ظلمه القاعة ، واشتغال فكرك



بهذه المزعجات الحاصلة» فإن النديم لم يتأثر بكل هذه المعوقات التى زادته تصميما على الكتابة والتأليف فأخذ يصنع الحبر من هباب الفرن وبدأ يشغل نفسه بالكتابة فتفتقت قريحته واستطاع أن يؤلف عشرين كتابا فى ألوان شتى من الآداب والعلوم والفنون ويتضح ذلك من رسالة له إلى صديق قال فيها «ترانى فكرى كليمى ، وقلمى نديمى استودعه مافى الصدور فيحفظه فى السطور ثم يرده علىَّ كتابا لم يجمع إلا صوابا . فاعود إليه بالنظر لترويح الفكر ، فتارة اشتغل بكتابه فصول فى علم الأصول وأجمع عقائد أهل السنة بما تعظم به لله المنه ، وحينا اشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقتا اكتب رسائل مؤتلفه فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب فى العادات والاخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف بالأكوان على سفينة تاريخ الزمان ، ويوما اشتغل بشرح أنواع البديع فى مدح الشفيع صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأحزابه . وقد تم لى إلى الآن عشرون مؤلفا بين صغير وكبير فانظر إلى آثار رحمة اللطيف الخبير كيف جعل أيام المحنة وسيلة للمنحة والمنة[٣] .

كما اوضح النديم أن الفترة التى قضاها فى الاختفاء قد افادته فى التفرغ للكتابة والتأليف وأبعدته عن ضياع وقته فى زيارة الأهل والاخوان وفى حضور مجالس الجمعيات والمدارس وغيرها فقال «أترانى كنت أكتب هذه العلوم فى ذلك الوقت المعلوم ... (وكنت) اشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، واقضى ليلى فى دراسة الاحوال مشتغلا بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية وزيارة الاخوان ومراقبة ابناء الزمان ... فمتى كنت انظر للمخلفات وأكتب هذه المؤلفات»[٤] .

ومن رسالة اخرى كتبها النديم إلى صديقه الأزهرى يتضح أن رغبته فى التأليف والكتابة ترجع إلى حبه للخدمة العامة ورغبته فى افادة

مواطنيه حيث يقول «وقد التزمت صرف أوقاتى فى كتابه ماعساه أن يكون نافعا لإخوانى، ولم يصرفنى سوء الأخبار عما تعهده فىَّ فى حب الخدمة العامة»[٥].

وكتاب كان ويكون» الذى نعرض له هو أحد الكتب العشرين التى الفها النديم اثناء اختفائه وعن أسباب وضع النديم لهذا الكتاب هو أنه قبل الاختفاء كان قد اهتم بجمع الحوادث الهامة الخاصة بالشرق والغرب فى كتاب من أربعة اجزاء سماه «مقابلة النظير» كان قد أهداه إلى السلطان العثمانى محمود الثانى وأنه اراد استكمال هذا العمل بتأليف كتاب يشرح فيه للمؤرخين والكتاب سواء فى الشرق أو الغرب الاحداث التى ألمت بمصر وانتهت باحتلال الانجليز لها بصفته شاهد عيان لها ومشاركا فيها حتى يوضح الأمور على حقيقتها ولايترك لأحد الفرصة أن يطلق قلمه بما يوافق مشاربه واغراضه لابما يتفق مع الحقيقة ويتضح ذلك من قول النديم «فإن سأل سائل عن سبب وضعته أجبته بأنى لم أضعه امتثالا لأمر ملك أو خدمة لأمير أو ذى جاه أو لطمع فى جائزة أو موافقة لأمة دون أخرى بل عندما خرجت متغيبا ووصلت المختفى الأول تذاكرت مع .. صاحب البيت فى حوادث الشرق الأخيرة وأهميتها بالنسبة للمؤرخين وكاشفته بما كنت مشتغلا به من جمع الحوادث المهمة المختصة بالشرق والغرب دينا وسياسة وتخليدها فى كتابى المسمى (مقابلة النظير) وانى انهيت منه اربعة اجزاء ضخمة إلى السلطان محمود وأريد الآن أن اشتغل باتمامه»[٦].

وبالرغم من أن صديقه قد اثناه عن الانشغال بتأليف هذا الكتاب بقوله «يمنعك من الكتابه الآن ظُلَم القاعة واشتغال فكرك بهذه المزعجات الحاصلة ولو نشطت للكتابة فانك لاتعلم ان كان كتابك فقد أو بقى موجودا فيكون هذا الجزء الأخير أبتر»[٧].

ومع أن النديم قد انصرف عن هذا الكتاب إلى كتابه الشعر بناء على نصيحة صديقه فإنه لم يلبث أن عاد إلى الكتابه عندما بلغه أن هناك من سيضع كتابا عن حوادث الثورة العرابية بما يتفق مع مشاربه خشية أن تضيع الحقيقة واخذ النديم يفكر فى الخطة التى سيتبعها فى كتابه الذى اراد أن يبدأه بتأصيل الأديان والمقارنة بين الشرق والغرب وينتهى به عند حوادث الثورة العرابية وخلال ذلك وبعد أن كتب المقدمة تذكر صديقا فرنسيا قديما كان قد حضر إلى مصر ليكتب عن احداثها عن مشاهدة ويقين ، وكان قد تعرف عليه بالاسكندرية فى عام ١٨٧٥ ويعرف أن له ضيعة كبيرة قريبة من مخبئه بالعتوة القبلية ، وأنه لم يسافر إلى بلاده كما فعل العديد من الاوربيين خلال أحداث الثورة العرابية .

وقد فكر النديم فى الكتابة إلى هذا الفرنسى لعله يجد عنده من الأخبار والمدونات مايساعده على ماشرع فيه ، فتشاور مع الشيخ الهمشرى صاحب الدار التى يختبىء فيها فى الأمر ، وطلب منه الاتصال بالخواجه الفرنسى ولكن العمدة تردد فى الأمر وأخذ يراجع النديم حوالى ساعتين موضحا له كيف يأتمن على سره شخصا أجنبيا[٨] . ولكن النديم أقنعه بالذهاب بقوله «لاتخش شيئا فإنى واثق بذمته وعلو همته ، وقد استخرت الله تعالى فانشرح صدرى لهذا الأمر ، فتوجه إليه واعطه جوابى الذى سأكتبه إليه فإن سألك عن مكانى فقل له هو عندى وأن رغب لحضور فاحضره معك من غير أن تتخوف منه فى شىء[٩] مؤكدا له ثقته بطهارة ذمته ووفائه وانسانيته فاقتنع العمدة فى آخر الأمر وطلب من النديم أن يكتب الخطاب ليوصله للفرنسى ، فكتب النديم للفرنسى خطابا موضحا فيه ظروفه ، وطالبا منه أن يحافظ على سره ، وان يكون رجلاً من شداد العزائم[١٠] .

وقد حمل الشيخ الهمشرى رسالة النديم إلى الخواجه الفرنسى وسلمها له فقرأها ثم اعطاها لزوجته فقرأتها ثم اعادتها إليه فمزقها إربا زيادة فى الحذر ، ونظرا لتواجد بعض الناس فى مجلس الخواجة اثناء ذلك ، قام الخواجه بتمويه الأمر عليهم فقال للهمشرى فى غضب «قل له .. احفظ لى حقى عندك قبل كل انسان حتى آتيك ونتحاسب واياك أن تمد يدك لبنك أو خواجه غيرى فإن فعلت ذلك وقعت فى شرك المحاكم وحكمت عليك بالاترضاه[١١] .

ومعنى ذلك أن الخواجة أوضح للمتواجدين فى مجلسه أن الأمر لايزيد عن كونه عملا تجاريا يتعلق بأحد عملائه المتعاونين معه فى التجارة ، فخرج الهمشرى من بيت الفرنسى متكدرا ذاهل الفكر لعدم فهمه لقصد الفرنسى ، ولما وصل إلى النديم وحكى له ماحدث إستبشر النديم خيرا وفهم مقصد الفرنسى ، وشرحه للعمدة بقوله هو بعباراته التى القاها عليك «يشدد علىّ بعدم اخبار أحد عن مركزى ، ويحذرنى من الوثوق بغيره مدة الاختفاء وينذرنى بأن الناس تغيرت أحوالهم فإن أخبرت صديقا غيره ربما انقلب عدوا وسلمنى إلى الحكومة فتحكم علىّ بما تراه ، ثم أنه وعد بمجيئه وإن لم يعين الوقت فعبارته كلها خير ونعم»[١٢] .

وخلال انتظار النديم للخواجه حدث أن زار مأمور المركز منزل العمدة فسرت الهواجس من جديد فى قلب العمدة ، وتشكك فى أن الخواجه اتصل بالمأمور وأخبره بمقر النديم[١٣] ، ولكن ماحدث كان بمحض الصدفة فالمأمور نزل بمضيفة العمدة اثناء تنقله بين قرى مركزه للمرور عليها دون أن يعرف بمكان النديم وخلال تواجد المأمور حضر الفرنسى إلى العتوة القبيلية فى الغروب مرتديا جبة وقفطانا وعمامة ومتلفعا بحرام أبيض على هيئة مشايخ القبائل[١٤] ، ودخل المضيفة ولما رأى المأمور فيها تحول إلى قاعة أخرى دون أن ينتبه إليه المأمور ثم

دخل إلى غرفة النديم وقد وصف النديم المقابله بقوله «وبينما أنا جالس وإذا بهذا الوفى دخل عليَّ وسلم سلام المشوق الولهان فعرفته بصوته وقمت إليه وتعانقنا عناقا طويلا تخلله ضحك وبكاء ثم جلسنا ودار الكلام بيننا فقص عليَّ اخبارا وأحوالا لاعلم لى بها فتكدرت وامتلأت غما وهما».

وقد أخبر النديم الفرنسى بنيته على التأليف والكتابة وطلب منه المساعدة باحضار بعض الكتب التاريخية، وقد عجب الفرنسى من قدرة النديم على تحدى الصعاب فبالرغم من احاطة المخاطر به من كل ناحية فإنه يفكر فى التأليف ولم تثنه الشدائد عن خدمة الفكر الانسانى[١٥].

وعرض الخواجه على النديم أن يشاركه فى ما عزم عليه يقوله «لابد أن أشاركك فى هذا العمل، وأساعدك عليه»[١٦] ولما تناقشا فى خطة الكتابة انتهيا بأن تكون على هيئة مناظرة بينهما فيتقدم الفرنسى إلى النديم بأسئلة حول المشكلات الدينية الخلافات السياسية والتاريخية بين الشرق والغرب وعادات الأمم المختلفة والمقارنة بينها، وأصل الاديان وفلسفتها ويجيب عليها النديم اجابات صريحة كما اتفقا على أن يزور الفرنسى النديم فى مخبئه على فترات متقاربة وصلت فى بعض الأحيان أنه كان يزوره يوميا.

كما اتفق الفرنسى مع النديم على أن يصطلح فى أثناء كتابته كلمة الغرب بدلا من أوربا حتى تكون مقابلة لكلمة الشرق، كما اتفق على أن يطلق اسم الغربى على الفرنسى واسم الشرقى على النديم خلال المناظرة[١٧] وأن يكنى الدين المسيحى بالمسأله الغربية والدين الاسلامى بالمسألة الشرقية وأن يبدأ الكتاب بتأصيل المسألتين الشرقية والغربية بطريقة علمية بعيدة عن التعصب الدينى أو القومى ثم ينطلق

النديم منها إلى سرد تاريخ مصر ، وقد طلب الفرنسى من النديم ألا يذكر اسمه إلا فى أواخر الكتاب[١٨] ، ولما كان الكتاب لم يكتمل فإننا لم نعرف اسم الفرنسى إلى الآن . وطلب الفرنسى من النديم أيضا الرد على جميع الاسئلة التى سيوجهها إليه سواء كانت دينية أو سياسية أو غيرها بطريقة موضوعية بعيدة عن التعصب مؤكدا له أنه سيفعل نفس الشىء معه ولاينكر عليه أى حقيقة إذا كان يعرفها كما طلب منه أن يلتزم فى اجابته بالتصريح لابالتلويح ، وألا يترك الاجابة على أى سؤال مبتورة[١٩] واتفق الفرنسى مع النديم على تدوين المناظرة بطريقة عامة حيث ستقرأها جنسيات ونوعيات من البشر مختلفة منها «المسلم والمسيحى والموسوى والبرهمى والمجوسى والبوذى والوثنى وغيرهم»[٢٠] وتعاهدا على ذلك «وعادا للحديث وتذكار ما كان وماسيكون» .

وقد اتبع النديم فى تأليف هذا الكتاب تسجيل مايدور بينه وبين الفرنسى من حديث عندما يخلو إلى نفسه بعد نهاية كل لقاء ، ثم يعرضه بعد ذلك عليه قبل الخوض فى غيره حتى لايكون قد غاب عنه بعض ماتم فى المناظرة[٢١] وقد أخذ الفرنسى يزور النديم على فترات متقاربة ، وكان يحضر زوجته معه أحيانا لتشترك فى المناقشة ، وتسهم بآرائها فيها كما كان يحضر المناقشة أحيانا الشيخ سعيد الأزهرى صديق النديم[٢٢] والذى مكنه من الاختفاء وأعد له مخبأه الأول وكان يحضرها أيضا الشيخ محمد الهيشرى العمدة وصاحب المنزل الذى كان النديم مختبئا به ، وكانت تطول المناقشة بينهم احيانا ويسهم كل منهم بآرائه فيها .

وقد استعان النديم فى وضع هذا الكتاب بالاضافة إلى ماذكر بدفترين كان يضعهما فى جيبه يدون فيهما افكاره ، كما اطلع على تفسير العلامة أبى السعود العمادى وقاموس الفيروز ابادى وغيرهما من الكتب[٢٣] التى كان يحضرها له سعيد الأزهرى .

وعن تقسيم الكتاب فقد بدأه النديم بافتتاحية يغلب عليها السجع ثم اتبعها بمقدمه بين فيها تاريخ وضع الكتاب والظروف التى كانت تحيط به اثناء تأليفه كما شرح فيه منهجه فى التأليف .

ويقول النديم فى مقدمته لهذا الكتاب أنه قد بدأ الكتابة فيه «فى الساعة الثامنة من يوم الخميس ٢٨ ربيع الثانى عام ١٣٠٠ هجرية الموافق ٨ مارس عام ١٨٨٣ ميلادية فى قاعة ظلماء وحيدا بعيدا عن العلماء والكتيبات والجرائد مختفيا متغيبا عن الجواسيس والعيون علىّ واذا أعان الله تعالى على اتمامه وانهائه على ماتصورته ورتبته فى مخيلتى أطلقته بين القراء فى صورة فدلكة دينية ولغوية ووطنية وسياسية وجنسية وأدبية مكلفا بطلب الصحة والدليل ولا أدعى العصمة فيه بل أقول أنه قابل للبحث مهيأ للانتقاد معرض للاعتراض»(٢٤) .

ولم يرتب النديم موضوعات هذا الكتاب فى أبواب وفصول كالمتبع فى مثل هذه الأمور بل كان يعنون موضوعاته بما يناسبها من عناوين وقد أوضح ذلك فى مقدمة الكتاب بقوله «فليتقبل القارىء ما أكتبه على أنه شوارد أفكار وتتممه أعمال وارشاد إلى اجتماع شرقى ومقابلة غربية علما وأدبا لاخشونة وتظاهرا . وليعلم أنى لاأرتب كتابى على أبواب وفصول بل أعنون المواضيع بعناوين تناسبها وأمزجها بالطوارىء التى تعترينى ترويحا لنفوس القراء وتسلية لذوى الأفكار(٢٥) .

وتضمن الكتاب بعض المسائل الدينية الجارى عليها الاختلاف بين الناس بطريقة قال عنها النديم «فإنى أسرد ذلك باعتبار ماهو عليه عند أهله لامقبحا دينا ولا مزدريا بشرب ولا مستخفا بامة ولامنتقصا لجنس(٢٦) .

وتطرق الكتاب إلى مسئولية كل من الشرقيين والغربيين حول مايحدث فى العالم من مشاكل بالرغم من أن كلا من الدينيين الاسلامى

والمسيحي يدعو إلى محاسن الأخلاق والبعد عن العدوان وحفظ الحقوق والنفوس والأعراض «والتطهر من أوساخ الآثام ورزائل الفجور» ... وربط الآخذين به بقانون إلهي يسوى بين الأمير والحقير والغنى والفقير والقوى والضعيف، ويحكم بمسئولية كل فرد من الافراد عن أقواله وافعاله[٢٧].

وقد أرجع النديم السبب فى ذلك إلى أن كل فريق يتبارى فى قدح الفريق الآخر ويخطىء معتقداته حيث «تسابقت اقلام الكتاب فى التخطئة والتصويب والإفساد والتصحيح والتقبيح والتحسين والمدح والذم والإغراء والتحريض وملأوا العالم بأوراق لقحت القلوب بما فيها فحملت العداوة وأنجبت هذا التنافر[٢٨].

وتعرض الكتاب إلى ظهور الرسل والمذاهب الدينية والديانات السماوية والوضعية وغيرها والكتب القديمة، واللغات والفلاسفة والحكماء ومناظراتهم العلمية موضحا أن كل إنسان يتمسك بدينه لأنه يرى صحته، وأن الرسل مهما أختلفت مباعثهم وتباينت لغاتهم «لم تختلف دعوتهم فى موضوعها» وبنائها على أن هناك إله واحد موحدا لهذه الأكوان[٢٩] يحيى ويميت وينعم ويعذب فى دار أخرى أعد فيها جنة للمصدقين العاملين، ونارا للمكذبين الضالين كما أوضح أن هؤلاء الرسل اتخذهم الله «أمناء على وحيه هداة لخلقه يعلمون الشرائع ويدعون إلى وحده الاجتماع ويدلون الخلق على خالقهم ويعرفونهم قدره ومجده وعظمته وكبرياءه وقد اصطفاهم وخصهم بالرسالة وعصمهم من الدنيئات وسفاسف الأمور»[٣٠].

وأن حكمة الله تعالى اقتضت أن «يبعث كل رسول فى قومه ليكون منهم عصبية تسهل انقادها الرحم يمهد بها طريق دينه ويتقوى بها على نشره وتعميمه»[٣١] وتطرقت المناظرة إلى فئة الفلاسفة والحكماء

الأقدمين التى حفظت كتب الحكمة واعتنت بدراستها وشرحها حتى سهلتها «للمسلمين والموسويين والعيسويين وحلت مشكلات الحكماء ورموز القدماء وترجمت لغايتهم المتروكة وعرفت اقلامهم المختلفة» وقد قسم هؤلاء إلى قسمين قسم يسند دينه إلى سيدنا نوح عليه السلام وهم الصائبون وقسم يسنده إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام آتيا بطريق التلقى عن نوح عليه السلام وهم الكلدانيون »[٣٢] .

وإن هؤلاء اشتغلوا بكتب الفلسفة على أنها كتب تعليم فلما جاء الاسلام نشر التمدن فى العالم الذى حمله الأوربيون إلى بلادهم بنشاط وهمة «وجمعوا كتب العلوم الشرقية من بلاد المسلمين شرقا وغربا .. وصرفوا فى ترجمتها وتحصيلها الأعمار الطويلة والأموال الكثيرة وانكبوا عليها تعلما وتعليما»[٣٣] حتى أوصلتهم التجارب إلى الوقوف على أسرار الكون وتطرقت المناظرة إلى قصة فرعون مع بنى اسرائيل وهل مات فرعون مؤمنا أم كافرا فأوضح النديم إتفاق العلماء على عدم إيمانه «فالايمان إذا لم يكن مقترنا بشهادة أن لاإله إلا الله وأن النبى الداعى رسول الله لايكون مقبولا لأن الايمان بالله مع عدم الإقرار بصحة رسوله تكذيب للرسول فى دعواه وتكذيب الرسول كفر على كفره لأنه ماشهد أن موسى رسول صادق ولا آمن برسالته»[٣٤] كما أوضح النديم بأن التوبة ليست للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال إنى تبت الآن .

وأشار النديم إلى توافق التوارة والقرآن فى فلق البحر بضربه بعصا سيدنا موسى واعتراض الاوربيين على ذلك بحجة أنه لايتفق مع العقل[٣٥] فاوضح ضرورة احترام مايرد فى الكتب المقدسة مشيرا إلى النصوص المقدسة فى كل من الكتابين الكريمين وإلى ضرورة احترام ماتعرض له الكتب الدينية .

وتطرقت الناظره إلى المسيحية ومولد سيدنا عيسى عليه السلام والإنجيل ككتاب سماوى مقدس واشارت إلى أن كل متمسك بدين يرى الحق معه فلو اعتقد الناس صحة جميع الأديان ماوقع بينهم خلاف .

واشارت المناظرة إلى قبة الصخرة فى بيت المقدس وكيف أنها من عجائب الله سبحانه وتعالى كما تعرضت إلى قصة الاسراء والمعراج معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم(٣٥) .

كما تطرقت المناظرة إلى أحوال مصر حيث كان هدف النديم من التعرض للاديان والمقارنة بين الشرق والغرب هو التمهيد للوصول إلى المسألة المصرية حيث يقول «فماذكر الأديان إلا وسيلة للدخول فى المسئلتين ، وما المسئلتان إلا تمهيدا للمسألة المصرية(٣٦) فتعرض النديم لأحوال مصر السياسية فذكر أن رياض باشا كان «أحد الرجال المدربين على الأعمال السياسية والادارية بل هو الرجل الصبور على الشدائد الذى لايقابله مصرى فى اعماله»(٣٧) وأنه كان جريئا لدرجة أنه اعترض على الخديو اسماعيل فى وقت كان لايستطيع أحد أن يفتح فمه بكلمة وتطرق إلى تاريخه السياسى واعماله فى تضييق الديون وترتيب قلم المراقبة ، ومساعدته للنديم فى تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية(٣٨) .

وتعرضت المناظرة إلى أهمية التعليم وانشاء المدارس فذكر النديم «إنى كنت أحب تعميم مدارس الجمعيات الوطنية لتخليص البلاد من ضيق الأمية»(٣٩) .

وتطرق النديم إلى ماتكتبه الجرائد المصرية والأجنبية ضد الحركة الوطنية المصرية والشائعات التى كانت تتوارد بين الناس حول مصيره(٤٠) .

وبعد أن بدأ اعضاء البرلمان الانجليزى فى مناقشة المسألة المصرية طلب النديم من الفرنسى أن يترجم له كل مايختص بمصر ، موضحا أنه ليس لديه ثقة فى الانجليز سواء أكانت حكومتهم من الأحرار أو المحافظين فكل منها يعمل لمصلحة بلاده دون النظر إلى حق ابناء مصر الضائع خصوصا وأنه لاتوجد روابط دينية أو جنسية أو لغوية أو وطنية بين المصريين والأنجليز[٤١] .

وتعرضت المناظرة إلى أحوال مصر بعد الاحتلال الانجليزى لها وكيف قبض على الوطنيين ونفى بعضهم وحوكم البعض الآخر ، كما أشارت إلى تكدر ابناء مصر من الاحتلال وإلى رغبة فرنسا فى ألا تعلن بريطانيا حمايتها على مصر[٤٢] .

ويتضح من المناظرة أن النديم كان يرغب فى أن يتضمن هذا الكتاب ماكان قد جمعه عن العديد من الوطنيين المصريين قبل اختفائه ولكن لسوء الحظ ضاع على تاريخ مصر الكثير من عصارة فكر النديم وجهده خلال تسعه عشر عاما فالمعروف أن معظم مؤلفات النديم قد فقدت فى زمن حياته لأسباب شتى منها غرق بعضها فى النيل وذلك اثناء مهاجرة والده من الاسكندرية بعد ضرب الانجليز لها وذهابه إلى القاهرة مع من هاجر وكان قد احضر معه كتب النديم جميعها فى ثلاثة صناديق كبار ولما وصل القطار إلى كفر الزيات تزاحم عليه المسافرون من المهاجرين تزاحما هائلا نتيجة لهول الموقف وخشية وصول الانجليز اليهم فلم يسع رجال المحطة إلا أن يرمواجميع أمتعة الركاب فى النيل ليركب الناس مكانها[٤٣] .

ومنها مافقد عن طريق السرقة كما حدث عندما غافله خادمه اثناء اقامته بالمنصورة وسرق بعض متاع البيت ومنها الكتب وهرب ، ومنها

ماتم اغتصابه حيث كان النديم إذا سود شيئا جاء إليه من يستعيره منه ثم لايرده إليه وقد فعل معه ذلك جماعة من القاهرة والاسكندرية والمنصورة ، كما أن بعض مؤلفاته قد حرقت كما حدث فى بلدة بدواى دقهلية عندما اختلف النديم مع عمدة البلده وحرق بعض المتآمرين من انصار العمدة بيت النديم من كتب بعد فراره منه ، ومع ذلك فإن ماتبقى من مؤلفاته يكفى الحكم عليه بأنه كان أحد كبار المؤلفين المصريين فى القرن التاسع عشر[٤٤] .

نعود إلى كتاب «كان ويكون» فنذكر أن ماورد فيه من مناظرة بين النديم والخواجة الفرنسى يوضح بجانب قدرة النديم العلمية وتضلعه فى المسائل الدينية صلابته فى ذكر الحقائق حتى ولو كانت قاسية على نفسه أو كان أصحابهامن أعدائه والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها : عندما تطرق موضوع المناظرة إلى رياض باشا وهو من أعداء النديم ومن أكبر الناقمين عليه كان النديم موضوعيا فى حكمه عليه فاشاد به وباعماله واصلاحاته[٤٥] .

ويتضح من المناظرة اعتماد النديم فى كتاباته على المصادر الدقيقة اكثر من اعتماده على الروايات والأقاصيص لامتلاء معظمها بالتخيلات والخرافات والمثال على ذلك أنه حينما تطرقت المناظرة إلى موسى وفرعون واختلف النديم مع الفرنسى فى الرأى أوضح النديم أنه لايأخذ بخبر من الأخبار إلا إذا استند إلى أحد الأصلين العظيمين القرآن والسنة أو إلى احدهما[٤٦] .

كما يتضح من المناظرة سماحة النديم وعدم تعصبه أو تشويشه على آراء الآخرين المخالفين له فى الدين فعندما سأله الفرنسى عن أن اعتقاده فى سيدنا عيسى على غير مايعتقده هو أوضح له النديم أن كل انسان له الحق فى اعتقاده دون حرج وان كل متمسك بدين يرى الحق

معه ، وأن المصريين لايقبحون أعمال الآخرين الدينية مبينا أن الجدال بينهما لن يؤدى إلى الشحبات لأن الناس لو اعتقدوا فى صحة جميع الأديان لما وقع بينهما أختلاف[٤٧] وإلى جانب ذلك يتضح لنا مدى ثقافة النديم الدينية الواسعة التى استطاع بها أن يتطرق إلى موضوعات دينية حساسة سواء أكانت يهودية أو مسيحية أو اسلامية أو غيرها ، كما يتضح مدى ضلاعته فى اللغة وفهمه العميق لأسرارها

وعلى كل حال فقد صدر كتاب كان ويكون فى ٢٥٦ صفحة ويتضح لمن يقرأ هذا الكتاب أنه ناقص من آخره فتنتهى آخر كلمة فيه عند جملة «فلاتكاد ترى» ثم تنقطع الكتابة عند هذا الحد . ويرجع ذلك من وجهة نظرنا إلى أن هذا الكتاب كان يطبع على هيئة ملاحق توزع مع مجلة الأستاذ التى كان يصدرها النديم ، ولما أغلقت المجلة فى ١٣ / ٦ / ١٨٩٣ بناء على اصرار كرومر ، ونفى النديم توقف استكمال طبع الكتاب ولم تطبع الأربعة والستون صفحة الباقية منه كما يذكر صاحب سلافة النديم .

وكتاب «كان ويكون» صدر فى ثلاثة أجزاء طبعت مطبعة المحروسة الجزء الأول منه ، وفقد الجزء الثانى منه مثل الكثير من مؤلفات النديم التى تعرضت للضياع أما الجزء الثالث فقد عثر عليه الدكتور محمد أحمد خلف الله مخطوطا فى دار الكتب المصرية تحت عنوان تاريخ مصر فى هذا العصر فحققه وقدم له بتمهيد عن حياة النديم ومكانته وجهوده السياسية والأدبية ثم طبعه فى عام ١٩٥٦ تحت عنوان عبد الله النديم ومذكراته السياسية مضيفا إليه خطبتين من خطب النديم ، ومقالتين ومحاورة ، وخمس رسائل من رسائل النديم إلى عرابى فى منفاه فى سيلان والكتاب يشمل المسألة المصرية وتاريخ مصر عن الفترة قبيل عصر محمد على وعن عهد محمد على وابراهيم وعباس ونشأة الحزب الوطنى

الأول والدور الذى قام به ، وعصر اسماعيل وتوفيق والثورة العرابية .

وبعد أن عرضنا لكتاب النديم «كان ويكون» يطرح علينا سؤال نفسه هل ماكتبه النديم يعتبر نوعا من المذكرات خصوصا وأن الدكتور محمد احمد خلف الله قد أطلق على الجزء الثالث فى هذا الكتاب « عبد الله النديم ومذكراته السياسية »[٤٨] .

الواقع أن الشروط التى يجب أن تنطبق على وصف بعض الكتابات بالمذكرات لاتتوفر كلها فى هذا الكتاب فشرط المذكرات أنها تصور الحادث عند وقوعه أو الرأى عند تكوينه[٤٩] أما ماكتبه النديم فقد كان بعد وقوع الأحداث ، ولابد أنه تأثر اثناء كتابته بحالته النفسية وقت الكتابة لذلك يغدو من الصواب أن نذكر أن هذه الكتابات أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات[٥٠] .

وعلى كل حال فإن كتاب كان "ويكون" الذى نقدمه إلى الناطقين بالضاد بعد مايقرب من مئة سنة على تأليفه يعتبر أحد مؤلفات النديم الهامة والمتنوعة التى شملت أفكارا قيمة وبحوثا ادبية ودينية وتاريخية وسياسية هامة تناولها فى أسلوب شيق جذاب وبروح الباحث المحقق مما جعلها على جانب كبير من الأهمية لكل من يرغب فى التعرف على تاريخ مصر وثقافتها فى القرن التاسع عشر .

والله ولى التوفيق

ا.د. عبد المنعم الجميعى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية التربية. جامعة القاهرة

هوامش المقدمة

١ ــ عن تفاصيل هذه المؤلفات وموضوعاتها انظر : سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم حـ ١ القاهرة ــ مطبعة هندية ١٩١٤ ص ٢٠ .

٢ ــ أحمد تيمور : تراجم اعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٠

٣ ــ الاستاذ : العدد الرابع عشر فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٢ ص ٣٢٠ تحت عنوان «باب الانشاء والمأثر»

٤ ــ نفسه .

٥ ــ عبد الله النديم : كان ويكون ج ١ .القاهرة ــ مطبعة المحروسة ص ٢٠٥ تحت عنوان «الجواب بعد العنوان».

٦ ــ عبد الله النديم : المصدر السابق ص ٦

٧ ــ نفسه

٨ ــ على الحديدى : عبد الله النديم خطيب الوطنية . القاهرة سلسلة اعلام العرب ص ٢٥٤

٩ ــ كان ويكون ح ١ ص ١٢

١٠ ــ عن نص الخطاب انظر :
كان ويكون ح ١ ص ١٣

١١ ــ نفسه ص ١٤

١٢ ــ نفسه ص ١٤

١٣ ــ على الحديدى المرجع السابق ص ٢٥٧

١٤ ــ كان ويكون ص ١٥

١٥ ــ على الحديدى : المرجع السابق ص ٢٥٨

١٦ ــ كان ويكون ص ١٥

١٧ ــ اختصر ذلك اثناء الكتابه فاصبح حرف غ يدل على الفرنسى واصبح حرف ش يدل على النديم

١٨ ــ كان ويكون ص ١٦

١٩ ــ نفسه

٢٠ ــ نفسه ص ١٧

٢١ ــ نفسه ص ١٥

٢٢ ــ اشار إليه النديم فى مكاتباته بحرفى «سع» وهما كما هو واضح نصف اسمه ، كما أشار إلى زوجة الفرنسى بالحرف «س» اختصار لكلمة ست

انظر محافظ مجلس الوزراء ــ نظارة الداخلية ــ محفظة رقم ٢٢

محضر استجواب النديم

٢٣ ــ كان ويكون ص ٢٠

٢٤ ــ كان ويكون ص ٥

٢٥ ــ نفسه ص ١٠

٢٦ ــ نفسه

٢٧ ــ كان ويكون ص ٢١

٢٨ ــ نفسه ص ٢٢

٢٩ ــ نفسه ص ٢٧

٣٠ ــ كان ويكون ص ٢٧

٣١ ــ نفسه ص ٣٠

٣٢ ــ نفسه ص ٣١

٣٣ ــ نفسه ص ٤٩

٣٤ ــ كان ويكون ص ١٢٥

٣٥ ــ نفسه ص ١٩٤ ومابعدها

٣٥ مكرر ــ نفسه ص ٢٢٠ ــ ٢٢١

٣٦ ــ كان ويكون ص ٢٦

٣٧ ــ نفسه ص ٧٠

٣٨ ــ نفسه ص ٧١ ــ ٧٢

٣٩ ــ نفسه ص ٧٢

٤٠ ــ نفسه ص ٥٦ ــ ٥٨

٤١ ــ كان ويكون ص٢٠٣

٤٢ ــ نفسه ص ٢٠٨

٤٣ ــ سلافة النديم ص ٢٣

٤٤ ــ عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية . القاهرة ــ دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠ ص ١٥٤ ــ ١٥٥

٤٥ ــ انظر كان ويكون ص ٧١ ــ ٧٢

٤٦ ــ كان ويكون ص ١١٤

٤٧ ـ نفسه ص ٢٠١ .
٤٨ ـ نشرته الأنجلو المصرية عام ١٩٥٦.
٤٩ ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ح ١ القاهرة ـ النهضة المصرية ١٩٥٢ ص ١٢
٥٠ ـ عبد المنعم الجميعى : الثورة العرابية . بحوث ودراسات وثائقية القاهرة ـ دار الكتاب الجامعى ١٩٨٢ ص ١٩٣ ـ ١٩٤

••••



ثبت المصادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة

دار الوثائق القومية بالقلعة :

محافظ مجلس الوزراء . نظارة الدخيلة محفظة ٢٢ محضر استجواب عبد الله النديم .

ثانيا المصادر والمراجع

١ ـ احمد تيمور : تراجم اعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ، القاهرة ١٩٤٠ .

٢ ـ عبد الفتاح نديم : سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم الجزء أول . القاهرة ـ مطبعة هندية ١٩١٤

٣ ـ عبد الله النديم : كان ويكون . الجزء الأول القاهرة ـ مطبعة المحروسة ١٨٩٢ .

٤ ـ عبد المنعم الجميعى :

ا ـ الثورة العربية بحوث دراسات . القاهرة ١٩٨٢ .

ب ـ عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية القاهرة ـ ١٩٨٠

٥ ـ على إلحديدى : عبد الله النديم خطيب الوطنية . القاهرة سلسلة اعلام العرب د . ت .

٦ ـ محمد أحمد خلف الله : عبد الله النديم ومذكراته السياسية القاهرة ـ الانجلو المصرية ١٩٥٦ .

٧ ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية الجزء الاول القاهرة ـ النهضة المصرية ١٩٥٢ .

ثالثا الدوريات

مجلة الاستاذ نوفمبر ١٨٩٢

••••



كان ويكون

لمؤلفه الفاضل

السيد عبدالله افندي النديم الشريف

الادريسي الشافعي

الاسكندري

هذا الكتاب احد الكتب العشرين التي ألفها وحررها حضرة شقيقي الفاضل السيد النديم ايام اختفائه وبيده الآن ستة كتب تحت الاتمام اعانه الله تعالى على هذه الخدمة العامة فانه حفظه الله تعالى لم يضع وقتاً من سني الاختفاء بلا اشتغال مع احاطة فكره اذ ذاك بالمكدرات والمزعجات اذ كانت ثقته بالله تعالى اكبر من خطوبه وامله في النجاة دافعاً لاوهام العطب . وسنطبع منها في الجريدة ما يناسب مشربها ان شاء الله تعالى وابتدأنا بكان ويكون لكونه تاريخاً ادبياً عاماً وهو جزآن ضخمان ينشر على التوالي خدمة لأولي الالباب

عبد الفتاح
النديم

طبع بمطبعة (المحروسة) بمصر سنة ١٨٩٢


منتدي أنا المصري

بسم الله الرحمن الرحيم

أُبسمل والمسمّى ناءٍ عن الآناء · وأُحمدل والحمد لهُ أَلَى من الآلاء · فهو الابديُّ ذاريُّ الآباد · استأحد بالبَرءِ فابرز الآحاد · وشاء المكوّنات فانطوى السبق في الأشاوَى · وتنزّه عن الامد فدمغت اوليته الدعاوَى · اوجد ملكه بِدْءاً جهل كل بديع إساسه · وساسه بما بادت في درك كنهه السأسه · يبدي ويعيد بلا تبادل · ويدلي وينثي على تعادل · غاب عن انسان وظهر بالانسان · وادلى باحسان واعلى بالاحسان · وحث وامر · ونهى وزجر · ثم حرر العمل · واطلق الامل · ليعمل كلٌّ على شاكلته · ويفر من شباك غائلته · فحلفاء الاوامر مجازون · وأُلفاء الزواجر مجازون · والله خلقكم وما تعلمون · منه بدؤكم واليه ترجعون · خلق الانسان مركباً معروضاً للفساد · واسكنه ارضاً رواج اسواقها كساد · وبث فيه ارواحاً تبعث قواه وافعاله · وهيّأهُ للكمال بقوة درّاكة فعّاله · ثم اختار له منه رجال العزائم · ليدله عليه بالمثيل الملائم · واوحى وكلّم · وارشد وعلّم · وقال انا الاول فادعوا اليّ وانا الاخر فدلُّوا عليّ · وكونوا بطَوْلي مبشرين · ومن بطشي محذرين · واعملوا في هذه الدار لتلك الدار · ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار · فشدّوا في الانقياد معقد الإزار · واسمعوا النهى وبلّغوا الإمار · ووقفوا بين الحدين وقفة الموثق بالحبال · وتحملوا من الاعباء ما ينوء بشم الجبال · ونادوا بالاخاء والتساوي · والكف عن المظالم والمساوي · والدور مع الحق

حيثما دار . والسير مع الصدق انّى سار . وتوحيد كلمة الاجتماع .
وتبديد بوادر الابتداع . فرحين بمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره .
مشفقين من ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره . وعلى هذا دارت ادوارهم
الدغائية . وانقضت انتخاباتهم الاصطفائية . اذ بدأ مظهرهم الفيضي بآدم
الاولية . وأتبعه بكل طاهر مصفى من شوائب الحيوانية . وختم رحيق
تاريخهم السلسل . بخاتم عقد نظامهم الامثل . سيدنا ومولانا محمد . الذي
لم تَشُب حريته بذلة العِبْدَان . أحَدِ الأحَدِينَ المنتقى من ولد عدنان .
فعلى جمعهم الشريف صلاة وتسليم . والى دعواتهم الحقة انقياد وتسليم .
وسبحان من لا يدرك اوليته تاريخ ولا يلحق بقاءه زمان . ولا اعياه ما
كان ولا يعجزه الإمكان . اسأله تعالى اجراء قلمي بين قصبتي الحق
والصدق . وحفظه من التشيع الى فئة والحط على اخرى بلا حق . والاعانة
على هذه الخدمة العامة . حتى تنتهي ملخصة تامة . فانه وحده الفاعل
المختار . وكل ما سواه آثار



مقدمة

يقول الواضع كتابي هذا سميته (كان ويكون) وقدمته خدمة للامم الشرقية على اختلاف اديانهم واجناسهم واوطانهم — وقد ابتدأت الكتابة فيه في الساعة الثامنة من يوم الخميس ٢٨ ربيع الثاني عام ١٣٠٠ هجرية الموافق ٨ مارس عام ١٨٨٣ ميلادية في قاعة ظلماء وحيداً بعيداً عن العلماء والكتبيات والجرائد مختفياً متغيباً عن الجواسيس والعيون من الباحثين علي" واذا اعان الله تعالى على اتمامه وانهائه على ما تصورته ورتبته في مخيلتي اطلقته بين القراء في صورة فذلكة دينية ولغوية ووطنية وسياسية وجنسية وادبية وتاريخية مكلفاً بطالب الصحة والدليل ولا ادعي العصمة فيه بل اقول انه قابل للبحث مهيأ للانتقاد معرض للاعتراض ولكن اذا حفظ لي القارئ في نفسه اربعة حفظت له مثلها . اذا حفظ لي حق الانسانية من حيث هي في بنيها على اختلاف الجنس والمعتقد حفظت له الفضل في ذويه وعرفته بالمهذب الكامل . واذا حفظ لي سلامة الذوق في النقد والتحقيق حفظت له حقي التصويب والتخطيء . واذا حفظ لي صبره حتى يفرغ من الكتاب مطالعة حفظت له عن كل اعتراض جواباً فاني لا التزم قرن الجواب بالاعتراض في كل المواضع . واذا حفظ لي معرفة وحدتي في غربتي بل قاعتي وتشويش افكار من يكتب جاهلاً عاقبة اختفائه مكدراً بسموعه كل وقت عرفت له فضل المدارك العالية

وصفح الاحرار عن تقصير من يكتب وهو بين مخالب النوائب

ولا يرى القارئ اني شددت فيما طلبت او تمحلت بما اشترطت فاني لم اقدم له ذلك الا لكوني لا اكتب كتابي هذا على مشربه الخاص ولا اضعه على مذهبه المعين ولا اؤلفه لطائفته المستقلة ولا اخص به جنسيته الجليلة ولا لاحبسه في وطنه العزيز بل لأُطلقه في الشعوب والقبائل والعشائر والاقاليم على ما هي عليه فخذ ما نابك منه واترك ما لا يرضيك لمن يرضاه واقرأه من باب علمك به من غير ان تكلف بالعمل

فان سأل سائل عن سبب وضعه اجبته باني لم اضعه امتثالاً لامر ملك او خدمة لامير او ذي جاه او لطمع في جائزة او موافقة لامة دون اخرى بل عند ما خرجت متغيباً ووصلت المنفى الاول تذاكرت مع الصديق الفاضل العالم العامل صاحب البيت في حوادث الشرق الاخيرة واهميتها بالنسبة للمؤرخين وكاشفته بما كنت مشتغلاً به من جمع الحوادث المهمة المختصة بالشرق والغرب ديناً وسياسةً وتخليدها في كتابي المسمى (مقابلة النظير) واني انهيت منه اربعة اجزاء ضخمة الى السلطان محمود واريد الآن ان اشتغل باتمامه فقال حفظه الله تعالى يمنعك من الكتابة الآن ظلمة القاعة واشتغال فكرك بهذه المزعجات الحاصلة ولو نشطت للكتابة فانك لا تعلم ان كان كتابك فقد او بقي موجوداً فيكون هذا الجزء الاخير ابتر ولو صفت الاوقات وانصرفت عنك المكدرات للزمك ان تكتب تاريخاً عاماً بصورة فذلكة تاريخية وما اظنك تقوى على هذا الآن فانصرفت عن الكتابة

ونظمت قصيدتي المسماة وطنية الشرق التي مطلعها وما بعده ..

بكل صروف الدهر يمتحن الحرُّ وفوق جبال العزم ينهمر الضر

رويدك لاحيي الحر هذا طريقه فجبه ولُم ان طال في الدّآب العمر

تنام ونصحو في غروب وبكرة وليل شديد الباس ليس له فجر

يقلب فكرًا فوق جمر عظائم اذا اشتعلت نيرانها برد الجمر

وهي ثلثمائة ونيف وستون بيتاً اخلصت فيها النصح للشرقيين على اختلاف الجنس والدين . ثم لما تحولنا من بلدته الى هذه البلدة يوم الاربعاء ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٠٠ توجه الى مصر وبعد ايام ارسل لي مكتوباً بقلم وضعناه لمراسلتنا حتى لا يعرف احد سرنا لو عثر على شيء من كتبنا يقول لي فيه ان فلاناً سيضع كتاباً يجمع فيه حوادث مصر المتوجة للقرن الثالث عشر الهجري فعلمت انه يشير بوضع ما كنت مشتغلاً به بقدر امكاني الآن ورأيت ان المؤرخين من الشرقيين والغربيين سيقتدون بمن تقدمهم من مدح فئة وذم أُخرى مطلقين اقلامهم فيما يوافق مشاربهم واغراض معاصريهم طمعاً في جائزة او ارتقاء لمنصب وما اضيع الايام في مثل هذه الاعمال

ولئن اعتذر المؤلف للافاضل من معاصريه عما تضمنه كتابه من مخالفة الواقع بعلة من العلل المتقدمة فمن يعتذر عنه اذا انحرفت نفسه عن هيكلها ونشرت صحفه على من يأْتي بعده من رجال الفضل الباحثين في سير الهالكين واخبار الماضين وقوبلت بما يدونه ارباب الافكار الحرة من سرد الوقائع وبسط الحوادث على ما كانت عليه فاضلة في اهلها او

مفضولة فانه لا يخلو عصر من وجود هذا الفريق الشريف قديماً وحديثاً على ان الناظر للمسئلة الاخيرة كالناظر في عضو مبان لا يدري القارئ من اي جسم هو اذ انه مقتضب بعد ستر سماء السياسة الشرقية بسحب العمل وتجريد سيفها المغمد ثلاثة عشر قرناً ليدفع القول بقوة الفعل — هذا على فرض حرية قلمه وصدق عبارته فان جرى على قاعدة بعض المؤرخين في قولهم (وبنى الامير او الملك البيوت وشيد كثيراً من القصور واقتنى الوفاً من الغانيات والغلمان الصباح وجمع مئيناً من المغنيات والراقصات وحاز صنوفاً من آلات الطرب واواني الشراب واسس المراقص والملاعب والملاهي وملأ الخزائن بنفيس الجواهر والمعادن والبسط المزركشة والطنافس المذهبة واعطى فلانة المغنية مائة الف دينار وفلاناً المضحك خمسين الفاً وفلاناً الشاعر الف الف درهم واقطع الامير فلاناً اقليم كذا والسيد فلاناً مدينة كذا وقتل الوفاً ممن يعارضونه في اوامره واعماله ومن اشاروا عليه بتخفيف مصروف الملاهي وتقوية الحصون وتكثير الجنود) ثم خلط هذه النقائص بقوله (وخاطب دولة كذا طلباً للاصلاح وسعياً خلف العمران واحكاماً للسياسة وتوسيعاً للتجارة) جاء الكتاب امشاجاً لا حد لموضوعه الا هذه مدائح فلان ولا ثمرة له الا مخالفته للواقع ونفس الامر

هذا اذا كانت عبارته عامة في موضوعها فان خصصها بامة او قيدها بدين تكلف انتقاص الغير وعد فضيلته رذيلة واوما الى فضيلة من يعنيهم ان لم يتمكن من التصريح وتغاضى عن مصالح الشرقيين من حيث هي في مواطنهم مع اختلاف الجنس والدين الداعية لوحدة الاجتماع

القاضية بدفع النفرة وصرف الاحقاد من القلوب · وما اثبت النفرة بينهم بالعوارض الدينية والسياسية الا مثل هذه الكتب ووسائل الاصلاع التي اوغرت الصدور ومكنت العداوة بين قوم تدعوهم ضرورة الاستيطان الى السكنى في بيت واحد · فما قدمته من العلل كان الباعث على وضع كتابي هذا داخلاً فيه بالمقابلة بين الدورتين الشرقية والغربية على اصول المسئلتين بعبارة لا يمل القارئ تلاوتها ولا تقصر في اداء المقصود ولا تتعرض لذم او مدح او تقبيح او تحسين · وكنت اود ان لو ساعدتني المقادير على وجود ما جمعته في السنين الخالية من منتخبات التواريخ العربية والتراجم التي قصدت فيها كثيراً من افاضل الوطنيين وما ضبطته من الوقائع المصرية والعثمانية والافرنجية الصادرة في عصرنا بالنص المحرر فيها والوقت الحاصلة فيه ولكن ابى سوء الحظ الاّ ضياع اتعاب تسعة عشر عاماً مع ما ضاع من والدي حال مهاجرته من اسكندرية الى مصر في ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٩ اذ جمع مختارات كتبي ووضعها في ثلاثة صناديق كبار واخذها معه يوم خروجه على غير علم مني ففقدت منه في كفر الزيات بطريقة مذكورة في كتاب الاختفاء · وعند ما خرجت من مصر استصحبت معي مذكرتين صغيرتين كنت اقيد فيهما زوائد وشوارد مؤملاً وصولي الى مكان امن فيه اتم الكتاب وهما وان كانتا لا تقومان بكل المقصود الا انهما تساعدان على التذكار والتخيل · وساجتهد في صرف الشواغل بقدر ما يمكن واتخيل محفوظاً او مشاهداً واضعه مع ما في المذكرتين في قالب يمكن الحاضر من تطبيقه على منظوره ومسموعه

ويصور الآتي صور المواضيع على اشكالها التي لم يرها

فليتقبل القارىء ما اكتبه على انه شوارد افكار وتتمة اعمال وارشاد الى اجتماع شرقي ومقابلة غربية علماً وادباً لا خشونة وتظاهراً . وليعلم اني لا ارتب كتابي على ابواب وفصول بل اعنون المواضيع بعناوين تناسبها وامزجها بالطوارىء التي تعتريني ترويحاً لنفوس القراء وتسلية لذوي الافكار واذا جاريت طائفة في سرد عبارة دينية او شرح مقصد سياسي فاني اسرد ذلك باعتبار ما هو عليه عند اهله لا مقبحاً ديناً ولا مزدرياً بمشرب ولا مستخفاً بامة ولا متنقصاً لجنس فاذا عثر القارىء على اعتراض يخصه عند ما اتكلم على الاجناس والسياسات رجوته ان يتتبع المطالب ليرى الجواب عنهُ ان لم يجدهُ ملتصقاً بهِ فان هذه الطريقة اشوق لقراءة الكتاب وادعى لتتبع المباحث

فان تعلقت آمال القارىء بالسؤال عن المؤلف جنساً ونسباً ومولداً وديناً ووطناً اجبته باني رجل عربي الجنس حسني النسب اسكندري المولد والمربى اسلامي الدين اشعري العقيدة شافعي المذهب خلوتي الطريقة مصري الوطن تربيت على نفقة والدي حتى يفعت واخذت عن العلماء الافاضل كثيراً مما به يشتغلون من السمعيات والعقليات وجالست الادباء وشاركتهم فيما فيه يتنافسون وخالطت الامراء وداخلت الحكام وعاشرت اعيان البلاد وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة وادركت ما هم فيه من الجهالة ومما يتألمون وماذا يرجون وجاريت كثيراً من متفرنجة الشرقيين والممت بما انطبع في مرآة صدورهم من اشعة الغربيين

وصاحبت جماً من افاضل الشرقيين المتعلمين في الغرب ممن ثبتت اقدامهم في وطنيتهم وفطروا على حب الجنس والوطن والدين وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت افكارهم عالية او سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم من مواطنهم واستيطانها وخدمتها واختلطت باكابر التجار وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة والسياسة وامتزجت بلفيف من الاجناس المتباينة جنساً ووطناً ودينا واشتغلت بقراءة كتب الاديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والادب وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً واتجرت برهة وفلحت حيناً وخدمت الافكار بالتدريس وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت اليه بعناء كساني نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبى وسبكني في قالب الكهولة ايام الفتاء وتوجني بتاج الهرم الابيض بدل صبغة الشباب السوداء فصورتي تريك هيئة ابناء السبعين وحقيقتي لم تشهد من الاعوام الا تسعة وثلاثين (اي الى سنة ١٣٠٠ التي هي سنة التاليف) مبتدأة من عشر ذي الحجة سنة ١٢٦٢ فان عرفتني بهذه الصفات عرفت اني عبدالله وفقني لهذه الخدمة ابتغاء مرضاته وان ابيت الا التصريح جاءك لقبي في خلال الكتاب فانه على ما تصورته انيس للغريب وللوحيد نديم



﴿ يوم الجمعة ﴾

﴿ غاية ربيع الثاني سنة ١٣٠٠ و ٩ مارس سنة ١٨٨٣ ﴾

بعد ان فرغت من المقدمة واردت الاشتغال بالتاصيل في هذا اليوم تذكرت صاحباً لي من الغربيين له ابعادية بالقرب من بلدتنا هذه واعلم انه لم يهاجر الى فرانسا ايام مهاجرة الاوروبيين من مصر بل بقي هنا ليكتب الحوادث عن مشاهدة ويقين ولهذا الصاحب معرفة تامة باللغتين العربية والتركية غير ما يعرفه من اللغات الغربية وكان قد حضر من باريس في شهر ذي القعدة سنة ١٢٩٨ بعد حركة عابدين الشهيرة واقام هنا متتبعاً الحوادث يكتبها باوقاتها منقولة عن مصادرها بحقائقها لاشتغاله بمسائل الشرق من امد مديد فكان تعارفنا قبل ذلك باسكندرية سنة ١٢٩٢ هجرية حيث كان يتردد على الديار المصرية والاقطار العربية والشامية في كل سنة ثم يعود الى فرانسا فقلت للصديق الماجد رب الدار اريد ان اكتب ورقة الى الخواجه فلان وارسلها مع حضرتك لتدعوه الى زيارتنا لعلي اجد عنده من المواد ما يساعدني على ما شرعت فيه وبعد مراجعته لي المرة بعد المرة قلت له لا تخش شيئاً فاني واثق بذمته وعلو همته وقد استخرت الله تعالى فانشرح صدري لهذا الامر فتوجه اليه واعطه جوابي الذي اكتبه اليه فان سالك عن مكاني فقل له هو عندي وان رغب الحضور فاحضره معك من غير ان تخوف منه في شيء وبعد توقفه نحو ساعتين قال اكتب ما شئت فكتبت اليه هذا الكتاب واخذه وتوجه به وهذه صورة ما كتبته بعد العنوان

« صديقي ولا ازيدك على المصادقة شيئاً فما بعدها الا مقام الابوة او البنوّة. لي ستة اشهر لم يعلم بمكاني والدي ولا شقيقي فضلاً عن الاحباب والاصحاب وكم هممت بمخاطبة اناس كنت ارى منهم الحنو وشبه الاخاء ايام الرخاء فيضيق صدري وتجزع نفسي وتنكمش اعضائي عند ما اهجس بذلك فاكف عن الكتابة بتذكري انقلاب الناس بانقلاب الاحوال خصوصاً وانا ارى الذين طاروا خلفنا باجنحة الاغراض الذاتية وملأوا البلاد مدحاً وثناء عادوا لمكاتبة الجرائد بالمذام والاهاجي شأن عبدة الاوهام وحكاة صدى المنادي من غير فهم معناه : ولما تذكرت وجودكم بالقرب مني ورأيت سهولة مخاطبتكم انشرح صدري ونشطت اعضائي فلم ادرِ ان كان ذلك لوثوق القلب بامانتكم وعلم الروح بطهارة ذمتكم وصدق حريتكم ام لانقضاء زمن الاختفاء على يديكم اذ تدل عليّ او تغري من يدل عليّ فسارعت بكتابة هذه النميقة منتظراً تصديقك احد الخاطرين. فكن نفساً بجناً حافظاً للعهد في زمن الشدة كما كان كثير من شداد العزائم من السابقين ولا تكن جسماً صرفا مائلاً للبدنيات التي تنزل بانسانية المرء الى حضيض البهيمية وبلغ قرينتك المهذبة سلام من القى نفسه بين يديك موقناً بان الله تعالى يلهمك الصواب ويجريك في شأني على صراط مستقيم »

الامضاء معلوم

ثم قعدت اجيل الفكر فيما فعلته والهواجس تاتيني بوساوس مزعجة وثقتي بالرجل تدفعها وتمانها حتى حضر رب الدار بعد ثلاث ساعات وعلى وجهه لوائح الكدر فتبسمت له متجلداً وسالته عن رحلته وما رآه فيها فقال

عندما وصلت بيت الخواجة وجدت عنده بعض الاجانب وثلاثة من مشايخ البلاد اعرفهم وبعد ان سلمت وسلم الجميع عليّ وشربت القهوة سالني عن موجب حضوري فناولته الورقة ففتح الظرف وقرأ المظروف ثم ناوله لزوجته فقرأته واعادته اليه فمزقه اربًا ورماه في الجنينة وقال لي وهو مغضب قل له انا لم اعطك هذا المبلغ لتتصرف فيه لزيد وعبيد ثم تعتذر بالضرورات فاحفظ لي حقي عندك قبل كل انسان حتى آتيك ونتحاسب واياك ان تمد يدك لبنك او لخواجة غيري فانك ان فعلت ذلك وقعت في شرك المحاكم وحكمت عليك بما لا ترضاه -- فقلت له هل من تذكرة صغيرة ابلغها اليه فقال يكفيك ما سمعت ثم اخذ يتكلم مع الاجانب بلغته فظننت انه يخبرهم عنك فامتلأت خوفًا عليك وصرت الومك في سري على مخالفتك لي وانتظرت قيام الناس لاخلو به فعلمت من كلام دار بينهم انهم مدعوون عنده للغداء ثم انه التفت اليّ وقال لي تفضل وقل لهُ ما سمعت فقمت وانا ذاهل الفكر وسرت مكدرًا حتى جئتك — فقلت له يا صديقي ان الرجل صدوق حريص على الصحبة وقد التزم الحدة في خطابه معك ليصرف افكار الحاضرين وهو بعبارته التي القاها عليك يشدد عليّ بعدم اخبار احد عن مركزي ويحذرني من الوثوق بغيره مدة التغيب وينذرني بان الناس تغيرت احوالهم فان اخبرت صديقًا غيره ربما انقلب عدوا وسلمني الى الحكومة فتحكم عليّ بما تراه ثم انه وعد بمجيئه وان لم يعين الوقت فعبارته كلها خير ونعم ما فعل معك — ثم بقينا يومنا نتذاكر في احوالنا وما جاء به الصديق من الاخبار الطارئة . وفي الساعة الحادية عشرة جاء مامور المركز

ونزل بالمضيفة فنزل اليه صديقي ليحييه و يقضي له ما يريد من البلد وعند الغروب جاء الصاحب الغربي بجبة وقفطان وعمامة متخللا بحرام ابيض على هيئة مشايخ القبائل ودخل المضيفة فراى المامور فيها فتحول الى قاعة اخرى وقال لاحد الخدم ابعث لي عمك سرًّا فاني اريده لامر يخصه فجاء اليه الصديق وقابله وفرح به فرحاً شديداً وقال له حيث ان المامور لم يرك فتفضل امش مع خادمي هذا كانك ذاهب ثم ادخل الى صاحبك من باب الدار فانه في محل خصوصي في جانب من بيت الحريم · وبينما انا جالس واذا بهذا الوفي دخل عليَّ وسلم سلام المشوق الولهان فعرفته بصوته وقمت اليه وتعانقنا عناقاً طويلاً تخلله ضحك وبكاء ثم جلسنا ودار الكلام بيننا فقص عليَّ اخباراً واحوالاً لا علم لي بها فتكدرت وامتلأت غماً وهماً ثم راجعت نفسي ورجعت اليه بالكلام فاخبرته بشروعي ورجوته ارسال بعض الكتب والمواد التاريخية · فقال لابد ان اشاركك في هذا العمل واساعدك عليه الا انه عدل بي عن طريق التحرير المرسل الى وضع الكتاب على ما يدور بيننا من سؤال يقترحه وجواب اقدمه ونص عبارته

اري ان الزم زيارتك كل يوم او يومين مدة اختفائك وان كان في ذلك مشقة الركوب صباحاً ومساء واشاركك في سكنى هذه القاعة نهاراً واحب ان تكف عن الكتابة المرسلة وتجعل الكتاب قاصراً على سؤالي وجوابك فاذا فرغنا من المناظرة تركتك تكتب ما يدور بيننا وثاني يوم نقرؤُه قبل الخوض في غيره خشية ان يغيب عنك بعض المطالب حال الكتابة بحيث تكتب ما يدور بيننا على انه من متناظرين لا رابطة

بينهما الا الصورة الانسانية فتعطي كل مقام ما يناسبه ولو ادى لانتقاص احدنا او كلينا · والمعنون اوربا بالغرب موافقة للشرقيين في تعبيرهم عن جنوب اوربا واوساطها وشمالها بالغرب مقابلة للشرق وعنوني بغربي وعنون نفسك بشرقي وسم الدين المسيحي بالمسئلة الغربية ولدين الاسلامي بالمسئلة الشرقية مجاراة للسياسيين في تعبيرهم · ثم ليكن سيرنا باعتبار تاصيل العصبيات وواضعي الدينين لندخل على المقصود من بابه واذا فرغنا من تحقيق مبادئ المسئلتين والعوارض التي اعترضتها والوقائع التي تخالت مدتيهما تركتك تسرد تاريخ مصر سردا مرسلا فاذا عنَّ لي امر اثناء سردك سالتك عنه · ولا تصرح باسمي الا في آخر الكتاب · واذا سالتك عن امر في جانب الشرق دينيا كان او سياسيا او قبيليا فاترك الميل الجنسي والحب الوطني واجبني بحقائق لا تنكر عليك فان رجع الي السوأل اجبتك عن الغرب بحقائق لا تنكر عليَّ · واذا طرأ علينا بحث في اثناء مطلب وسالتك عنه فلا تتاخر عن الجواب فان المناظرة تقضي باعتراض شواذ يخطرها المطلب وشذور يستدعيها المقام · والتزم التصريح واترك التلويح في كل ما تقدمه جوابًا او سوألاً · واذا عز عليك مطلب فاجبني بقدر تصورك فيه ولا تترك سوألي ابتر فعذرك واضح واختفاؤك معلوم · واذا يسر الله العسير وزالت دواعي الاختفاء راجعت افكارنا على منقول او مسموع فما مذكرتاك الادفترا جيب لا يقومان بهذا المقصد الكبير · وارى ان مذاكرتي معك تكون كمادة تاخذ منها فتضطرك الى قدح افكارك ومراجعة معلوماتك في مطالب ربما اذهلك عنها تشويش افكارك بالنظر في

شانك وعاقبة امرك وتجلد لهذه الشدة فما هي الا ايام محنة وتنقضي . وقد ملئت سرورًا بوجودي مع رجل لم تثنه الشدائدوشدة البحث عليه عن الخدمة الانسانية . واذا علمنا ان مناظرتنا ستقع في ايدي المسلم والمسيحي والموسوي والبرهمي والمجوسي والبوذي والوثني وغيرهم كان علينا ان ندونها بطريق العموميات من حيث هي في اهليها وما علينا من الخصائص والغائها فان الكتب العامة ليست مما يراعى فيه حال الحاضر او يحابي فيه المعاصر . واذا شاركنا القارئ في الرجوع الى الحقائق وتغاضى عن مألوفاته العارضة وتعصبه واعترف بالمنفعة النوعية الانسانية تمتع معنا بسيرة طيبة ومشرب خال عن الاميال ولا يضرنا بعد ذلك اذا جرت ذئاب المتعصبين على اذنابها او اكلت اباعر المتباغضين باقتابها

فقلت شمس جففت البلة ودواء ازال العلة ثم تعاهدنا على ذلك وعدنا للحديث وتذكار ما كان وما سيكون حتى وافانا المساء فودعني وانصرف الى ابعاديته بسلام . وارى القارئ سيعجب غاية العجب عندما يعلم انني الرجل الذي عينت له الحكومة كثيرًا من الجواسيس والعيون في عامة البلاد المصرية من أسوان الى الاسكندرية الى السويس الى دمياط الى العريش وارسلت مخصوصين للبحث عليه في الشام وكتبت لبعض الناس في ايتاليا ليبحث عنه هناك واعلنت في جريدتها الرسمية (الوقائع) انها تعطي الف جنيه لمن عثر او دل عليه ترغيبًا في شدة البحث فصيرت لها فوق قوة البوليس قوة عامة لكثرة

الجهلة الذين تطمعهم هذه المنشورات وكتبت لجميع المدن والقرى والعزوبات (العزب) منشورين احدهما من سلطان باشا والثاني من دولتلو رياض باشا تهدد من يخفيني او يؤويني او ينقلني من جهة الى اخرى او يساعدني على التنقل والارتحال وتحتم اعدام من يفعل ذلك . ومع هذا الطلب والتشديد اكتب لرجل يغايرني جنساً ووطناً وديناً واعرفه بنفسي ومكاني واستدعيه للحضور عندي مع ان معي في البيت نحو اربعين نفساً لا يعلم واحد منهم من انا بل غاية علمهم اني رجل شريف من جروان اسمي الشيخ يوسف المدني وقد حضرت عند صاحب البيت لاعلمه بعض العلوم الشرعية ولا اخرج من القاعة لكوني صوفيا احب الخلوة واكره الاجتماع بالناس . ثم لا اره الا متعجبا كذلك من ورود خاطر التاليف عليّ واشتغالي به في مثل هذه الحالة . فعن الاول اجيبه بان الذمم لا تضيع بالعوارض والهمم تحيا في الشدائد وقد عرفت من صاحبي الغربي ذمة لا تقبل الضياع ولا تذهبها الدنيئات وهمة لا تميل الى التسفل ولا تموت بالشدائد والمكاره فدعوته من غير روية واجابني بلا توقف ولا ارتياب فان راى القارئ في اصدقائه ما رايته في صديقي وعلم ان نفسه تقتحم مثل هذه العقبة بقوة جاش كما اقتحمتها غير مبال بما بعدها لم يجد للعجب محلا . وعن الثاني اجيبه بان الانسان عبارة عن سطر يكتب في صفحات الزمان فان كتب بالماء اللهوي زال وان كتب بمداد مدبر خالد . والاول لمن يقضي عمره في الملذات والبهيميات بلا اثر يؤثر عنه فاذا هلك نسي هيكله وعدم ذكره كأن

لم يكن شيئاً موجوداً ولا مذكوراً . والثاني من يتعلق بالمنفعة العامة الانسانية فلا تفارق نفسه هيكله حتى تترك لها في مظهر الهياكل اثراً باقياً . وقد قال بعض الحكماء من لم يخلف لم يذكر فحمل معظم الناس الخلف على سلالة الاصلاب خطاء فان واضع الحكمة لم يقصد الا الآثار الباقية لا الولدان الفانية فقد سبقنا من الناس من مات عن عشرات من الولدان وتعاقبت ذريته اجيالاً ثم ذهبوا من حيث ذهب ولا علم لمن جاء بعدهم بهم كما تقدمنا من لم يقترن بانثى مدة حياته وترك كتاباً ولو في فن غير معتنى به فبقي ببقاء الدهور يذكر بين يدي الملوك والامراء والعلماء والاعيان والرعاع والاوباش والكل يجهله ويعظمه ولا يذكره الا بالترحم عليه والترضي عنه . وقد قدر رُزِق واضع هذا الكتاب بمحمد وعثمان والياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة ثم استودع هياكلهم التراب ونفوسهم الجانب العلي الاقدس (كما رزق بحفصة وربّاً في الاختفاء ودرجتا ايضا) فعلى رأي القائل بان الخلف الذرية تكون حياتي بتراء بعد ابنائي ان لم ارزق بغيرهم ولا اراه مصيباً وعلى راي القائل بالاثر الباقي تكون خالدة بين من يتعاورون الحياة الدنيا وان تداعى الهيكل بعد اجله المحدود . اذا تحقق القارئ هذا وعلم ان حياته اذا لم تصرف في اثر باقٍ كانت هباء رجع عن العجب الى المجاراة . استغفر الله العظيم . لست ممن يدونون البدائع والغرائب والمبتكرات وانما انا خادم تابع يصرف افكاره خدمة بلا مقابل تقليداً وتشبهاً ويعرض افكاره على من هم فوقه علماً وادباً واقتداراً على الانشاء

والكلام من باب القيام بخدمة تخلي عنها الادباء لخادم افكارهم وعسى ان يجيء الكتاب موافقاً للمشارب المشرقية فيحظى بالقبول فان المخاطب الانسان دام مجده والمقصود الله جل شانه

يوم السبت غرة جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ — ١٠ مارس سنة ١٨٨٣

اشتغلت بكتابة ما تقدم الى العصر ولم يجئني الصديق الغربي فاشتغلت بالمطالعة في تفسير العلامه ابي السعود العمادي وقد اعارنيه الصديق الفاضل مع قاموس الفيروزابادي عند ما ارتحلت من بلده الطيب الى هنا — دخل وقت الغروب ولم يجئ الصديق الغربي فحضر الاخ الفاضل صاحب البيت وقال لي ما الذي تراه في تاخير صديقك فقلت له لا تدنس افكارك فيه بشيء فانه مخلص في الصحبة وما اخره الا عذر طرأ عليه فقال يحتمل ويحتمل ويحتمل واطال من الاحتمالات وانا ادافعه بيقيني في الرجل حتى غربت الشمس وجاء الخادم بجواب الى الاخ الماجد يعلمنا به الصديق ان السنشا حرمه اصيبت بحمى اوجبت قيامه الى احد الاطباء فاحضره وانه سيجيء غدا ان شاء الله تعالى فسكنت افكار الاخ الماجد وشكر للرجل عنايته ومحافظته على حقوق الصحبة ثم اخذنا في المسامرة بما لا يتعلق بالكتاب

يوم الاحد ٢ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ الموافق ١١ مارس سنة ١٨٨٣

حضر الصديق وابتدأنا المناظرة معتمدين على جانب الحق سبحانه وتعالى وقد جعلت حرف غ اشارة للصديق الغربي وحرف ش اشارة لهذا الضعيف الشرقي وساضع فوق كل سؤال رقما يدل على عدده لتكون

الاسئلة محصورة عند نهايتها ولتسهل المراجعة عند اعادة النظر وارادة الكشف على مطالب معين وقد ابتدأنا المناظرة بالتاصيل الشرقي والغربي على مقترح الصديق حسب الاتفاق الاصلي

غ كل من الشرقيين والغربيين يدعي ان الآخر وضع اساس هذا التخاذل الحاصل في الممالك ويتألم من اعمال رفيقه دينية كانت او سياسية ويعتذر للائمه باقواله وافعاله ويقيم على ذلك ادلة وبراهين والعالم طائر خلف افكار الفريقين موتاً وحياةً فعلى من تلقي احمال المسئولية وما هي الحقيقة التي يتمسك بها العقلاء

ش لا يخفاك ان هذا التخاذل والتعارض مبني على افتراق المسئلتين الشرقية والغربية ملتصقتين باطماع ملكية وآمال سياسية ولم يشهد احد من الحاضرين وضع الاساسين فان واضعها العرب والرومانيون على قاعدتي الدينين الاسلامي والمسيحي ذاك في الشرق وذا في الغرب وقد سموا اتباع الاول مسلمين واتباع الثاني مسيحيين بعد ان ثبت لكل فريق صدق مبعوثه وحقية دعوته ووجوب تعميمها في الاقطار لتهذيب النفوس وتوحيد الكلمة وجمع النفوس على عبادة خالقها وقد بني كلا الدينين على محاسن الاخلاق ولطائف الآداب والبعد عن العدوان والتطهر من اوساخ الآثام ورذائل الفجور وحفظ النفوس والاعراض والحقوق وربط الآخذين به بقانون الهي يسوي بين الامير والحقير والغني والفقير والقوي والضعيف ويحكم بمسئولية كل فرد من الافراد عن اقواله وافعاله بين يدي مولاه يوم يبعثه في النشأة الآخرة . وبعد

تاسيس الاصليين وذهاب مظهريهما كثر الاختلاف بين طوائف الدينين بانتشارهما في الاقطار ووقوعهما في ايدي أُمم تحكم عليهم الاخلاق والعادات والاطماع بالتاويل والتفصيل فجردت السيوف السياسية مطبوعة من تلك الخلافات يتبارى رجالها جدالا ويتبارزون قتالا تارة في مماثليهم واهاليهم ومرة في مغايريهم واعاديهم بدعوى بواعث المدنية ومميتات الهمجية وقد اتخذ كل فريق فجعله وجهة لافكاره ومداراً لاعماله ثم تسابقت اقلام الكتاب في التخطئة والتصويب والافساد والتصحيح والتقبيح والتحسين والمدح والذم والاغراء والتحريض وملأُوا العالم باوراق ألهبت القلوب بما فيها فحملت العداوة وانجبت هذا التنافر وقد صيروا سلسلة الاتصال الانساني دائمة الاحتكاك فحدثت فيها حرارة اكالة فعالة مضادة لما جاء به الدينان من الائتلاف وما دعوا اليه من هداية الخلق وحفظ الدماء والاعراض والاموال ولا انقطاع لهذه الحرارة ما دامت سلسلة الاجتماع الانساني في ايدي ذوي الاطماع والذاتيات من رجال السياسة والمتعصبين لهم فافراد الطوائف بين ايديهم رُضع يفطمون على الاحقاد ويفتأُون على العداوة ويشبون على الضغائن فاذا بلغوا مبلغ الرجال قدموهم قرباناً لنيران الحروب وبطون اللحود في داخلية ممالكهم وخارجيتها يحصلون بذلك مطمعاً ذاتياً ومظهراً ملكياً باسم الحقوق المقدسة او بالدين السلمي او العمران الانساني او الاجتماع المدني او المحافظة على الحدود او امن التجارة والملاحة والسياحة او غير ذلك من العلل التي تلتمسها الملوك وسائل لمقاصدها . وللرومانيين والعرب العذر

في فتوحاتهم التاسيسية فان كلا منهم جاءهُ مبعوث بدين جديد يقضي بنسخ سابقه ويحمله الاخذ به على نشره طوعاً للامر واقتداءً بمن تقدمه ومماثلة لما جاء قبله من الاديان فان النيران الدينية مشتعلة في التنانير السياسية الملكية قبل ظهور العرب والرومانيين بمظهريهما فاننا اذا رجعنا للاديان من حيث ظهورها راينا هذين الدينين متاخرين وجوداً عن سائر الاديان التي طرقت الوجود وملئت بها الاقطار وتعبدت بها الامم وكل دين نفذ بالمحادة والمبارزة وانما لضعف عصبيات تلك الاديان وخضوع معظم اهلها لعصبيتي هذين انفردا بالمباراة والمساجلة اذ من المعلوم ان مملكة ما لم تضع اساسها في قطر من الاقطار قديماً وحديثاً الا على القواعد الدينية وربط افراد الامة بالقوة الادبية الداعية لاجتماع العصبية قبل توسط القوة المادية المؤيدة للملك حتى في ممالك قدماء الفراعنة والاشوريين ومن ادعى غير هذا فليأتنا بدولة قامت في الوجود سائدة جامعة لكثير من الافراد من غير توسط الدين في تاسيسها حقاً كان او باطلاً حتى في الامم التئهة في الصحاري والقفار فانها لا تخلو من داعية عليها اجتمعت وبها عرفت . لو ليأتنا بدولة متمدنة من دول العصر الحاضر تبعث جيشاً الى حرب ولم تتوسل برؤساء دينها في الدعاء والاستغاثة او تصرف العساكر بعد عودتهم ظافرين قبل ان يتوجه العظماء والامراء والوجهاء الى المعابد ساجدين وراكعين حتى لو كان القابض على زمام الملك ممن يقل لهم اصحاب الفكر الحر اي الذين لا يدينون بدين فانه لا بد وان يجاري افراد الامة وسوادها الاعظم في

عوائدهم الدينية . ومن هذا نعلم ان احمال المسئولية القيت على
عواتق رجال درجوا وقوم بادوا قبل الرومانيين والعرب ثم نرى ان
الرومانيين والعرب كذلك غسلوا ايديهم من تلك الدماء من قرون مضت
وتركوا الامم في ايدي الملوك ورؤساء الاديان ولم يبقَ الا اسم التأسيس
والاحتكاك في اثريهما عند العوارض الملكية والطوارىء السياسية
والغايات الذاتية التي يتوقف حصولها على التوسل بالدين فاذا انقضت
الاوطار ووصل الملوك الى غايتهم بتلك الوسيلة تركوا الدين في ايدي
الافراد امانة حتى يضطروا اليه واشتغلوا بقوانينهم وشرائعهم السياسية
يسوقون بها المحكومين في ايّة طريق شاؤوا على ايّة صورة ارادوا وهكذا
الشان في كل عصر وامة ومملكة ودين . فان اعترضنا على العرب
بظلمهم الرومانيين وخروجهم عليهم بعد ثبات دعوتهم وانتشارها اجابونا
بانهم جاروا الرومانيين في خروجهم على بني اسرائيل وبنو اسرائيل
خرجوا على غيرهم وغيرهم خرج على خلافه وهكذا حتى تصل السلسلة
الى مبتداها فدعوى الاغتصاب لا تسلم الا في امة غالبت امة على دين
لم يتقدمه غيره من حين البدء العمراني وهذه طويت في باب كان
ولم يبقَ امامنا الا امم جاءت على امم وممالك ولدت من ممالك . فاذا
اردت القاء احمال المسئولية على امة فابحث عن مصادر الحركات
العدوانية عندما تكون نار الفتن خامدة والنفوس مطمئنة والامن ناشر
اعلامه على الامم وألقِ المسئولية على مشعل النار ومزعج النفوس ومخيف
الامم واترك الرومانيين والعرب يتمتعون في بهائج التاريخ بمجد دائم

وذكر خالد فقد تركوا اثرين هما روح الملك ولا حياة للمالك بدونهما على ان روؤساء الاديان صاروا من الافراد تحت سطوة القانون الملكي ولا ينظر اليهم بعين الرآسة الدينية الا فيما يخرق العادة من الحوادث التي يستعان بهم على دفعها او جلبها في كل زمان

غ قلت ان الرومانيين والعرب جاؤا متأخرين عن امم دانت بغير دينيهما وان الاقطار كانت ممتلئة بتلك الاديان فما هذه الاديان واين كانت ومن جاء بها ومن تعبدبها فان المسكون من الكرة الارضية معلوم بمن فيه وما يعبدون ودعوى بلا دليل توقعنا فيما نجتهد ان نفر منه واذا تحقق وجود غير هذين الدينين فكيف ادعى آخذوهما الحقية وتجاذبوها مع الاغضاء عن غيرهم واذا صح وجود غير هذين فهل كان تنفيذ الاديان في الامم بالقوة في جميعها او بالقوة في دين وجوابات المحبة في اخر وعلى اي حال كان التنفيذ . فهل تقدم الدين الاسلامي دين دخل على اخر في اقطاره ودعا بالحقية لنفسه كما دخل على الدين المسيحي في اقطاره وادعى الحقية واذا وجد دين بهذه الصفة فهل يوجد في كل دين مذاهب مختلفة متعددة كما في الدينين الاسلامي والمسيحي فاني ارى الجواب عن هذا يكشف لي دعوى الامتين وتأسيس الخلافين ومرجع السياستين وما اريد ان اشق عليك بالتتبع والاستقصاء بل اكتفي منك بملخص جزئي يوصلني الى مسهب كلي بالنظر والاستدلال فانك مشتت الافكار الآن بعيد عن المواد

ش دعوتني الى مطلب بعيد القاع شديد الشكيمة ومع شدته

يحتاج الى تحقيق اصل وصحة نقل وقد حتمت عليَّ في شروطك ان لا اترك سؤالك ابتر فخذ ما راج الان والتمس معي العفو من محقق يرى تلفيقاً في التعاريف وباحث يرى مخالفة لبعض الفروع ومن قال اجيب بما اجيب به وانا مضطرب الفكر خائف اترقب فقد استوجب العفو عن هفواته فما ذكر الاديان الا وسيلة للدخول على المسئلتين وما المسئلتان الا تمهيدا للمسئلة المصرية وهذه ساقوم بشرح ما يرفع عنها الاستار ان شاء الله تعالى واجلوها للناظرين بعد احتجابها ولا تكلفني تحقيق المذاهب وبيان الراجح منها والمرجوح والصحيح والفاسد فان ذلك ان ارضى فئة اغضب اخرى وان سرَّ قوماً احزن آخرين فكل انسان ما تمسك بدينه الا وهو يرى صحته فلا يسمع حجة على افضلية غيره ولا دليلا على بطلانه وما اتاخر عن هذا جهلاً بالمذاهب وحجج واضعيها على صحتها ولكن الاحظ الاشتراك العام في مطالعة مناظرتنا فخذ عاماً في عام وارجع الى التفصيل في كتبه ان شئت وعلى هذا اقسم الدين باعتبار مصدره الى نوعين آلهي وانساني وكل منهما ينقسم قسمين بحت ومزجي وكل من القسمين تحته فروع ناتي على بعضها اكتفاء بها وحيث ان الالهي هو موضوع مناظرتنا فنبدأ به فنقول



﴿ الدين الآلهي البحت ﴾

يحدّ بانه ما جاء به الرسل من قبل الله تعالى بطرقي الوحي والالهام

ثم هم على اختلاف مباعثهم وطبقات وجدانهم وتباين لغاتهم لم تختلف دعوتهم في موضوعها وبنائها على ان هناك الهاً واحداً موجداً لهذه الاكوان قد انفرد بالايجاد والاعدام وتنزه عن الشريك والمثل والولد والوالد واجب الوجود لذاته قديما ازليا باقياً بعد فناء العوالم مخالفاً لآثاره في الذات والصفات والافعال قادراً مريداً عالماً حياً سميعاً بصيراً متكلماً يحيي ويميت في هذه الدار وينعم ويعذب في دار اخرى اعد فيها جنة للمصدقين العاملين ونارا للمكذبين الضالين وانه اتخذهم امناء على وحيه هداة لخلقه يعلمون الشرائع ويدعون الى وحدة الاجتماع ويدلون الخلق على خالقهم ويعرفونهم قدره ومجده وعظمته وكبرياءه وقد اصطفاهم وخصهم برتبة الرسالة وعصمهم من الدنيئات وسفاسف الامور وجعلهم حجة يعتبرها على خلقه بما يوحي اليهم لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد ارسالهم مبشرين ومنذرين ومرشدين ومعلمين · هذه قاعدة دعوة الرسل لا يختلف فيها اثنان وعليها تدور فروع الاحكام بحسب المكان والزمان واخلاق الامم وفروعهم كلها راجعة الى ما يهذبون به النفوس ويلينون به الطباع ويسهلون الانقياد لوحدة الاجتماع المدني والتعارف الائتناسي والاختلاط العمراني والائتلاف الاخائي متعلقة هذه الاداب بمظاهر الدين من الصلاة والصوم والصدقة والابتهال الى الله تعالى وغير ذلك من الاحكام ليتبين الخالص في التصديق والانقياد من المنافق بالموافقة اللفظية ثم يمزجون هذه الفروع بمسائل قضائية واحكام سياسية ترجع اليها افراد الامم عند الترافع وتؤدب بها النفوس في

التخاصم وتحفظ بها الحقوق ذاتية او مالية راجعين في هذه المسائل الى
نص وحيي او ارشاد الهامي او استنباط اجتهادي توجب امهم الاخذ
باحكامهم عصمتهم وامانتهم واشتغالهم بالتاليف والاصلاح وبعدهم عن
مظاهر الملوك ولزومهم حالة التقشف والقناعه بالميسور والزهد فيما في
ايدي الناس وتواضعهم الى حد يؤاكلون فيه القذر ويلقمون المؤن
ويجالسون الفقراء ويعودون المرضى ويجلسون على التراب ولا يمسكون
بايديهم نقدًا زائدا عن مؤنهم ولا ببيوتهم اثاث يروق النظر ويعجب
النفس . فصارى امرهم اعتراف الخلق بوحدانية الله تعالى وتبادل المحبة
بين اتباعهم وتخليص الطباع من شوائب الرذائل وتطهيرهم النفوس من
النزعات الحيوانية ونشر الآداب والحث على رحمة الصغير وتوقير الكبير
ومواساة الفقير ومداراة السفيه وملازمة الوعاظ والجدُّ في تهذيب
النفوس والتنفير من العدوان والبغي والخيانة والغدر والفتك والتحذيرُ
من الآثام كالسرقة والفسوق والفجور والملاهي وتقييدُ الانساب والاعراض
بوجهة التعارف والائتلاف العلني المقيدين بحدود تبيح التمتع وتحل
التوارث وتلبس المتلازمين ثوب شرف تفصلهُ الكفاءة ويخيطهُ التراضي
ويشهد لبسه الاصدقاء ويبارك عليهِ اولياء امورها الا دنون حفظاً
للشرف وبعدًا عن العيث الحيواني وتمييز الانسان من البهيم . ثم
يلحقونها كذلك بفروع كانت من حدود تدبير المنزل والمدنية
عند قدماء الفلاسفة مثل بيان البيوع وعقود المعاملات والصحيح
منها والفاسد والمباح من المآكل والمشارب والمحذور وحكم الامة حال

السلم وواجباتها وقت الحرب الى غير ذلك مما ملئت به الكتب السماوية والاخبار النبوية وما نقل عن مهابطها من السير والسير مما هــو ذائع شائع محفوظ عند افراد اممهم وعلمائهم القائمين بامور الاديان . والرسل في جميع ذلك قائمون بالدعوة وانتشارها وتعليمها والحث عليها منتصبون لفصل القضايا ومقاومة الخصوم جدلاً ودفاعاً فهم رسل في التبليغ قضاة في سماع الدعوى امراء في التنفيذ ملوك في حفظ النظام وتوسيع الممالك وانتشار المدنية وتعليم المعارف الدينية والآداب التهذيبية لا يخالف خلفهم سلفه الا في بعض فروع يقتضيها مكان امته وما هي عليه ولا يترك سبيل من قبله في المحادة اولاً ثم المقاومة اخيرًا الا بضعف العصبية وقلة الاعضاد والانصار فهم دائرون مع اللين ما دامت العصبية في التأسيس وتكوين وحدة الاجتماع راجعون الى القوة عند تمكن العصبية وتيسير الادوات والمعدات واقفون في جميع اعمالهم وحركاتهم وسكناتهم عند وحي سماوي او ارشاد الهامي . اذ ما هم الا اناس من افراد الانسان ساعدتهم العناية العلية واختصتهم الارادة الالهية واصطفتهم الحضرة الربانية لهذه الفيوضات القدسية وفرد لا يقاوم افراد عقلاً الا بالقوة المماثلة لقوة مقاوميه وهي لا تتأتى الا بتأسيس العصبية واجتماع الكلمة على امر يجمع الوحدات المتفرقة به يأخذون وعليه يقاتلون واليه يدعون وعلى هذا جاء كل رسول مجردًا دعوته من القسوة والخشونة والتظاهر مقتصرًا على النداء بجامعة العصبية وتكوينها بجاذبة الوعد ومرهبة الوعيد فلذا تمكنت العصبية وقويت اضلاعها قام فجمع الناس على كلمة

واحدة لمنع التخاذل والتغابن وحفظ النفوس من المهالك · وقد جرت عادة الله تعالى ان يبعث كل رسول في قومه ليكوّن منهم عصبية تسهل انقيادها الرحم يمهد بها طريق دينه ويتقوى بها على نشره وتعميمه في المتجاورات من البلاد ولا يزال يدعو بما امر به متحملاً مشاق المعارضة ومضض التكذيب والم المقاومة والمعارضة الجدلية حتى يلقى ربه تعالى فان انقضى دوره بلا ظهور ولا عصبية درست اصول دينه ومحيت احكامه وان تمت له العصبية واتقنت الاخذ عنه ترك اصول دينه في ايديها وهي بعد ذهابه تتصرف فيها تصرفاً تفسيرياً وقياسياً واجتهادياً بما تصل اليه افكار العقلاء وامناء تلك الشريعة وبهذا التصرف تختلف المذاهب باختلاف فروع التأويل مع رجوع الكل الى اصل واحد · وقد طرق الوجود انبياء كثيرون منهم ما جاء مؤيداً شرع من قبله ومنهم ما جاء بشرع ناسخ لما قبله واتفقت كلمة كل دين على تسمية الآخذ به بمؤمن ناج وتسمية من خالفه بكافر هالك ومن ثبتت اقدامهم على ما جاء به رسولهم هم اصحاب الدين الالهي البحت ومن مزجوه بالعقليات او النظريات هم اصحاب الالهي المزجي ولم يبق اصحاب اديان آلهية بجملة الا المسلمون والموسويون والعيسويون على ما هو المشهور عندهم وان كان غيرهم يدعي دعوتهم وسنأتي على تفصيل عصبيات الاديان الثلاثة بعد الفراغ من الفرع الالهي المزجي لئلا يعترضنا في طريق الدخول على المقصود

***

﴿ الدين الآلهي المزجي ﴾

هو ما اخذته امة من اصول رسول وتصرفت فيه بالزيادة والنقص

والدخيل فيه وقد اخذ بهذا الدين كثير من الامم منهم من مزج دينه بالعقليات ومنهم من مزجه بالنظريات ومنهم من مزجه بالمستحسنات ومنهم من تبع الاصول وترك الفروع الى غير ذلك نمثل بالصابئين والكلدانيين من هذا القسم فانهم اولى من يرجع اليهم في التمثيل واحق بالعناية لاشتغالهم بالسمعيات والعقليات معاً ولا نزيد ان نبين جميع اقسامهم ففيهم عبدة الكواكب وعبدة الاوثان بل نبين مذهب الفئة الباقية على معتقدها الآلهي الذي مزجته بالعقليات وهي الفئة التي حفظت كتب الحكمة واعتنت بدراستها وشرحها حتى سهلتها للطبقة الثالثة المؤلفة من المسلمين والموسويين والعيسويين وحلت مشكلات الحكماء ورموز القدماء وترجمت لغاتهم المتروكة وعرفت اقلامهم المختلفة وهذه الفئة تنقسم الى قسمين قسم يسند دينه الى سيدنا نوح عليه السلام وهم الصابئون وقسم يسنده الى سيدنا ابراهيم عليه السلام آتيا بطريق التلقي عن نوح عن ادريس وهم الكلدانيون والقسمان متفقان في هيئة العبادة على التوجه الى القطب الشمالي وصلاة ثمان ركعات عند ظهر شفق الشمس الشروقي وخمس ركعات وقت الزوال وخمس ركعات وقت غروب الشمس يسجدون في كل ركعة من هذه ثلاث سجدات بلا انحناء ويتلون في قيامهم وسجودهم كلمات تماثل ايات الزبور من حيث اشتمالها على مناجاة ودعوات واستغفار . وصوم ثلاثين يوماً عدد ما تقطعه الشمس في كل برج من بروجها يمسكون فيها عن الطعام والشراب من شفق شروق الشمس الى شفق غروبها ويفطرون على غير اللحوم

من الالبان والنباتات الا ما حرم منها عندهم ويقسمون هذه الثلاثين الى ثلاثة اقسام قسم يصومون فيه اربعة عشر يوماً متتالية في فصل الشتاء موافقة لاعداد الكواكب السبعة المشهورة قديماً وافلاكها وقسم يصومون فيه سبعة ايام في الربيع موافقة لاعداد الكواكب وحدها وقسم يصومون فيه تسعة ايام في اواخر الصيف موافقة للافلاك بضميمة فلكي الثوابت والمحيط . وتقديم الضحايا في هياكلهم ومعابدهم للسدنة والفقراء من غير ان ينال المضحي منها شيئاً . وتعظيم الكواكب بناء على انها اعظم اثر آلهي له فاعلية في الاجرام السفلية . ومنع توريث الفاسق من المستقيم . وثبوت العصمة لكل من الزوجين يفترق كل منهما اذا شاء بعلة الزنا او العقر او قتل احد الارحام . والاعتراف ببعث الارواح دون الاجساد وطهارة النفس العاصية بعد تعذيبها ثلاثة آلاف سنة واعتقاد الرسل ملهمين بعناية المجردات لا مبعوثين عن الله تعالى . وان الخير كلهُ من الله تعالى والشر كله من النفوس . وان الله تعالى منزه عن الصورة فلا تقع عليه الابصار ولا تلحقه الاوهام فهو في حجاب ازلي في هذه الحياة الدنيا وفي النشئة الاخرى . وان غير الحيوان المباح استعماله عملاً وغذاء محترم يعد كل من تعذيبه وقتله ذنباً يكفر عليه فاعله بالضحايا بحسب ما تعينه النصوص . هذا ملخص الاصل وبانتشاره كثرت مذاهبه عدا واختلافاً كما هو الشأن في كل دين عظمت عصبيته وتعددت اوطانه فبعض هذه المذاهب يحرم بعض النبات والحيوان وبعضها يحل زواج امرأة الأب التي لم تعقب منه والبعض

يحرمها مطلقاً والبعض يحرم غسل جراحات القتيل عند دفنه والبعض يوجبها الى غير ذلك من الفروع الخلافية . ثم اشتغل الفريقان بالهيات الحكماء وكتب الفلاسفة على انها كتب تعليم وارشاد ككتب الرسل على ما تصوروه بحسب الشبهات التي اعتقدوها . وقد شهد اهل هذا الدين جميع الدعوات الدينية من الدعوة النوحية الى الدعوة المحمدية على جميع مظاهرها الصلاة والسلام . فكان اول داخل عليهم من المرسلين بعد نوح هود عليهما السلام ابن عبد الله بن رباح بن الخاود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح اذ بعث في قوم عاد بن عوص بن ارم بن سام وكانوا يسكنون بالاحقاف بين اليمن وعمان اي من شحر عمان الى رمل عالج فاقام فيهم مدة يدعوهم الى عبادة الله تعالى وكانوا قد غيروا و بدلوا وعبدوا الاوثان فامتنعوا من اجابته وما آمن به الا قليل منهم فدعا عليهم وتم لهم ما اخبر به القرآن الكريم ثم رحل من بلاد العرب الى فلسطين واقام بها . ثم جاء صالح بن عبيد بن آسف بن ماشج بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح الى ثمود وكانوا بين الحجاز والشام بارض الحجر ووادي القرى فدعاهم الى عبادة الله تعالى وهدم هياكل الشمس التي كانوا يعبدونها فما آمن به الا قليل منهم وكان معاصراً لملكهم جندع بن عمرو ثم كان ما كان من امر الناقة وما قصه القرآن العزيز علينا من خبره الى ان انتهى امره بالدعاء عليهم ثم رحل الى فلسطين واقام بها . ثم دخل عليهم سيدنا ابراهيم بن تارح بن ناحور بن شاروخ بن ارغو بن فالخ

ابن قينان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح اذ ولد معهم في ارض بابل ارض الكلدانيين فلما بعث اليهم دعاهم الى اتباعه وتكسير الاصنام وهدم الهياكل والاعتراف بوحدانية الله تعالى والبعد عن الآثام والفجور فلم يجيبوهُ وتظاهر نمرود بن كنعان بن السخاريب بن نمرود بن كوس بن حام بن نوح بما هو مسطور بالكتب السماوية فهاجر بابن اخيه لوط بن هاران بن تارح ونزل لوط بارض سذوم وعمورة في غور أريحا على شاطىء نهر الاردن (الشريعة) ونزل سيدنا ابراهيم بارض كنعان امام حبرون متنقلاً من جهة الى اخرى . ثم دعا لوط قومه واعلمهم انهُ مبعوث اليهم من الله تعالى ليعبدوا الآله الحق ويتركوا عبادة غيره فكان ما كان من معارضتهم له وتكذيبه واجتماعهم لايذائه وايذاء ضيفانه ثم تخريب سدوم وعمورة وخروجه بابنتيه . وولد لابراهيم اسمعيل واسحق وانتهى امر اسمعيل الى سكنى برية فاران (هي تهامة التي بها مكة الآن) وبنى مع ابيه هذا البيت المحجوج بمكة ودعا الناس للطواف به والاعتكاف حولهُ والحج اليه كل عام فاجابهُ من آمن به من جرهم عند ما هاجروا الى مكة وبقي دينه الى ان تخربت سباء وجاءت طي وما معها من القبائل وساكنوا بني قيذار فيما يلي مر الظهران الى تخب الى اعالي نجد واخذ منهم من اخذ بما بقي من دين اسمعيل عند بني قيذار . واسحق كذلك دعا لدين ابيه وجاء ابنه يعقوب على اثره داعياً الى الله تعالى ودخل يوسف ابنهُ مصر بدينه على الدين الاستحساني . ويقال انه لما حجر على الغذاء

ايام انقطاع نيلهم باعهم القوت اولاً بما لهم ثم بماشيتهم ثم بحليهم ثم بعقارهم ثم برقابهم وقيل انهُ تفضل عليهم واعتقهم فان صح العتق فبنو اسرائيل مواليهم وان لم يثبت فالمصريون عبيد بني اسرائيل ورثة يوسف الصديق · ولا ارى ذلك الا من الاقاصيص والاقاويل التي لم تأخذ الصحة بيدها ولا مجال للعقل فيها

ثم جاء عليهم شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم ونزل بمملكة الحجر المسماة قديماً مملكة نابات ودعاهم الى الله تعالى والح عليهم وكثر بينه وبينهم الجدال والمناظرة فآمن به نفر قليل وخالفه الباقون · ثم دخل على الكلدانيين في نينوي يونس بن متي فاجابوه بعد ان عصوه مدة · ثم امتد ظهور الرسل الى ان جاء الثلاثة اصحاب الاديان الباقية المنتشرة الآن في القارات والجزائر وقد جاء كل من الرسل بآيات وخوارق يقيمها حجة على صدقه ودليلاً على ان الله تعالى هو الذي ارسله الى قومه فمنهم من نجا من النار ومنهم صاحب الناقة ومنهم المجتاز بالبحر ومنهم من احيا الموتى وداوى الاكمه والابرص ومنهم من كلم الدواب واسرى به الى ابعد مكان من ارضه في مدة قصيرة واخبر بالغيوب في وقته وعما يليه · وهذه الخوارق نسميها نحن معاشر المتدينين معجزات اظهرها الله تعالى على ايدي رسله تصديقاً لهم فان المعجزة منزّلة منزلة صدق عبدي في كل ما يبلغ عني لانه ليس في وسعه ولا امكانه ان يخلق ناقة من صخر او يفلق بحراً او ينبع ماء من حجر او يحول العصا ثعباناً او يحيي الموتى بقدرته او يخلق في الدواب قوة ناطقة وفي الشجر

قوة سامعة وفي الجو قوة طاوية بل كل ما ظهر على ايديهم انما هو مستند الى الله تعالى خلقاً وابرازا . وغير المتدينين يعدون هذه الامور من باب الخوارق الظاهرة بتحريج القوى العلوية على المنفعلات السفلية بالدعوات والرياضات . وبعضهم يجعلها من باب الشعوذة نعوذ بالله تعالى من هذه المعتقدات . وبعضهم ينسب ما يقرب من العقل للحوادث الطبيعية كفلق البحر للمد والجزر ونزول الدم للمواد المحمولة بالريح والضفادع لما يحمله السحاب احيانا من جهة ويطره في أُخرى واحياء الموتى لفعل طبي في مصاب بسكتة مخية ومدواة الاكمه والابرص لخواص النباتات وينكر ما لا يقبله العقل من الخوارق . وهذه اوهام قامت عند اهل هذه الشبه اذ لا يمتنع ان يكون حدوثها آية في مكان وعادة في آخر خصوصاً اذا وقعت بعد التحدي او الخبر بانه سيحدث كذا فاتفاق الواقعيات فيما ماثل المعجزة لا يطعن في اصلها . وقد تكفلت الكتب الدينية بتفصيل ذلك واقامة حججه وبراهينه فليرجع اليها محتاج التحقيق ومعتقدنا في الرسل انهم صادقون في دعاويهم امناء في تبليغ شرائعهم لا يفترون على الله تعالى شيئاً ولا يخونون فيما ائتمنهم عليه واقفون بين جاذبتي الوحي والالهام يكفر مكذب واحد منهم في شيء مما جاء به ويؤمن من صدقهم وآمن بانهم رسل الله تعالى الى خلقه . وما عرف الحكماء طريق الوصول الى الحكميات الا بمخالطتهم والاخذ عنهم ولااهتدوا للرياضات وتصفية الذوات الا بمعاشرتهم والتقليد لهم فهم اساتذة الدنيا وفتحة باب كل علم اشتغل به الانسان من بدء العمران الانساني الى

الآن فان التوسع في العلوم الحاصل الآن والتفنن في المبتدعات والمخترعات والاكتشافات كل ذلك نتيجة اتعابهم الحاصلة بمقدمات تاسيسهم فعلى جمعهم الشريف الصلاة والسلام

وقد وجد لدين الصابئة والكلدانيين عصبيتان فالصابئة دخلت بلاد العرب ومصر والغرب وعنها انتقل الدين الى اقطار بعيدة · والكلدانيون عمموه في العراق وبلاد الفرس والافغان وبلاد الخزر والشام وعنهم انتقل الى اقاليم شتى · ثم كان لهذه العصبية دوران دور ديني بحت ودور ديني ملكي فالاول امتد من نوح الى سليمان والثاني ابتداء بعد سليمان حيث قام العراقيون وبددوا مملكة بني اسرائيل كلها واستولوا على فلسطين والشام وجميع سورية ونقلوا احبار بني اسرائل وعلماءهم وأبناء انبيائهم الى بابل خشية ان يعيدوا دعوتهم ويجددوا مملكتهم التي اخذت لها دوراً عظيماً في آسيا · وفي عهد الملك اسفنديار بن كستاسف البابلي اعادهم الى الشام بعد تمكن الضعف من عصبيتهم ومع حصول الضعف بعد القوة فانهم انقسموا الى سامرية وقرايين وموسوية وهذا الآخر هو الفريق الاعظم فسكن هذا الفريق في اورشليم (ارض القدس) وسكن السامرية في سبسطية ودامت الحروب بين الفريقين مدة حيث اختلفوا في بيت القدس وصخرة الله تعالى في اي المكانيين فاليهود يقولون في اورشليم فانها الارض المقدسة والسامرية يقولون ان صخرة الله تعالى المقدسة هي جبل جارزيم الكائن بارض نابلس وما زالوا كذلك الى زمن خيدروس احد ملوك طوائف البابليين فقاتلهم وثل عرش ملكهم والحق فلسطين ببابل

ثانية الى ان عاد الملك للاحبار كما يأتي تفصيله . وكما دخلت الاديان الآلهية البحتة على هذا الدين المزجي كذلك دخلت عليه فروع العقلي والنظري بعصبات اوصلتها الى اوطانها ومتجاوراتها بما يطول سرده فقد حملت عنا كتب التاريخ هذا الحمل العظيم . ومن الصابئين والكلدانيين من مزج اصله الالهي بالوثني والاستحساني عند فتور الهمم عن التعليم واقتصار فلاسفتهم على تدوين الكتب وشرحها فيما بينهم وتركهم الامم في ايدي الجهالة يقلد بعضهم بعضاً وقد كثرت المبتدعات وتفرق الناس حول اهوائهم شيعاً وعجز الحكماء عن ارجاعهم لقصور الافهام عن الحكميات التي صارت من خصائص العلماء . ومن الآلهي المزجي قسم من الحبشة اخذ بالدين المسيحي ثم الاسلامي ثم مزجهما وصيرهما ديناً واحداً على اصول قررها وعمل بها . وقسم منها ايضاً اخذ بالاديان الثلاثة واستخلص منها ديناً عمل به ويوجد هذان القسمان فيما يلي هرر ومصوّع من الجهات القريبة من النقط الاسلامية . وقسم من غينا الشمالية اخذ بالدين المسيحي عن القسيسين عند دخول البرتوغاليين في بلادهم ثم مزجه بالاستحساني . وقسم من برنو اخذ بالدين الاسلامي عن الادارسة ملوك الغرب ثم مزجه بالاستحساني . وقسم من بولينيزيا اخذ بالدينين الاسلامي والمسيحي ثم مزجهما بالوثني وقسم من السوريين اخذ بالدين الاسلامي ثم مزجه بالوهميات وهم الدروز والمتاولة والنصيرية . وقسم عظيم بالسودان اخذ بالدين الاسلامي ثم مزجه بالاستحساني . وقسم من مونيقو الصينية اخذ بالدين الاسلامي ثم مزجه بالوثني . ولهذه الاقسام عصبيات شتى

قاتلت عليها ودافعت عنها فافرغ بعضهم الى بعض بالضعف وثبت قليل منهم على ما هو عليه وقد كثرت المبتدعات والمنتحلات ودعاهم الفراغ من العلوم الى عبادة ما لا يعبد مما هو مسطور بكتب الاخبار ·

٣٠ غ · قلت ان الصابئين والكلدانيين اشتغلوا بكتب الفلسفة على انها كتب تعليم ولم تذكر ما نتج من اشتغالهم بها وهل تركوا ما كان عليه اباؤهم واتخذوا لهم ديناً آخر ام حافظوا عليه مع اشتغالهم بالحكميات ارجوك ان تتم هذا المبحث قبل ان تبعد عنا مناسبته بذكر الاديان الباقية فيجئ معترضاً بين المطالب

·ش · عندما اشتغل الناس بكتب الحكماء انقسموا اقساماً شتى فلنسم هذا الدين بالاستدلالي العقلي ونذكر اقسامه وهو ايضاً استدلالي بحت واستدلالي مزجي · فالاستدلالي البحت هو ما نتج من بحث القدماء في علل الاشياء وذلك ان الانسان شانه البحث عن منشئه ومبدع هذه الكائنات ومبرزها لدور الافكار حول هذا المطلب في كل دور من ادوار العالم الانساني ولهذا بحث القدماء في علل الاشياء كونا وفسادا مسندين تأسيسهم الى هرمس المثلث المدعو بالعبرانية اخنوخ و بالعربية ادريس عليه السلام قائلين انه اخذ البعض عن صحف شيث عن آدم وزاده بسطاً وتقريرًا بالدلائل العقلية والمؤثرات الفلكية و بعد ان قرره اوحي اليه بالنبوة فحمل عشيرته على الاخذ بدينه وجمع بين النبوة والحكمة والملك فسمي المثلث كذا يقول البعض من الكلدانيين والبعض يقول ان ادريس لم يسبقه سابق بهذا الاستدلال فهو واضع الحكمة

الاولى ووافقهم الصابئون على ذلك والبعض يقول انه لم يقرر من اصولها الأكليات ابتدائية حتى جاء سليمان وزادها بسطة وبسطاً وشرح معميات من تقدمه واستخدم نتائج الفلكيات والعنصريات في مظاهر اعماله في ملكه · وعلى اي حال كان اسناد التأسيس فمرجع هذا الدين النظر في المجردات الصادرة عن بعضها بجهة وجوبها بعد صدور الاول عن الذات الاقدس والصانع الحكيم جل شأنه ثم الافلاك الصادرة بجهة الامكان وانفصال الحرارة عن الفلك الرابع والبرودة عن الفلك الاول وتحركهما تحريكاً ولّد اليبوسة من الحرارة والرطوبة من البرودة وانفعال هذه الاربعة للمؤثرات العلوية انفعالاً تكونت منه الطبيعة الحيوية من تصعيد الحرارة والرطوبة · والطبيعة العدمية والكون السفلي من هبوط اليبوسة والبرودة · وبانفعال الطبيعتين للعلويات تم ظهور العنصرية النارية من امتزاج الحرارة واليبوسة · والعنصرية النورية من امتزاج الحرارة واليبوسة والبرودة · والعنصرية الهوائية بجوهريها من امتزاج الحرارة والرطوبة · والعنصرية المائية من امتزاج الرطوبة والبرودة والعنصرية الترابية من امتزاج الرطوبة واليبوسة · ثم دارت الافلاك ادواراً فاعلة منفعلة بحسب الطوارئ حتى تم تكوين المعدن ثم النبات ثم الحيوان الصامت ثم الانسان على ما هو مقرر عند القدماء · وبهذا الاستدلال ثبت عندهم وجود العلتين العنصرية والغذائية وتفرع المادة والهيولي والغاية وتواجد الكائنات وتهالكها ثم انبعاثها وصدورها عن الاركان اصالة من غير احتياج الى وسائط غير التفاعل والانفعال الحاصلين بالطوارىء والتضام والتجاذب

والتنافر وتأثير البعض في الآخر بقوى الانفعالات حتى تبرز المكوّنات على صور معينة · ثم هي بعد صدورها اما متحركة بعلة الانفعال الكائنة في المواليد · اونامية بلا حركة بعلة البخار والتصعيد · او واقفة عند كيانها بعلة الاتصال الشعاعي والتجاذب الكهربائي · وما يبرز من الكائنات السفلية في طبقتيها الارضية والجوية مركباً يكون معروضاً للفساد · فافعال المادة تجرى تحت اللاَّ نهاية لتلازم الاركان مع الحادثات بظهور المادة منها مع الاخلاط وظهور الهيولى منها مع المزاج · وظهور الغاية منها مع الافعال والكل مركب معروض للفساد والتكوين ما دامت المجردات بجهتيها وما صدر عنها من الافلاك وهي لا انقضاء لها ما دامت الفاعلية الباقية ببقاء اول الاوائل المبدع لهذا النظام البديع جلّت قدرته وتقدست ذاته العلية · وما اوقعهم في هذا الخطا الا نظرهم في علل الاشياء وقولهم ان الواحد جهة واعتبارًا وهو الله جل شأنه يستحيل ان تصدر الكثرة عنهُ فحكموا بالعقول العشرة وسلبوا الله تعالى الاختيار والعلم بالجزئيات وانكروا بعثة الرسل وبعث الاجسام وخالفوا الشرائع الالهية في امور كثيرة بها حكم عليهم بالزيغ عن جادّة الهدى وسنشرح هذا عند حلول مناسبته لعدم التطويل هنا · ثم انهم قطعوا بان الله تعالى ذاتي الوجود ابديُّ الخفاء ازلي الافعال يستحيل عليه صدور التكثر وحدوث التجدد عنه مع وحدة ذاته العلية وان وجوده المطلق غير مخالط لشيء من الاشياء وان الاجسام والجواهر والاعراض من لوازم الاغيار · وانهُ تعالى متساوي النسب النوعية فلا تخصيص لبعض اجزائها ولا دخول لها في سلسلة الممكنات فهو منزه عن المادة والهيولى والصور اللاحقة للامكان ·

وان السعادة والشقاء خاصان بالنفس وانفعال الاعضاء بالنفسيات سعادة و بالبهيميات شقاء وانه تعالى منزه عن التسفل والحلول مستغن عما صدر عنه مجرداً او مركباً . و بانتقال هذا الدين الى الطبقة الثانية بعد الطوفان قسموا السياسة في حكمياتهم الى قسمين سماوية وارضية فانهم قالوا اذا كان القائم بامر السياسة رجلاً ظاهراً سليم الحواس مخلص الظاهر والباطن عالي الهمة بعيداً عن الدنيئات غير متعمق في البدنيات قد دلت على وجوده القرانات الكبار العلوية فدولته دولة النبوة وهذا القائم بها هو النبي المفاض عليه من قوى المجردات واتجاه الافلاك ما يخلع صورة توجهاته النفسية من الحيوانية الى الملكية ليمتاز بالعنايات والمساعدات العلوية (الذي ندين الله تعالى به ان هذا الفيض حاصل من الله تعالى باختياره لا من المجردات والافلاك فانها مجعولة متأثرة بفعل الله تعالى فلا استقلال لها بالتاثير في شيء من الكائنات) وان كان ممن دلت على وجوده القرانات الوسطى مشاركاً للافراد في المالوفات والملاذ الهيكلية فهذه دولة الملك والقائم بها هو الملك صاحب السياسة الأرضية . ثم انقسمت هذه الطبقة ثلاثة اقسام كل قسم صار مذهبه اصلاً لفروع شتى . فالاول اشتغل بالنظر في العلة والوحدة واثبات الصانع وما يجب له وما يستحيل عليه وتقسيم المجردات وصادراتها (على زعمه) واحوال النفس بعد مفارقة الهيكل وغير ذلك من الامور العامة فسمي مذهبه بالالهي والفلسفة الاولى . والثاني نظر فيما تجرد عن المادة في الذهن من النقط والخطوط والمنحنيات والدوائر والمخروطات والكرات متحركة او ساكنة وفيما موضوعه الاجرام الفلكية والعنصرية من حيث الكم والكيف واحوال

الكواكب في الابعاد والتقاطع والشرف والتربيع والتسديس والمقابلة والاجتماع والحركة والسكون والخسوف والكسوف والمنازل والبروج · وفيما موضوعه العدد من حيث الزوج والفرد والتركيب من الآحاد والمئات والالوف والجمع والطرح والضرب والقسمة والتكعيب والتناسب · وفيما موضوعه الصوت من حيث تركيبه مستلذاً متناسبا او مستقبحاً منافرا والنقرات والايقاع فسمي هذا كله بالرياضي · والثالث اشتغل بالنظر في المواد والصور والحركة والنهاية والافلاك والعناصر وما يكون ارتباطها بالالتماس والتماس والتجاذب وما يكون عن تغيرات العناصر في نفسها وحكم ما يصعد اليها من دخان وبخار · وفيما يبحث فيه عن كون المركبات وفسادها وكيفية تخليص الاجساد وتطهيرها وتحليلها وتصعيدها وتقطيرها وتبخيرها وتركيب جوهر من جوهرين فاكثر · وفيما يبحث فيه عن المعادن من حيث الجامد والمنطرق والسيال والشعال والفاسد المرجو صلاحه وغير المرجو والتام والناقص والصلب والهش · وفيما يبحث فيه عن العصارات النباتية من حيث ما ينبت وما يستنبت وطبيعته وخاصته بزراً وغصناً وورقاً وليفاً وقشراً وعصارة وزهراً وثمرة · وفيما يبحث فيه عن الحيوان من حيث صوره من مستقيم ومعوج ومكبوب ومسحوب والبري منه والبحري والغذائي والدوائي والسامّ والاهلي والوحشي ومـا يتالف بعد نفوره وما لا يتألف وتركيب انواعه وعللها وامراضها · وفيما يبحث فيه عن النفوس وتحرير القوى وكيفية بثها في الجماد والنامي والحساس وما يتعلق بالمركب الجامد والنامي غير الحساس والنامي الحساس ناطقاً وصامتاً وغير ذلك وهذا كله يسمى بالطبيعي · وبعد انقسامهم جال رجال كل

مذهب جولة في مباحثه وتضاربت افكارهم وكثرت تجاربهم في مبتدعاتهم حتى اتسع نطاق علم الحكمة وتداولته الأمم ودارت الايام وهو ينقل من صورة الى أُخرى يعلو في امة بعلو افكارها ويسفل في اخرى بتسفلها راجعاً الى اصوله في جميع فروعه وان شوشت بعض مطالبه بقصور الافكار حتى وصل الطبقة الثالثة المؤلفة من المسلمين والمسيحيين والموسويين فانكبوا عليه وفصلوه وشعبوه ونوعوا مواضيعه انواعاً شتى نأْتي عليها بعد الفراغ من الاستدلالي المزجي وفروعه ان شاء الله تعالى

٤٠ غ

هات الكلام عليه عند ما وصل الى الطبقة الثالثة والرابعة قبل ان ندخل في المزجي منه لئلا تبعد المناسبة او نغفل عنه بطول المباحث لنفرغ منه الى غيره واذكر لنا الامم التي اخذت به قبل ذلك والاقاليم التي استوطنها والاديان التي نسخته منها وما صار عليه الآن واني وان كنت اتوسع في السؤال واكلفك الجواب المسهب مع علمي بما انت فيه من شدة الحال فاني اكتفي منك بملخص يقرب فهم المطولات ولا تترك البحث خالياً من الافادة ولو بتقرير موجز فلا تضق بكثرة السؤال فاني اريد ان اجعله موجباً لقدح افكارك كما قلت لك اولاً

ش

الطبقة الثالثة تأسست في القرن الثاني من الهجرة بعد انتشار الدين الاسلامي في الاقطار ودخول كثير من الناس فيه من العرب والقبط وبني اسرائيل والفرس والترك والكرد والحبشة والهند والافغان والروم والرومانيين

والاسبانيوليين والافريقيين والسوريين والشاميين وغيرهم واخذ العرب في تعلم لغات المحكومين بحكمهم وانجر الاستطلاع الى الكتب القديمة من تاريخ وحكمة فتعلقت نفوسهم العلية بترجمتها للوقوف على العلوم المحتجبة بحجاب اللغات اليونانية والسريانية والفينيقية والعبرانية واللاطينية ودعوا لترجمتها اناسا من كل امة وافرغوا مجهودهم فيها واشتغلوا بتعلمها وتحصيلها فافترقوا فرقاً شتى تضاربت افكارهم وتعارضت اقوالهم وتكاثرت مباحثهم وطال الاختلاف واشتد تعصب كل فريق لدينه او فكره وكثرت المجامع الاتفاقية والخلافية وفرعوا من كل قسم من اقسام المتقدمين اقساماً وابواباً حتي هذبوا هذا العلم في وقت قريب ودونوا فيه الاسفار العظيمة كانهم هم الذين وضعوه . ونتج من تظاهرهم العقلي علوم تسمى كل منها باسم خاص وانفرد بكتب ورجال وتوزعت وحدة العقيدة في هذه الفروع الكثيرة فصارت من قواعد الفنون وروابط التعاريف يدخلها كل مؤلف في كتبه من غير التفات لاصل وضعها الديني ناظرًا لما يدعو اليه علمه لا اعتقاده وما تجره اليه المنفعة العامة لا دينه الخاص وكثير منهم من نبه على ما يخالف العقيدة الايمانية الحقة عند ما يذكر اصلاً من اصول الحكمة ويورد عليه ما يدفعه او يضعفه خوفاً على صغار الطلبة وضعفاء العقول . خصوصاً علماء الاسلام فانهم اجتهدوا في تحصين العقيدة والدفاع عنها وحاربوا عقليات بمثلها وردوا شبهة ببرهان وايدوا معتقدًا بحجة وطبقوا كثيرًا من اصول الحكمة على اصول العقيدة وبحثوا في شبه المتكلمين وقواعد الالهيين وجمعوا ما تشتت من مذاهب فرق العالم وانتصبوا للنضال والجدال واجتهدوا في حل المشكلات وتبيين المعضلات وابعدوا في البحث

والتدقيق حتى انتقلوا من التقليد الى الاختراع والابتداع · وانتظم معهم في خدمة العقليات والحكميات كثير من المسيحيين والاسرائيليين فامتلأت مؤلفات رجال الاديان الثلاثة بالعلوم النافعة و زينوا العالم الانساني بالآداب وآلات العمران ومواد المدنية وارشدوا الخلق بكتبهم الى احسان الصناعة والزراعة والملاحة والسياحة والسياسة والتجارة والتربية والتهذيب · فقد فصلوا الرياضي الى الهندسة وفرعوا منها علم المساحة · وجر الاثقال · والابنية · والعقود · والحصون · ومركز الاثقال · والمناظر · والمرايا · والكرات · واخذ المرتفعات والأبعاد · وغيرها من العلوم المفرّعة من الهندسة · وفرعوا من الهيئة علم الرصد · والظلال · والمنحرفات · والزيج · والاحكام الخاصة · والمواقيت · والقبلة · وغيرها · وفرعوا علم الحساب الى التكعيب · والجبر والمثلثات والتناسب · والتخت · والاوفاق · وغيرها · وفرعوا الموسيقى الى تأليف الاصوات والنقرات · والايقاع · والنسبة · وتفكيك الدوائر · وتلحين الموشح والموالى والقصائد · وتقسيم النغم · وغير ذلك · وفصلوا من الطبيعي علوم الامور العامة (علم الكلام) والسماء والآثار العلوية · والكون · والفساد · والمعادن · والنبات · والحيوان · والنفس · والقوى · والخواص · وفصلوا هذا الاخير الى علوم السحر · والطلاسم · والسيمياء · والمخايل (الشعوذة) · والفلاحة · والدخن · والطب الانساني · والحيواني · والبزدرة (علم تربية الطيور) · والكيمياء · والخواص النباتية والحيوانية والمعدنية · والسباحة · والملاحة · والرؤيا · ثم تصرفوا في هذه العقليات تصرفاً اوصلهم الى وضع علوم التشريح · والجراحة · والصباغة · والفراسة · وتقويم البلدان

(الجغرافيا) · وتركيب الآلات (الميخانيكي) · والاخلاق · وتدبير المنزل · والملاعب · والجدل · والسياسة · والمناظرة · والوضع · والبحث · والاقتصاد · والتربية · وغير ذلك مما تفرع من الاصول الحكمية بطريق اللزوم او الضرورة · فانقسمت هذه الطبقة نحو سبعين قسماً كل قسم يشتغل بعلم خاص غير العلوم الدينية والآلية فتغيرت اشكال العمران وصور الافكار وترقت العقول الى المخترعات وظهر في المجامع العلمية الكثير من الفلاسفة والحكماء من كل من المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين والبراهمة والمجوس والصابئة وتتلمذ كل لصاحبه بحسب الحاجة مع اختلاف الدين والجنس والوطن سعياً خلف العلوم النافعة واشتغالاً بالمصلحة العامة ولم تشغلهم هذه العلوم الجليلة عن الاشتغال بعلوم دينهم والقيام بمظاهره والاحتفال له في المجامع العامة واداء الواجب عليهم في خلواتهم الخاصة ولا حملتهم كذلك على غرس الاحقاد في قلوب معاصريهم بالمنفرات من المطاعن الدينية بل كانوا يجالسون بعضهم و يتناظرون فيما هم فيه من العلوم العامة فاذا انقضت مجالسهم قام المسلم الى مسجده والمسيحي الى كنيسته واليهودي الى بيعته · وما تم لهم ذلك الا بسطوة الحاكم الاكبر ونفوذه وتسويته بين المحكومين بحكمته في التمتع بالعادات والمعتقدات عكس ما عليه دول اوروبا الآن في الامم التي تحكمها مخالفة لدينها فانها تحتال لنقلها منه بطريق التعليم المجرد عن دين المحكومين حتى تخرج الطبقات المتولدة من المعاصرين خالية من معرفة دين الآباء فيسهل تلقينها دين الحاكمة او تلقنها اياه بادىء بدء رغم انف الآباء كما هو مشاهد الآن — ومع عدم المطابع اذ ذاك وصعوبة الانتقال والرحلة

وامتلاء الطرق بالمخاوف والازعاج لم تقعد بهم همهم عن جوب الاقطار وقطع القفار والتغلغل في الاودية والجبال وكتابة الكتب اجمالاً واثقالاً وتداولها علماً وعملاً ونقلاً وحلاً وشرحاً وتفسيراً وترجمةً وتكميلاً وتذييلاً مع ملازمة الجد والنشاط وتحمل اتعاب الغربة وخشونة العيش · وما انقضى دورهم حتى ظهر في الوجود العلمي مئات الوف من افاضل واجلاء علماء بلاد العرب · والفرس والكرد · ومصر · وسورية · والشام · والهند · والافغان · وتونس · والاندلس (ايام عمرانه بالمسلمين اذ كان امام العالم علماً ومدنية وانتظاماً) وبلوجستان والترك · والخزر · ولارستان · ومكران · وبذخشان · وخوارزم · ومرو وهراة · وخوزستان · وسجستان · وجيلان · وكرمان · وطاغستان ومازندران · وخراسان · وكوهستان · ومراكش · وغدامس · وفزان · وشنقيط · والسوس · والجزائر · وابجاة · وزيلع وغيرهم ممن قطعوا الاعمار في البحث والتفتيش على دقائق المعاني وغرائب المخترعات وسهروا الليالي الطويلة في تدوين نتائج ابحاثهم حتى اشرقت شموس المدنية على رؤوس العالم فاهتدى الى ما هو عليه الآن · فكل ما هو منبث في اقسام اوروبا وافريقية وآسيا وامريقا من العلوم ومدلولاتها انما هو حسنة من حسنات هؤلاء الشرقيين الذين كانوا حداة العالم في السير الى الحضارة وكمال العمران · وهم وما جاؤا به نعمة من نعم الاسلام الذي جمع هذا الشتيت والف بين الاضداد ووحد الجامعة وسعى في جمع اسفار العلوم من الاقطار ووسع نطاق المعارف الى حد تناولها بالسنة الآخذين به والمعارضين له · وما اتفق ذلك لجامعة من الجوامع الدينية قبل الاسلام اذ كانت الجوامع الدينية قاصرة

على التعاليم الشرعية لا تدنو من الرياضيات ولا تقرب من الطبيعيات ولا تعترف بالحكميات. فكان فريق الحكميات ضعيفاً غير منظور اليه بالعين التي ينظر بها فريق الدينيات فلما جاء الاسلام ناشر التمدن في العالم ومجيز الاشتغال بالعقليات والنقليات ومعمم ذلك في تابعيه ومجاوريه ظهرت النتائج المتقدمة . وعند ما وصلت الحكميات الى الطبقة الرابعة الحاضرة من الاوروبيين خدموها خدمة جد واجتهاد ودأب دائم بنشاط وهمة وجمعوا كتب العلوم الشرقية من بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وملأُوا بها كتبياتهم العديدة ووجهوا اليها كليات افكارهم وجزئياتها وصرفوا في ترجمتها وتحصيلها الاعمار الطويلة والاموال الكثيرة وانكبوا عليها تعلماً وتعليماً وتفصيلاً وتفريعاً وشرحا وتوضيحاً وحلا وتركيباً وتخصيصاً وتعميماً حتى انتزعوا من كل علم علوماً . وقد اوصلتهم التجارب الى حل معمَّيات علماء المسلمين وفك رموزهم وفهم اشاراتهم والوقوف على اسرار عقولهم التي اودعوها كتبهم برقم او اصطلاح خفي وبهذا امكنهم ان يقابلوا الخالقي من الجامدات والمنطرقات والسائلات بصناعي دبروا مواده وعرفوا تركيبه بسبب وقوفهم على مواد تركيب الخلقي بالطرق والاستكشافات الكيماوية فملأُوا الوجود بباهر صنعهم واستعملوا البخار والكهربا في تسهيل الاعمال الشاقة وقطع المسافات البعيدة براً وبحراً وجواً ونقلوا تلك الاشكال الى اشكال تسهل على المتعلم اخذاً وتلقيناً وتملأُ الناظر بهجة وسروراً وفتحت لاعمالهم الغريبة ومخترعاتهم البديعة المعامل الكثيرة واخذ رجال الثروة بيد العلم فانتشرت المبتكرات وتمتع الناس بحلية الوجود المدني التي هدى اليها العلم واظهرها

التعب في تحصيله فانتقل العالم الى صورة جديدة اخذ في تحسينها من عهد اشتغال هذه الطبقة بالعلوم الحكمية بعد تقهقرها في الشرق بكثرة الحروب وموت العلماء في الفتن الداخلية والغارات الخارجية وما زالت تترقى من حسن الى احسن ومن غريب الى اغرب حتى انتهت الى نقل المبتدعات من مضيق المستحيل تصورًا الى بحبوحة الممكن المتداول بين الناس ٠ وقد تنبه ملوك الشرق وابناؤه بما رأوه من غرائب اوروبا وعجائبها فرحلوا من بلادهم الشرقية الى البلاد الغربية لتحصيل هذه العلوم ونقلها الى بلادهم مقر نشأتها الأولى فنبغ من ابناء الشرق كثير من طلبة الطبيعيات والرياضيات وانتهوا لتأليف الكتب وحل رموز اوروبا فاذا زادت رغبة الشرقيين في هذه العلوم وفتحوا لها المدارس الكثيرة وحشدوا فيها عددًا كبيرًا من الطلبة ولازموا الجد والاجتهاد واخذت حكوماتهم بعضدهم فكافأتهم على اتعابهم وساعدتهم بفتح المعامل والمدارس ومدت الامم الشرقية يدها لمساعدة الحكومات واستمر هذا الاجتهاد قرناً واحدًا وقف الشرق امام الغرب علماً وعملاً وربما فاقه بشدة ذكاء ابنائه وقوة تصورهم واقتدارهم على حل المشكلات ٠ فانظر الى آثار حكمة الله تعالى كيف تحيي العالم الانساني والحيواني والنباتي والمعدني باصل كان آلة لهذه المعدات العمرانية والكمالات المدنية ٠ وقد تحولت الافكار عن وجهة الحكميات الدينية الى وجهتها العلمية فاشتغل بها الناس على اختلاف اديانهم كما كان في صدر الاسلام فكأنّ الناس فطروا على تقليد اللاحق للسابق وتسمية ما فهمه المتأخر من علوم المتقدم مبتكرًا وذلك بتقلبات الامم بين ايدي العمران والخراب فيتعب هذا في وضع ابكار تخيله

في كتاب وطنه في دورة العمران فبقلده الحاضر والمعاصرة اذا آل امر وطنه الى الخراب ووقعت كتبه في ايدي اصحاب الدور العمراني الثاني كانت كنزاً مطلسماً وغلقاً محكماً فاذا اهتدى بعض الافراد الى ما فيها من مواد العمران وبواعث المدنية عد مبتكراً لها بالنسبة لمعاصريه وما هو الا مقلد لسابقه ولكن له الفضل في حل ما اشكل على غيره وتفصيل ما اجمله سابقه واستعمال اصوله حتى فرع عنها ما يساويها قدراً واختراعاً · واذا اعتبرنا هذا امراً دورياً بين العالم الانساني كما هو مبسوط في التاريخ وشهدت به حالة الممالك الآن ايقنا ان الشرق سيكون له الحظ الاوفر من هذه العلوم بتربيته تحت احضان من تربوا تحت احضان سكانه القدماء

اما عصبيات هذا الدين الاستدلالي ايام كان معتقداً معمولاً به فقد وجدت له عصبية في العراق اوصلته الى الفرس فانتقل الى الهند والافغان وبلوجستان وسورية ثم سار به الفينيقيون حتى ادخلوه جزائر الروم وشبه جزيرة اليونان وسيسيليا (صقلية) وقبرس وشاموس وسواحل افريقية ثم تناقلته طوائف الامم بالاخذ عن بعضهم البعض حتى انتشر في معظم آسيا وافريقية وبعض جهات اوروبا ولقلة كتبه وعلمائه اذ ذاك تصرفت فيه الامم بافكارهم وادخلوا فيه ما دعتهم اليه الشبه الوهمية والمستحسنات الخيالية فانتقل في اكثر اقاليمه من البحتية الى المزجية وتفرع عنه فروع مزجية مختلفة المواضيع والاصول والفروع كما سنبينها ان شاء الله تعالى · وقد دخل عليه الدينان اليهودي والصالحي في بلاد العرب والمجوسي في بلاد الفرس والبرهمي في الهند وافغانستان والبوذي في الهند واطراف الصين والابراهيمي الخليلي

في بابل وفلسطين واللوطي في سذوم وعمورة واليونسي في نينوى والشعيبي في اطراف بلاد العرب والشام والموسوي في مصر والشام وسورية وبعض بلاد العرب الى ان اوصله سيدنا سليمان الى العراق واطراف فارس والمسيحي في مصر والشام واوروبا وبعض بلاد العرب والاسلامي في جميع بلاد العرب والعراق وفارس والعجم والافغان والهند ومصر والسودان والغرب والاناضول والتركمان وجزائر البحر الابيض وغيرها مما حل فيه من بلاد آسيا وافريقية واطراف اوروبا . وكما دخلت عليه الاديان الإلهية في اقطاره كذلك دخلت على فروعه المزجية بعد ان دخلت هي عليه . ولم يشتغل احد من المرسلين عليهم الصلاة والسلام بالحكميات، مثل ما اشتغل بها سيدنا سليمان فانه اشتغل بها اشتغالاً عظيماً ورخص في الطب منها ودوّن كتباً في النباتات والعقاقير وتصدى لتعليم الطب بنفسه وعنه اخذ الفيلسوف سقراط وغيره فهو ثاني اثنين اشتغلا بالحكميات ادريس وسليمان . وقال بعض العلماء ان هودا اشتغل بالعلوم الحرفية والوفقية وان صالحا اشتغل بها ايضا وان بعض انبياء بني اسرائيل اشتغلوا بالطلاسم والزايارج ولكن هذه الدعوى تحتاج الدليل الذي يثبتها وليس في وسعه اثباتها من طريق الظاهر والاثبات بالكشوفات الفتحية غير مقبول عند من لم يعتقدها وذلك كثير في الناس . فاكتف الآن بهذا الملخص الموجز ولعلنا نوسع الكلام فيه عند مناسبة أُخرى

ه . غ .

ارح افكارك الآن حتى آتيك فاني متوجه الى طنطا لاستحضار بعض ضروريات المنزل واعود بعد غد فاشتغل بكتابة ما دار بيننا ودونه في كتاب

لئلا يذهب عنك بعض المطالب بطول العهد بها وهل يلزمك شيء غير الدخان

ش

يلزمني نصف اوقية لودنم واربع اواق من ماء الورد لأصنع منها قطرة عين وزجاجة مغنيسيا (مانيزيا) مكلسة وقدر خمسين جراما من مسحوق الراوند لأصنع منها مركباً معدياً فان عندي ضعفاً في المعدة ولا بأس من استحضار زجاجة مداد وجانب ورق واقلام فاني اصنع الحبر من هباب الفرن واضيف اليه بعض قرظ السنط وليس عندي من الاقلام غير اقلام الحجناء القريبة الحفاء والورق الموجود عندي رقيق جداً لا ينفع في كتابة الكتب واذا اشتريت لنا بعض الجرائد العربية كنت متفضلاً فاني مشترك في جريدة الوطن باسم غير اسمي ولكنني احب الوقوف على الاخبار اليومية كذلك

٦ . غ .

الجرائد المحلية ليس فيها شيء الآن غير الحط على الثائرين واغراء الحكومة على الانتقام وتشديد العقاب فليس فيها شيء يسرك ولا يمكنها ان تتكلم في الامور السياسية باللسان الذي تتكلم به جرائد اوروبا فانا اترجم لك التمس والدالي نيوز والدالي تلغراف الانكليزية والديبا والريببليك فرانسز والفيجارو الفرنساوية فاني مشترك فيها ويكفيك ان تقف على حقائق السياسة من هذه الجرائد اما الوطنية فاني لا احب ان تكدر فكرك بما فيها ومع ذلك فاني استحضر لك عدداً او عددين من الاهرام فان استحسنت ما

فيه اشتركت فيه باسمي وجئتك به كل يوم

ش

لا بأس من استحضاره فاني احب ان اقف على الاخبار المحلية كائنة ما كانت ولا تظن اني اتكدر في الجرائد مما لا احبه فاني اعلم ان الحوادث تقضي على المحررين بصرف الانكار فيها

محادثة

غ · كيف حالك اليوم وكيف حال معدتك لعلك بخير · ش · الحمد لله على كل حال بعد قيامك امس وجدت الاعراض المخية اخذت في الزيادة واحسست بآلام في قسم البطن فعلمت ان هذا من تعاصي الطبيعة عن البراز فقلت للصديق اطلب لنا جانباً من مش الحصير (مصل اللبن) وان كنت اعلم انهُ رديء الكيموس (الخلط) وقد يضر بالمعدة ولكن لعدم وجود مسهل او ملين عندي استعملته فقاد الطبيعة بعد الاستعصاء وخفت الاعراض العصبية وفي الصباح تناولت قدحاً من اللبن البقري ولم اتبعهُ بشيء · فاجدني الآن معتدل الحالة متقدماً للصحة · غ · حضرة الست تسأل عن صحتك وتكدرت كثيراً عند ما قلت لها انك معتل الجسد الآن لعدم الرياضة البدنية وتوالي الهموم والمكدرات وكانت همت بالحضور معي لزيارتك ولكن جاءها تلغراف من عائلة الخواجا · · · · بمصر يعلمنها انهم قادمون بوابور اليوم لتغيير الهواء عندنا اياماً فتأخرت لتجهز البيت وترتبه وتهيئ ما يلزم للطعام والشراب وكلفتني ان ابدي لك تأثرها من صعوبة حالتك وتكدرها مما ألمَّ بك من الضعف · ش · اشكر لك صنعك الجميل

وعنايتك بمن فقد الثقة من كل انسان وخاف كل صديق وظن ان
الاحباب صاروا اعداء بل هم كذلك الآن حقيقةً او تظاهراً بما يخلصهم من
النسبة الينا ولو علمت اني لم اخبر والدي الرحيم واخي الشقيق الشفيق
بمكاني ولا علم لهم بوجودي لعدم ارسالي اليهم لا للخوف منهم بل للخوف عليهم
لعلمت قدر ثقتي بك التي لم اخطىء فيها . غ . ولم لم ترسل خبراً لاهلك
ليطمئنوا واي شيء تخافه عليهم . ش . هم الآن محاطون بالجواسيس والعيون
ما ينطقون بكلمة الا كتبت عنهم ولا يخطون خطوة الاّ عدت عليهم ولا
يتحركون حركة الاّ سئلوا عنها وما طرق بابهم طارق الا سئل عن سبب
وجوده على هذا الباب ومن اين اتى ومن يعرفه فاذا تحايل رسولي ووصل
اليهم واخبرهم خبري سكن روعهم واطمأن خاطرهم وذهبت عنهم حالة الهلع
والخوف التي هم بها الآن . فتتفرس الناس فيهم انهم وقفوا على حقيقة ولدهم
ومكانه وربما انجر الحديث مع بعض من يدعى المحبة والالتصاق بهم فيعثر
اللسان بكلمة تدل على وجودي وينتشر هذا الخبر عنهم فيؤخذون الى السجن
والاهانة ويقعون فيما هو شر من وجدهم عليّ حال جهلهم بمكاني . وهناك
داع آخر وهو اني اعتقد اعتقاداً جازماً ان الله تعالى حق لا شك في وجوده
وتصرفه في خلقه بما يشاء ويختار وان الرسل صادقون وشريعتنا حقة لا مرية
فيها وقد اخبرتنا ان دعاء الوالدين يجاب عند الله تعالى فما دمت مجهول الحالة
عند الاهل فانهم يدعون من صميم افئدتهم ويبتهلون الليل والنهار لا يفترون
ويكون الدعاء مصحوباً بعبرات وحسرات وتواصل زفرات وهذه حالة تحرك
سلسلة الاجابة ونزول الرحمة على ولدهم الذي منعهم مصابه النوم والطعام

والشراب فاذا ارسلت اليهم خبرًا بوجودي واطمأنوا فترت هممهم وسكن غليان قلوبهم وخمدت نار الخوف وكفوا عن الدعاء او يدعون بهمة ضعيفة لغلبة الاطمئنان عليهم فلم تين العاتين لم ابعث اليهم احدًا وعسى ان تخف حالة البحث وتنصرف الافكار عنا بطول العهد فابعث اليهم من يدخل عليهم السرور والفرح بما يخبرهم به من وجودي حياً آمناً مطمئناً لا يغيب عني شيء سواهم ٠غ٠ عند ما كنت في طنطا امس سمعت عنك اخبارًا كثيرة من الناس فمنهم من يقول انك ركبت مع العرب وخرجت الى الصحراء لتسافر منها الى الغرب الأقصى ٠ ومنهم من يقول انك مت في التل الكبير ومنهم من يقول انك بطرف احد قناصل الدول فكنت اسمع واضحك واتعجب من جراءة الناس على الكذب ٠ش٠ ونحن ايضاً سمعنا اول امس اكذوبة غريبة وهي ان رجلاً دخل المضيفة وقعد مع صديقنا وكانت مزدحمة بالضيوف ثم قال ان عبد الله نديم عند السلطان الآن فقيل له من اين اتاك فقال انه توجه من دمياط الى الشام بمراكب البرتقال ثم سافر من يافا الى اسلامبول فلما صار فيها صعد على مأذنة بالقرب من سراي السلطان بين العصر والمغرب ونادى بالآذان فلما سمعه السلطان استحضره وسأله عن هذا الآذان فقال له انما اذنت ليسمع مولانا السلطان ويدعوني اليه انا عبدكم عبد الله نديم المصري فقام السلطان واخذه بالحضن وقال له الحمد لله على سلامتك يا ابني ما اصل حكايتكم وكيف انكسرت العساكر المصرية فقص عليه الخبر من طقطق لسلامه عليكم ففرح السلطان به واكرمه وامر ان يخدموه في خدمة عظيمة فلم يقبل الخدمة وقال انا احب ان السلطان يبعث معي عساكر لمصر

ومراكب ليخلص لنا البلاد من ايدي الانكليز . فضحكت عند ما اخبرني
صديقي بهذه العبارة ورايت ان الانسان لا يتصور غير ما علمه وما يجر اليه
علمه بطريق القياس فان مثل هذا القائل اذا لقي صاحباً لهُ عزيزاً اخذه
بالحضن وسلم عليهِ وقال له الحمد لله على سلامتك يا ابني فقاس ما يحصل
من الملوك العظام على ما يحصل منه وتصور ان السلطان الاعظم قال لي تلك
العبارة . ثم لعدم وقوفه على الاحوال السياسية تصور ان السلطان لا علم
له بالمسئلة المصرية وانهُ سألني عما جرى ولو علم ان المخابرات السياسية ممتدة
بين السلطان ومصر من بدء الخلاف الى الحرب وماجرياتها وان درويش
باشا كان نائباً عن الحضرة السلطانية في مصر وكان يكتب الكليات والجزئيات
لما حكم بما حكم او لو كان ممن يقرؤن ويكتبون ورأى المنشور الصادر من
الدولة بعصيان العرابيين لتحقق ان كلامهُ محض كذب وافتراء ولكن جهلهُ
حمله على تجهيل من لا يجوز تجهيله وتصور ما لا يمكن وقوعه . وجاءنا رجل
آخر فقال انهم ضبطوا عبدالله نديم من بيت رياض باشا فتأمل الغلو في
الكذب اذ تصور اني ادخل بيت دولة رياض باشا في هذه الحالة الخطرة
مع اصداره منشوراً بالبحث عني ومع وجوده في الحكومة . فانه ان سلم عاقل
ان دولته ربما اخذته الحمية عندما اذهب اليهِ مستجيراً بهِ فيغض عني الطرف
فلا يسلم انهُ يبقيني بمنزله عرضة للناظرين ولا يسلم كذلك اني اذهب اليهِ في
هذه الحالة محتمياً به لوقوف الهواجس السيئة بين الانسان وبين الثقة
بالرجال في وقت المصائب . وكل يوم نسمع اخبارا غريبة لو بسطتها لك لسمعت
عجباً . وهذه عادة الناس في كل وقت حصلت فيهِ امور خفية عن العامة

فتكثر الهواجس والظنون تصوراً وافتراء · ولذا ترى التواريخ الشرقية والغربية ممتلئة بالاخبار الكاذبة عن الحوادث والوقائع لتلقف المؤلفين تلك الاخبار من افواه الناس حتى لو تلقّى المؤرخ الاخبار عن مصادرها الاصلية فانه لا يسمع منهم الا ما ارتضوه لانفسهم وما يحبون ان ينشر عنهم · اللهم الا ان يكون حضر امرا او وقف على حقيقته بنفسه فانه يكتبه على ما هو عليه ولذا قال بعض علمائنا

وليعلم الطالب ان السيرا　　تجمع ما صح وما قد أنكرا

غ　　٧

قد فرغنا من الدين الاستدلالي العقلي الاصلي وعلمنا الآخذين به والاقطار التي دخلها والأديان التي دخلت عليه وتنقله بين الطبقات الاربع حتى تحول من الاصل الاعتقادي الى الصورة العلمية ووقفنا على تصرف العلماء فيه وتقسيمه · فهل عدمت عصبيته بالمرة او بقي لها اثر في العالم واين يوجد هذا الأثر وهل هناك من يتظاهر به ويعلّم اصوله في مكان خاص ويتكلم بعقيدته بين الناس سواء كانوا من اهل ملته او من غيرهم

ش

كنت احب ان تؤخر هذا السؤال حتى اقدم لك فروعه المرجحية فاننا بصدد تقرير الاديان على ما كانت عليه قبل هذه العصور الاخيرة وهذا الذي تطلبه هو ما عليه رجال هذه العلوم الآن من بقاء البعض على عقيدته الشرعية وعدول البعض عنها بالوهميات او الظنون او المشاهدات ووقوف هذا الاخير عند المحسوسات وانكاره كل ما لا يصل اليه حسه فان رايت تأخير الجواب

حتى نصل اليه حفظاً لنظام العبارة فاعدل عن هذا السؤال الى غيره

٨
غ

لا بأس من التأخير فان انتظام سير المطلب ابعد عن تشتيت فروعه واوقع في النفس فهات الآن فروعه المزجية وعصبياتها واقطارها والاديان التي دخلت عليها وما ذهب منها وما بقي لنفرغ من باب التأصيل الى العصبيات الحاضرة وتقلب المسئلتين الشرقية والغربية وانقلاب الاحوال بهذا التقلب الدائم . والتزم الاختصار فاني اكتفي بفذلكة يعلم منها ما تناوله اهل العصور الأولى من الاديان تتميماً للباب

ش

قدمنا ان الطبقة الثانية افترقت بادئ بدء ثلاث فرق وكل فرقة وضعت اصولها على قواعد ثابتة في زعمها حقية في وهمها واحكمت الادلة والبراهين فجاء على اثر كل فريق كثير من الامم واخذوا بمذاهبهم ودانوا بها ثم افترقوا فرقاً شتى بحسب الابحاث العلمية او الفراغ منها فمن الذين انشقوا بالبحث العلمي قدماء علماء النجوم فانهم نظروا في الكون السفلي من حيث تأثير الكواكب فيه بتسوية المعادن وحفظ الاجسام الحية وتصعيد البخار وتبديد الدخان وتقطيره وانفصال العنصريات عنها واطالوا البحث والتدقيق بقدر قواهم العلمية اذذاك فأداهم البحث الى اعتقادان الكرة الارضية تسخن بالشمس وتبرد بالقمر وتيبس وتحمض موادها بزحل وتحمرّ وتملح بالمريخ وتحلو وتبيض بالمشتري وتصفو من اخلاطها بالزهرة وتمتزج ببعضها بعطارد وتخلع صورها الهيولانية بالثوابت وتدخل الكون الظهوري بالمحيط وان هذه الافلاك قامت

بافعالها حال اشراق الكواكب على العالم الاوسط فتعارضت طوارئه وانفعلت لهذه المؤثرات انفعالاً تخلخلت به الاغوار تخلخلاً نفذت منه الاشعة والاهواء في الطبقات الارضية وتصعدت منه الابخرة الصاعدة من الحرارة المركزية لبطن الارض فطردت الأشعة البرودة الى الاغوار وصعّدت الرطوبة في محيط الكرة وسقوف الكهوف والمغارات فجفت الجبال وتراكمت الابخرة تراكماً كوّن الحر واليبس فتجاذبا اطراف المواد الكروية تجاذب اختصاص وانفعال بالتفاعل الحاصل بينهما فحدث الكبريت والزئبق والاملاح من الانفعال لهذه المؤثرات وبتجاذب الوالدين الكبريت والزئبق وزيادة الأول عن الثاني في موضوع والثاني عن الآخر بحسب الطوارىء وانفعال المواد لهما بمساعدة محلول الأملاح تم تكوين المعادن مختلفة باختلاف مراتب اجتماع هذين الاصلين . وبالسقي المزجي والاستمداد الطبيعي والتأثير الفلكي تخلصت النفس الكلية السارية في الكائنات واثرت في العناصر تأثيراً اوجد فيها قوى التدافع التي امدت العالم الارضي بالمجاورة والمقابلة والتماسّ حتى قويت بالتطابق على التفاعل وانقادت للانفعال وتم تكوين النباتات البحرية ثم الاسماك ثم الحشرات الذرية ثم الطيور ثم النباتات البرية ثم ذوات الاثداء من الحيوان ثم بقية الحيوان ثم الانسان . وعلى هذا الحد وقفوا وجعلوا الموجودات الارضية اثراً للكوكب العلوي (الشمس) عند قوم وللكواكب بتوزيع التأثير عليها عند آخرين وغفلوا عن قول الحكماء الآخذين عنهم (ان المطلق في البساطة لا يتصف بصفات المركبات فتفاعل الفلك وانفعال المركبات راجعان الى المجردات وهي الى الآله الصانع فلا طبع في المركبات

استقلالاً ولا علة في الأفلاك استناداً فان المركبات مخترعة الصور قبل مادتها التكوينية والفلك دال على الحدوث بما اودع فيه من جانب المجردات المؤثرة بالفعل الإلهي لا ان الفلك محدِث بالذات فاعل بالاستقلال) وبهذا حكمت هذه الطائفة بان الكواكب هي المدبرة لهذا العالم البديع المثال وعنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوس وغيرها من لوازم الاغيار . ثم انقسم الصابئون والكلدانيون في هذا الاصل ثلاث فرق ايضاً فرقة تقول ان الكواكب واجبة الوجود لذاتها غير محتاجة الى مخصص (وهؤلاء خالفوا الالهيين في قولهم ان تحرك الافلاك يقضي بمحرك ووجود الكواكب في مداراتها يقضي بمخصص يخصص كلاً منها بما هو عليه وما ذاك الا الفاعل المنشىء والصانع الحكيم جلّ شأنه) وفرقة تقول ان الكواكب هي الآلهة ولكل عمل قائم به في هذا العالم لا يقدر عليه غيره وانها ابدية الوجود ازلية الاولية تجري احكامها لا لغاية (وهذه قصرت فيما اخذته من اصول الحكماء وبقصور افكارها عن مداركهم العالية وقفت عند الحدس والتخمين والظنون الفاسدة فاعتقدوا إلهية مقسورة بفعل مبدعه متحرك بمراد غيره شأن الفراغ من المعدات العلمية والدور مع الخيالات الوهمية) وفرقة تقول ان لهذه الافلاك والكواكب الهاً مبدعاً فعالاً اعطاها قوة عالية وارادة ذاتية نافذة في هذا العالم السفلي وفوّض اليها تدبيره فهي تفعل في العوالم الارضية ما اوجدها الله تعالى لأجله . وان الانسان تبلغ روحه بالتصفية والرياضة الشاقة ومصابرة الجوع والعطش وتلطيف الغذاء وعدم تناول الروحانيات وما خرج منها الى حيث يقدر على الإيجاد والاعدام والإحياء

والإماتة وتغيير البنية والشكل وتسيير السحب وانزال الصواعق وغير ذلك من الاعمال التي يفعلها الروحانيون بتحريك القوى العلوية بالقوى الأرضية (وهذه اوهام لا حقائق لها اذ لم نر في الوجود فرداً ينطبق عليه هذا الظن الفاسد وان عدوا معجزات الانبياء من هذا القبيل كذبهم اختلاطهم بالامم واتفاقهم معهم في المآكل والمشارب والمجامع ولم يعتكف احدهم بصومعة ينفرد بها عن الناس ولا ارتاض رياضة كوكبية او خلوة بحرية بل كانوا كأنهم من افراد الناس في تناول ضروريات الحياة ومع ذلك كانت تصدر الخوارق على ايديهم في ملاء من الاعداء والمعارضين من غير ابداء اي فعل او قول يوهم حدوث المعجزة به ولو صدر عنهم فعل بتحريك القوى كما تزعم هذه الفرقة لكان ذلك كافياً في تكذيب معاصريهم لهم واقامة الحجة عليهم ولم يسمع عن رسول منهم انه فعل ذلك فما تصورته هذه الفرقة مجردوهم غير مستند لشيء من الصحة) وعلى هذا فان هذه الفرقة تقول ايضاً ان الانبياء من قبيل خواص الحكماء البالغين مبلغ خلع توجه النفس من الحيوانية الى الصورة الملكية وبعناية الطوالع السعيدة يقتدرون على تهذيب الانسان بدوال ترشدهم اليها توجهاتهم العلية فتوءخذ عنهم التعاليم الادبية لتخليص النفوس من شوائب الأغيار لا على ان تلك التعاليم الخاصة من الذات الاقدس او خطاب منه محتجين بان الانسان اذا كانت غاية افعاله موقوفة على فرد او افراد منه كان صدوره عن الله تعالى فيما دون درجة الكمال فيكون مكمله حائزاً لعناية فوق عناية المبدع وهذا غير مسلّم عقلا واذا انتفى هذا وثبت وجود الانسان كامل الحواس قابلاً لترقي الكمالات فيه لذاته بتجرده

وارتياضه بطل ارسال الرسل عن الله تعالى وثبت كمال الداعين في ذاتهم اذ ما بينهم و بين مغايريهم الا الصوارف الطبيعية (وفاتهم في هذا الزعم ان افراد الانسان لا تتفق في طبائعها واخلاقها فان الله تعالى خلق اهل كل اقليم في طبائع واخلاق تغاير طبائع واخلاق غيرهم وميز الافكار والعقول فاوجد الضعيف منها والقوي والذكي والبليد والنشيط والكسلان وفرق بين اهوائهم واميالهم فمنهم من يميل الى العلوم ومنهم من يميل الى الصنائع ومنهم من يميل الى الزراعة ومنهم من يميل الى الملاحة وكل فريق مختلف في ميله الى فن مخصوص او فنون متعددة وهذا التباين يقضي باستحالة قيام فرد بعمل لم يتفق فيه مع قومه الا بفاعلية فاعل آخر · ومن اين اتى للمرتاض منهم ان الرياضة موصلة لاحداث الخوارق من غير ان يقلد غيره فيها او يبلغه عن الغير كيفية العمل و بهذا نعلم صدق الرسل واستحالة الكذب عليهم وان الانسان قابل لترقي الكمالات فيه بالتلقين والتعليم لا بالذات فانه فارغاً عن التعاليم حيوان اقل درجة من البهيم الساري في اعماله خلف الالهام الالهي) وعلى هذا نرى ان المذاهب الحكمية الاصلية تفرع عنها ثلاثة مزجية استدلالي تصوري وهو القائل بقدم الكواكب ولزمه القول بقدم العالم تبعاً لها · واستدلالي وهمي وهو القائل بإلهيتها · واستنتاجي اجتهادي وهو القائل بثبوت الفاعل جل شأنه وتفويض التدبير الى الكواكب وكمال الانبياء في ذاتهم والكل ممزوج بالاصل الحكمي · ناشيء عن دورا لافكار في كل امة وزمن على مبدع هذه الكائنات ومخترع هذه الصور العظيمة ولوقوف العقل عما وراء مداركه من الافعال الالهية يعثر كثيراً في هذا الطريق و يصدر عنه تصورات وهمية وكلما

رقى الانسان في النظر العقلي كلما ترقت معه الهواجس والظنون وهذا الذى سار بكثير من الناس قديماً وحديثاً في طريق الشكوك والاوهام فهلك من هلك ونجا من نجا

وهذه الفرق وجدت لها عصبيات في بلاد العرب والفرس والكلدانيين فاجتهد العرب في بناء الهياكل العظيمة للشمس وحجوا اليها وقربوا فيها القرابين وذبحوا لها الذبائح واعتكفوا حولها متعبدين وكانت سلطنة هذا الاعتقاد في قبائل سباء الحميرية فلما تهدمت سدودهم وسالت عليهم السيول تفرقوا في اقطار متباعدة ومعهم اصول دينهم فبثوها في القبائل التي نزلوا باوديتها والطوائف المساكنين لهم وعنهم انتشر في معظم بلاد العرب وانتقل الى اطراف بلاد الحبشة واخذ عنهم الكنعانيون عند نزولهم باراضيهم وامتد من سورية الى جزائر الروم على ايدي الفينيقيين وعن الفرس اخذ الافغانيون وعنهم انتقل الى الاقطار الهندية وبنيت له كذلك هياكل عديدة في سورية والشام والهند وبقي ظاهراً معمولاً به الى ان دخل عليه الدين الموسوي في سورية والشام والمسيحي فيهما وفي بعض بلاد العرب والاسلامي في جميع اقطاره ثم انتهى امره بانتقاله الى الصورة العلمية وبقيت المسئلة الاعتقادية منطوية تحت مؤدّي عباراته وقواعده يعتقدها قوم وينكرها آخرون . وقد نقضت الطبقة الاخيرة كل ما اسسته الطبقة الاولى واثبتت من السيارة وسيارة السيارة ما لم يكن في حساب المتقدمين فانخرمت قواعدهم وانهدمت اصول عقائدهم وبقي العلم آخذاً في التقدم والترقي غير واقف عند حد فكلما تعددت المراصد وكبرت المعظمات البلورية وتعدد الراصدون في اقطار

متباينة نقدم الفلك تقدماً عظيماً وظهرت خفايا العالم العلوي بالنظارات العظيمة وانكشف للفلكيين من الكواكب وغرائبها ما لو ظهر للمتقدمين لبهرهم وزادهم حيرة . ولو انصف المتقدمون والمتأخرون انفسهم لقطعوا بان وجود هذه الاجرام العظيمة بالعوالم العديدة والاسرار البديعة والافعال الغريبة مع اختلاف الاجناس وتنوّع الصور والأشكال لا يكون الا اثراً لمؤثر . وليس المؤثر مجموعها بعد ثبوت احتياجها الى بعضها ولا جواهرها الفردة فان كل جوهر محتاج لمخصص يخصصه مع احتياجه الى المكان والزمان وجواهر المكان كذلك محتاجة الى مبدع مخصص وليس ذلك الا الله تعالى . والقول بوجود الكون صدفة بعيد عن التصور العقلي فان اختلاف العنصريات وتنوع الاجناس والصور مبطل له مثبت للفاعل المختار والقول بالطبع كذلك منقوض بالخوارق المسماة في عرف اهله بفلتات الطبيعة لعدم سريان الطبيعة على نسق يقضي ببروز الاشياء محفوظة الصور ولا يخلصنا من هذا قولهم ان الطبيعة بلهاء تصدر عنها فلتات لاحتياج التكوين الى فاعل مختار عليم قادر حكيم لا يصدر عنه العبث ولا تتشوش عليه المطالب ولا تغالبه الطبيعيات وما لهم اذا رجعوا بالموجودات عند انتهاء سلسلة الممكنات الى واجب الوجود سمّوه طبيعة ولم يسموه الهاً والعقول لا تأبى ذلك ولا تراه بعيداً عن التصور بعد اقامة البرهان عليه

ومن فروع الاستدلالي العقلي فرع العقلي التنزيهي وهو مذهب الناظرين في إلهيات الحكماء مقتصرين على البحث في الموجودات علوية وسفلية من حيث افتقارها الى افرادها بسائط ومركبات وعدم قيام فرد منها بنفسه فضلاً عن غيره سواء كان فلكاً او كوكباً او عنصراً او حيواناً او نباتاً

او جماداً فقطعوا بما قطع به الحكماء من احتياجها الى صانع حكيم مبدع لموادها مخترع لصورها بموجد لأجناسها مغاير لها خارج عن سلسلتها الامكانية مدبر لنظامها مؤثر في تفاعلها وانفعالها مدير لحركتي الايجاد والاعدام غني عن الشريك والمعين منزه عن العجز والاكراه والغفلة والذهول والاغراض والحلول والاتصال والانفصال . ثم حكموا باستحقاق هذا المبدع العظيم والصانع الحكيم للعبادة والخضوع والرجوع اليه استغاثة واستعانة وتضرعاً واستغفاراً ومن هذا الفرع فرع البراهمة ولكنهم عند ما رجعوا الى قول الحكماء في السياستين النبوية والملكية نظروا الى الانسان من حيث تساويه في الخلق وفطرته على قابلية الادراك واستعداده الى التوجهات العلية ووصوله الى مدارك النفوس العلوية ومخاطبة الجمادات والافلاك والحيوان وقلب الحقائق قلباً صورياً بالرياضة الطويلة والمجاهدات الشاقة والبعد عن الحيوانيات النازلة به الى حجب الموانع السفلية واشتغاله بالنفسيات الواصلة به الى التجرد ومشاكلة الاجرام العلوية واستخدامها في اغراضه ووسائله وانه متحد في هذا التناسب لا يختلف فيه فرد من الافراد فجعلوه محتاجاً في جميع احواله الى الالهامات الالهية من غير تفاضل ولا اختصاص سماوي في افراده لاستحالة الاختصاص والغرض على الصانع المبدع بتنزيهه عن الاستعانة ببعض افراد خلقهم من غير احتياج اليهم لهداية خلق عظيم يقوم الهامه فيهم مقام الهادي والمبلغ فوافقوا بعض الصابئين والكلدانيين في بطلان ارسال الرسل عن الله تعالى . وقد تقدم نقض هذا القول واثبات احتياج الانسان الى رسول يختاره الفاعل المختار ولكنهم خالفوا الصابئين والكلدانيين في جعل الكائنات اثراً لله تعالى من

غير اشتراك منها في ايجاد او اعدام · وجعلوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام من قبيل الحكماء البالغين مقامات الكمال بالرياضة مما هو في قابلية كل فرد من افراد الانسان فطرة وجبلة لو ارتاض مثلهم وان من ساعدته القرانات العلوية مولداً وظهوراً كان مقبول الحجة واسع الملك ومن لم تساعده وقف عند حدّ الدعوة والمجادّة والاستعانة باستخدام رياح او صواعق دون ان يبلغ الا نتشار فهم عندهم خواص ينظر اليهم بعين الاعتبار لا الاتّباع و يؤخذ ما يلقونه من التعاليم من قبيل التهذيب والارشاد لا من قبيل اعتقاده وحياً سماوياً منزلاً من الله تعالى · وعند ما نظروا في قول الحكماء في علمي الاخلاق وتدبير المنزل « ان الانسان لا يميل الى الاقتران بانسانة الا بدافعة طبيعية وادوار الطبيعة غير مضبوطة في الانسان بما تدعو اليه متناولاته البدنية فيستحيل عليه ان يسوّي بين انسانتين في ميله الطبيعي ويجب ان يقتصر في الاقتران على واحدة دفعاً لرذيلة الظلم عن نفسه وسلب حقوق المُغضَى عنها منهن وتحصيلاً لفضيلة الائتناس وتأليف الذرية بتوحيد الاصلاب والارحام » قالوا اذا كانت ادوار الطبيعة لعدم امكان ضبطها واختلافها باختلاف متناولات الذات كمّاً وكيفاً تقضي على الانسان بعدم العدل في زوجتين سامعتين لامره فحكمها عليه بتوزيع امياله في الخارج انساناً كان او انسانة من باب أولى · واذا ثبت توزيع امياله فيمن يراهم خارجاً عن حوزته فالزامه بتركها مع اندفاع طبيعته بها ظلم وحكموا بجواز التعدد وحل المباضعة باتفاق المقترنين على اي دين كانا وبأية صورة شاآ وبهذا انتقل دينهم من الاصل الاستدلالي البحت الى المزجي التنزيهي وفاتهم ان الرجوع الى الطبيعة في

استرسال الانسان خلفها مفوت لفضيلة العقل فيلحق الانسان بالبهيم على ان من البهيم ما يلزم قرينة ويغار عليها ويقاتل دونها ويقتلها اذا باضعت غيره ويقتل الغير اذا دنا منها فيكون الانسان في هذا الباب احط درجات من البهيم ولا يرضى بهذا الا من نزلت مداركه العقلية عن درجات الكمال وكيف يسترسل الانسان خلف طبيعته الحيوانية ولا يرى قبح مباضعته لقرينة غيره وهو يرى قبح مباضعة الغير لقرينته ام كيف تسترسل انسانة خلف طبيعتها وترضى بافتراش غير قرينها لهـا وهي ترى قبح افتراش قرينها لغيرها وتكاد تأكله غيرةً منها عليه · ولا يقال ان الاقتران بثنتين او ثلاث من هذا القبيل فانا نقول ان الوجهة التي بهـا اقترن بالزوائد معاومة للقرينة الاولى من طريق مألوف بين عشيرتها وليس ما يفعله استرسالاً خلف الطبيعة وانما لكون القرينة قد تكون على غير صورة القابلية للمباضعة حال احتياج القرين الى صرف المادة المعدودة من الفضلات الضار تأخيرها اذا كانت في حيض او نفاس جاز له الاقتران بما فوق الواحدة الى الرابعة عندنا والى ما فوقها عند غيرنا فراراً من العيث في الاعراض وخلط الانساب وضياع الابناء في الارحام المستعارة ولكون الرجل لا تعتريه هذه الموانع لم يرخص للقرينة في الزيادة عن واحد وبالجملة فان هذه اوهام جروا فيها على افكار واضع المذهب ايام الفراغ من المواد العلمية

ومن فروعه الاستدلالي الاشراكي وهو دين الباحثين في كتب الحكماء مقتصرين على مبحثي التكوين والخير والشر فالاول اقتصروا فيه على النظر في انفصال الحرارة التكوينية من ممكن الصادر الاول ثم تدرجها الى

الحرارة المركزية بالنسبة الى بطن الارض ومحيط سطحها وعدم امكان استقلال الارض بذاتها وظهورها ربوات وجزائر وجبالاً وهضاباً وصحارى في وسط البحار السائلة من غير مساعدة الحرارة وارتباطها بها وانجذابها اليها باتصال الاشعة ثم نظروا الى الانسان من حيث تركيبه وما اشتمل عليه هيكله من الاجزاء الارضية وتسلطها عليه مع العلويات قبضاً وبسطاً وحركةً وسكوناً وتوزيعاً في اصوله المواليد حتى استوى بشراً وقام انساناً نامياً حساساً درّاكاً فعّالاً بالارادة فجعلوه ابن الارض وهي بنت الحرارة المقابلة للقدرة الالهية فاتخذوا النار التي هي اثر الاله وفيها صفته التكوينية دالاً على معبود وبتقادم الزمن وكثرة تصرف الرؤساء في هذا الاصل افترقوا فيه فرقاً واختلفوا قولاً حتى قالت فئة ان النار معبود قائم بذاته . وعند ما نظر قدماؤهم في قول الحكماء « ان الله تعالى بتوحيد ذاته جهةً واعتباراً يستحيل صدور التكاثر عنه» قالوا ان حدوث الخير والشر عنه هو عين التكاثر في امكانه واذا بطل التكاثر عن واحد جهةً واعتباراً لزم الحكم بوجود فاعلين يصدر عن احدهما الخير كله وعن الثاني الشر كله وانتهى بالمتأخرين الامر الى ان صوّروا صورة زعموا انها صورة الاله وعلى كتفيها صورتا الخير والشر و بنوا لها الهياكل العظيمة والمعابد المشيدة ثم توسعوا في الفروع الى ان صار على ما هو عليه الآن . اما عصبياته فسنذكرها عند ما نفرغ من الفرع الاستدلالي المركب ان شاء الله تعالى

٩ غ

أخّر الآن هذا الفرع حتى ينتهي مجلس صديقنا فقد جاء ليقعد معنا

ويحدثنا ولكني اسألك عن امر بدا لي في كلامك قلت في صدر العبارة عند ذكر رياض باشا لوقوف الهواجس بين الانسان وثقته بالرجال ففهمت من كلامك ان لك اعتقاداً في هذا الرجل غير الذي اعتقده فيه فاكشف لي عن باطنك فيه وقل ما شئت فاننا في مكان لا تنقل عنا فيه اخبار ولا نخشى له سطوة لعدم علمه بنا ولست جاهلاً بالرجل وما هو عليه ولكني احب ان اعرف اعتقادك فيه

ش

يا حضرة الخواجه تعلم قدر شدَّتي وكربي وشدَّة تضييقه عليَّ بالاوامر الصعبة حتى يتخيل للواقف على الحال اني لا اذكرهُ الاَّ بسوء في هذه الحالة ولست الرجل الذي تحوله العوارض عن قول الحق ان (دولة) رياض باشا احد الرجال المدربين على الاعمال السياسية والادارية بل هو الرجل الصبور على الشدائد الذي لا يقابله مصري في اعماله فانه عند ما تحال عليه ادارة تراه يكتب بيده قدر خمسة كتَّاب من عماله ولا يترك من الاعمال دقيقاً او عظيماً الا يعمل فكره فيه بحيث لا يكون لعامل من العمال الذين دونه ادنى تصرُّف في شيء وهذا امر يستدعي صرف الوقت في مراجعة اوراق وسماع مخابرات فاذا انصرف الى بيته اخذ في استدعاء الرؤساء وكثير من العمال للمفاوضة او السؤال منهم عن امور تعرض له فتراه مشتغلاً بما نيط به الليل والنهار وربما ادركه النوم وهو في محل الاستقبال فينام وهو قاعد ويكتفي بذلك ولقوَّة جاشه كان يعارض افندينا اسمعيل باشا في كثير من الامور حتى قال بعض الذوات العظام اننا عند ما شكل المجلس الخصوصي

كنا ندخل والاختام بأيدينا فما يستطيع احد ان يفتح فمه بكلمة معارضة فيما يراهُ ضارًّا بالبلاد أو العباد الاَّ رياض باشا وهذه صفة لازمة له وفيه عفة ونزاهة نفس فانه ينزل نفسه منزلاً رفيعاً عن منازل الذوات والاعيان فلا يرضى ان يدنس مجده بما ينزله عن تلك الخطة التي اختطها لنفسه فتراهُ يحيط مظهره بتغلبه على شهواته وله تاريخ طويل وسعي عظيم في البلاد واخص اعماله تصفية الديون وترتيب قلم المراقبة الذي كان حجاباً بيننا وبين اطماع اوروبا واشتهر بحب الأَثرة في الرأي ولا ارى ذلك الا من عدم اطلاع الناس على همة الرجل فانه كثيرًا ما يخفي مقاصده عن العمال ليتوصل اليهـا بقطع العقبـات التي يحدثها القيل والقال فاذا عورض في وسيلة من الوسائل ابى التحول عنها لعلمه بما وراءها واستتره الحقيقة عن المعارض يرميه بصلابة الرأي فلو قالوا ان ذلك من شدة الحزم لصدقوا وسأتيك بتاريخه عندما نفرغ من التأصيل ونصل المسألة المصرية

غ

كلما طالت المذاكرة معك كلما زدت ثقة بك فان هذا الباشا الآن من اكبر الناقمين عليك وانت تقرأ الاوامر الصادرة وتطالع الاعلان الموجود في الوقائع المصرية ومع ذلك لم تتحول عن قول الحق فيه وهذا مما يزيدني حباً فيك

ش

يا خواجه انه ان نقم عليَّ فاني اعذره لامور منها انه ساعدني في الجمعية الخيرية الاسلامية وقدمت اليه قانونها فقرره ونشره في الوقائع وبعث بصورته

الى المديرين والمحافظين والضباط فانصرفت عنها الشبه ودخلها الناس افواجاً ورتب للمدرسة مائتين وخمسين جنيهاً سنوياً مساعدة من ديوان المعارف وقرر ان خدمة الجمعية والمدرسة تحسب لهم مدة خدمتهم من مدة المعاش لأتمكن من استخدام معلمين من افاضل رجال المعارف وعدّ نفسه عضواً في الجمعية متبرعاً بخمسة وعشرين جنيهاً سنوياً فتقدمت المدرسة وارتفع صيت الجمعية ارتفاعاً عظيماً بعنايته بي وبها ثم تقلبت الاحوال ورآني في طريق لا يرضاه فله حق الحنق عليّ الآن

١٠ غ

وكيف تحولت عن افكارك التي كنت تعمل بمقتضاها ايام اقباله عليك

ش

هذا امر يطول شرحه وملخصه اني كنت احب تعميم مدارس الجمعيات الوطنية لتخلص البلاد من ضيق الامية ودعوت فريقاً من الاقباط وعقدت بهم جمعية قبطية على قواعد الجمعية الاسلامية ليتوحد سير الوطنيين لعلمي ان الحقوق الوطنية لا تعرف الا من طريق العلم ولا تحفظ الا بتوحيد الكلمة ولكن حال بيني وبين الغاية ما لا احب ذكراه الآن فتقلبت الاحوال حتى انتهت الى ما ترى وفضل الرجل محفوظ عندي ولا استطيع اخفاءه وقد تكفلت بنشره صفحات التاريخ — وبالله عليك لا تجرّنا الى المسألة المصرية ونحن في باب التاريخ وتأصيل العصبيات وخذ بيان ما بقي من فروع الدين الاستدلالي لنفرغ منه الى النظري والاستحساني المسمى عند الاوروباويين بالفتيشي — هذا الفرع هو الشهير بالبدي او البوذي وهو الآخذ قواعده من

اصول قدماء الحكماء والالهيين بالنظر في المركبات والبسائط من العالمين العلوي والسفلي واحتياج هذا التكوين البديع والصنع العجيب الى صانع حكيم مخالف لما ابدعه من العوالم قادر على ضبط اضداده المتنافرة وانواعه المتغايرة واقتصروا في البحث على مطلب من هو الصانع لهذه الكائنات . و بتوزيع هذا الدين في اقطار واسعة وعصبيات كبيرة تضاربت فيه الافكار وكثر القياس والتأويل بين الآخذين به بقدر ما وصلت اليه عقول رؤسهم وساسة افكارهم حتى تركب من الحكمة والخيالات الوهمية وانقسم اخيراً الى ثمانية مذاهب فيما يُعلم وقد تفرع من كل مذهب فروع شتى يطول بنا الامر لو تتبعناها وسردناها والاشارة الى الاصول توصل الى معرفة الفروع بوجه التقريب . الاول منها مذهب غودمة . واهله يقولون ان الله تعالى واحد في ذاته والخلق صور تدل عليه وقد اوجد الارواح بادئ بدء عدداً محصوراً لا يقبل الزيادة والنقص وترك الانشاء والإبداع بما وضعه في العوالم من القوانين اللانهائية السير وجعل الارواح مرسلة في نوعي الانسان والحيوان فهي متناسخة في جميع الكائنات بلا اختصاص نوع منها بنوع من المركبات ووجودها في العالم العلوي قبل تسفلها اكسبها علماً بالضرورات الحيوية فهي في غناء عن مرشد او هاد باستوائها في الدرجة واستعداد كل فرد للترقي الى الكمال . واستدلوا على التناسخ في الانسان والحيوان بان الحيوان توجد فيه قابلية التعليم ومعرفة ضروريات حياته واشتغاله بصنائع محكمة يصنعها في مأواه من غير معلم يرشدهُ . وما كان خالقه مساعداً على مماثلة اعمال الانسان شاركه في معظمها فطرةً وجبلةً وحاكاه في كل ما يصدر عنه من الاعمال

البدنية · وعنده علم بالتوالد بطريق المباضعة ومعرفة بتربية الوليد وتعليمه اخلاق ابويه وعادات جنسه · وفيه حنو وائتناس بالانسان اذا تألفه واستماله اليه بالرفق وحسن المعاملة · ومنه ما يعقل عن الانسان ما يقوله فيقف عند ما يقول له قف ويقدم عند ما يستدعيه اليه من بعد ويفهم منه الاشارات اليدية فيذهب هاهنا وهاهنا وينام ويقوم ويمشي ويقف بحسب الاشارات التي يشار بها اليه الى غير ذلك وما ذاك الا بواسطة الروح المنتقل اليه عن انسان عامل فيرد على الجسم الذي يحل فيه ما علمه حال ما كان في جسم انساني · ويوجد في الانسان من يميل الى النفرة والعزلة والافتراس والاغتيال وكراهة اصناف من الحيوان او النبات او المعدن مما يكرهه بعض اجناس الحيوان · ومن يميل الى الشجاعة او الجبن او الكرم او الشح او السكون او الطيش او النفع او الضر او الخمول او الظهور او اللين او القسوة او غير ذلك مما هو من خصائص الحيوان وما ذاك الا بواسطة الروح الآتي اليه عن حيوان عدم هيكله · وبطلان هذا لا يحتاج الى دليل فان الانسان كثيراً ما اخذ صنائع عن الحيوان فلا يقال ان روح الانسان بعودتها الى مقرها الاول جهلت ما علمته وهي في الجسم المعار الذي لا قابلية فيه للمدارك بشعاع العلم الانساني · على ان قولهم ان وجود الارواح في العالم العلوي قبل تسفلها اكسبها علماً بالضروريات مبطل لهذا التعليل الذي عللوا به وجود بعض صفات الانسان في الحيوان وبالعكس ولعلنا نأتي على شيء من الادلة بعد ذلك عندما نرى مناسبة لبسطها ان شاء الله تعالى — الثاني مذهب الفو — واهله يقولون بوحدة الإله وجواز تصوره في صورة حسناء يخترعها من غير حلول فيها او في غيرها من الهيا كل وانما يقرب

للعقول انهُ بالغ من الحسن والمهابة مبلغ هذه الصورة وان كان بعيدًا عن الادراك في حد ذاته لخروجه عن سلسلة الممكنات وقد ترك الانشاء والابداع وجعل الارواح متناسخة الانسانية في الانسان والحيوانية في الحيوان وهو غني عن الرسل بادراك الارواح للملائم والمنافي قبل ان تحل في هيا كلها وبمجرد الاحتكاك في المثيل تنصقل مرآة ذاتها وتعود اليها علومها الفطرية · وهذا مذهب دخله التصوُّر الاستحساني فصار مركباً تركيباً غريباً انسلخ بهِ عما قبلهُ كما فارقه في تخصيص الارواح بانواعها — الثالث مذهب الكنفورة — واهله يقولون ان الله تعالى واحد في ذاته منزه عن الصورة والهيولي والمادة والحلول وقد خلق الارواح على صور دبرها واخترعها وجعلها متناسخة بصورة لا تصل العقول الى كنهها وهو غني عن الرسل والمعلمين بما في فطرة المخلوقات من العلم بضروريّاتها — الرابع مذهب الوليلمائي — واهله يقولون بوحدانية الإِله وتنزيههِ عن الصورة والمادة والحلول · ويحكمون بتناسخ الارواح ايضاً فيما يوافق مظهر هيكلها الفاني فروح العالم تحل في عالم غيره وروح الملك تحل في ملك خلافه وروح الصانع تحل في صانع غيره وهكذا فالمظاهر العالمية ملكاً وعلماً وصناعة وزراعة وشقاء وسعادة على ما هي عليه في الدور الاول الروحي · ثم يقولون ان الله تعالى يفرغ الكمالات الانسانية في كل زمن على انسان متجرد لعبادته منقطع عن الحيوانيات لينوب منابهُ في اظهار الغضب والرضا على افراد خلقه بحسب ما ياتونه من الاعمال وليثبت وينسخ ويحل ويحرم من الاحكام ما يناسب الطوارئ الزمانية والمقتضيات الاجتماعية فيتخذون عابدًا في كل زمن نائباً في الارض عن إله لا يموت ويعملون بكل ما

يسنه من الاحكام اقر سابقه على ما كان عليه او خالفه في بعض الفروع وكلما مات عابد اقاموا غيره من الموهاين لهذا المقام مقامه — الخامس مذهب السينتوهم — وهو يوافق مذهب غودمه في اصل العقيدة ويخالفه في تجديد الارواح فيقول ان باب الانشاء لم يقفل على الله تعالى فهو يزيد في خلقه ما يشاء ومع هذه الزيادة فان الارواح تتناسخ في نوعي الانسان والحيوان قديمة وحديثة — السادس مذهب الشمال — وهو يوافق مذهب الكينفورة في اصول عقائده ويقول برجعة الاجسام بطريق المواليد ان اتفقت الادوار الفلكية ومن صادفه هذا الاتفاق عاد الى الوجود بصورته التي كان عليها في الدور الاول وجذبته طبيعته الاولى لتعلم ما كان من خصائص الهيكل الاول فلا يحسن غيرهُ لو حاوله ويصل الى معلوماته الاولى في مدة قصيرة اذ تعلمهُ الثاني عبارة عن دراية ماضٍ نسي بعوارض لا تمحو رسومه من خيال الروح — السابع مذهب فرع — وهو يوافق مذهب الغوفي اصوله ويخالفه في اختراع الإله صورة حسنة يقرب بها للعقول انه بالغ من الحسن مبلغها ويقول انهُ يحل في اية صورة ارادها من صور الكائنات الانسانية حلول تطهير وتكميل لا حلول استقرار ويوافقه في تناسخ الارواح على تلك الصورة — الثامن مذهب السيك — وهو يوافق الوليلمائي في عقائده ويخالفه في اطلاق النسخ والاثبات وتفويضها الى العابد المتخذ فيقول ان هذا العابد لا يجوز لهُ ان ينسخ ما لم يمضِ عليه قرن من الاحكام . فهذه جملة فروعه وملخص عقائدها . والدين البدي (البوذى) الاصلي يوافق الجميع في القول

بوجود الله تعالى ووحدانيته وتناسخ الارواح ويخالفها في الحلول والصور واتخاذ العابد وعودة الاجسام بطريق الادوار الفلكية فلا يقول بشيء من هذه الاقوال . وكلها تنكر البعث جسمانياً وروحانياً وتحكم بان السعادة والشقاء في هذه الدار ليس الا وتنكر الرسل ونزول الكتب السماوية على اي فرد من افراد الانسان وتحرم تعداد الازواج غير فرع من فروع غودمة فانه يبيحه بحسب الطاقة محتجاً بان الحجر داعية الزنا وغير الدين البدي الاصلي فانه يجيز للملوك ما لا يدخل تحت حصر . و ليس في مذهب من هذه المذاهب رؤساء دينيون ما عدا الوليلمائي معللين المنع بان النفوس ادرى بمصالحها واعلم بعقباها فهي تفعل ما تشاء بناء على علمها الاولى قبل ان تتسفل في هيكلها و بانكار هذا الدين وفروعه البعث وما فيه ماتت الحماسة بين رجاله واستولى عليهم الجبن والسكون وصاروا عرضة لمغالبة الضعفاء ومن هم اقل منهم عدداً وعُدداً فلا يكادون يدافعون عن اوطانهم الا اذا اكرهوا على الدفاع فان من ينكر البعث يعلم ان السعادة هي هذه الحياة الدنيوية فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب والتعرض للعوارض ويميل الى ما فيه السلامة من العدم على اية صورة كان بخلاف من يعتقد البعث والجنة والنار فانه لا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يعتقدها دار سعادة فيقدم على الموت طامعاً في الحياة الابدية والنعيم المقيم او الظفر بالعدو والغنيمة منه فترى المؤمن بالآخرة يعرض نفسه للموت في الحروب ولو لم يكن من الصالحين لها عالماً بانها طريق السعادة ومرضاة الاله اذا كان يقاتل عن دين او لاجله كما هو مشاهد معلوم . ولا تزال جموع السائحين والفاتحين

تكشف من مستور هذه الاديان في العالم الشرقي ما لم يكن معلوماً لنا قبل ذلك ومن تتبع رسائلهم وكتبهم الحديثة العهد وقف على غير ما ذكرناه بزيادة ايضاح وتبيين فابحث في كتب قسيسي البروتستانت والسائحين هناك ان اردت الوقوف على جملة الاديان الشرقية اصولاً وفروعاً لاعتنائهم بمعرفتها ممن دانوا بها في امكنتها ويكفيك هذا الملخص

١١ غ

هات الآن بقية الاديان وعصبيات الاشراكي والمركب وغيرهما لنفرغ من هذا الباب ونخلص الى التأسيس الشرقي

ش

﴿ الدين النظري التصوري وفروعه ﴾

وهو دين الوثن وذي الروح وداعيته ان الطبقة الاولى من الحكماء والالهيين عندما وضعوا قواعدهم الحكمية ودعوا الخلق اليها والاخذ بها وقعوا من قلوب الامم ونفوسهم موقعاً عظيماً ادّى البعض الى القول بحلول الاله في هياكل هولاء الحكماء . والبعض لاتخاذ صورهم تذكاراً لهياكلهم الشريفة وبتداول الايام وكثرة الامم مع قلة التعليم اتخذ المتأخرون تلك الصور معبودات تقربهم الى الله متوسلين اليه باهل هذه الهياكل من المشرعين وعندما جاءت الطبقة النوحية انتشرت فيها تلك الصور المسماة بالاصنام والاوثان وبنيت لها الهياكل العظيمة واجتمع عليها الناس في كل الاقاليم المسكونة ثم ضعف الادراك بفقد المعلمين والمرشدين وانتشار الامية في العالم وفراغ الناس من العلوم والدوال على الاصول فآل الامر الى اتخاذ تلك

الاصنام آلهة فعالة مقصودة بالعبادة لذاتها وقربوا اليها القرابين وتفننوا في صور العبادة وهيئاتها بحسب ما تدعوا اليه الاوهام والخيالات الفاسدة · وقال البعض بالبعث والنعيم والعذاب وانكر معظم الناس ذلك ثم باتساع نطاقه وانتشاره في امم متعددة متباعدة متباينة اللغات توسعوا فيه وتنقلوا من صور الحكماء الى صور الملوك العادلين والعُباد المتكهنين ثم زادوه بسطة فوضع كل جنس او كل قوم او كل انسان صنماً على صورة ما يقع عليه استحسانه كوكباً او انساناً او حيواناً او نباتاً او معدناً وانتقلت فروعه من النظري التصوري الى الاستحساني

الدين الاستحساني

هذا الدين لا تدخل معبوداته تحت حصر فانها تختلف باختلاف النظر والاستحسان · وداعيته ان النفوس من لوازمها البحث على موجد او مؤثر في الموجودات وهذا البحث لازم لكل امة مهما كانت هياكلها الانسانية فارغة من الآداب خالية من التعاليم خصوصاً ايام انقطاع المواصلات الاجتماعية واستقلال كل امة بارضها وجهلها من عداها من الناس وتمكن النفرة والوحشة وقطع الطرق وجهل الملاحة والسياحة وبحسب المدارك وقفت كل امة عند ما وقفت عليه مداركها فكما ان ارباب العقليات اوصلهم البحث الى الاديان المتقدمة كذلك ارباب الاستحساني وقفوا عند حدود اوصلهم اليها تصور النفع او الضر في حيوان او نبات او معدن او كوكب فافترقوا فيه فرقاً شتى فمنهم من عبد الاثوار ومنهم من عبد الثعابين ومنهم من عبد القطط ومنهم من عبد شجر الزيتون ومنهم من عبد الخرنوب ومنهم من عبد الثوم

ومنهم من عبد جزءًا من انسان ومنهم من عبد الانسان ومنهم من عبد الاحجار التي توجد على صورة هيكل انساني او حيواني ومنهم من عبد الشمس ومنهم من عبد القمر الى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر · ومن فروعه من الزمهم الملوك بعبادتهم والسجود اليهم في مجتمعاتهم · فهذا ملخص الدين الانساني وفروعه باعتبار الاصول الكبار والمبادي القديمة ولو تتبعنا الظاهرين بالدعوات والمتحلات الداعين اليها كثيرًا من الامم في السابقين واللاحقين لخرجنا عن حد الايجاز الملتزم ودخلنا باب الاسهاب — اما عصبيات هذه الاديان فقد وجدت للاستدلالي التنزيهي عصبية البراهمة في كتك من مدن كلكوطا فادخلته في دهلي وبينارس ومدرس وكوشين وسرنغبتنام وبمباي واجمير وكمبايه وكولومبو (عاصمة سيلان) وسورات ثم تنقل الى ممالك واقسام لاهور وسندي ونبول واودة ونغبور وغيكاوار ونيظام وميسور وترونكورة وجزائر ملديوه واندامار ونيكوبار وغيرها من الاقطار الهندية · ثم ادخلته في اقطار افغانستان واسام وبقي سائدًا حتى دخل عليه الدين المجوسي ثم الاسلامي ثم خضعت عصبيته الى المماسكة الانكليزية اخيرًا ولم يزل قائمًا على اصوله معمولاً به يبلغ الآخذون به في الاقطار الهندية وحدها نحو مائة وعشرين مليونًا من النفوس وله الهياكل العظيمة والبيوت المحجوجة في بينارس وكتك واودجان وكتمندو وغيرها · والدين الاشراكي المجوسي وجدت له عصبية في هذه الاقطار ايضاً سارت به الى الفرس والافغان وتركستان وكوهستان والعراق واطراف بلاد العرب وارمينية والخطا والدكن وبعض قطع من افريقية ثم خضعت عصبياته الى

عصبية الدين الاسلامي بدخوله عليه في بلاد الفرس والافغان وتركستان وبلاد العراق والعرب وخضعت عصبيته الهندية اخيرًا الى المملكة الانكليزية مع بقائها على اصول دينها — والدين المركب البدي (البوذي) وجدت له عصبية في ننكنغ (ننكين) ادخلته في بكين (بكنغ) وكيلين وكنتون ومكاو وصيصيكار واونلين ومكدن وايلي وكنكيتاو ويركند ولسا وتاسيسودون وغيرها من البلاد الصينية ثم سارت به في جزائر فرموزة وهينات وليوكيو وجوكاثم ترحلت به الى جزائر نيفون وسيكوكف وكاترين ويزو وكوريلة وغيرها من بلاد اليابون ثم الى البرمان وانام وسيام وملقا (ملعقة) وسبير وبلاد التتار . وبدخول الاديان على غيره في كل جهاتها لم يدخل عليه الاّ الدين الاسلامي في التتار وشمال هندستان وملعقة والدين المسيحي في سبير ولبعد عصبياته لم تقع في اطماع الممالك المتدينة بغيره الا في هذا القرن الثالث عشر الهجري حيث امتدت اليها اطماع فرنسا وانكلترة والروسية فهي الان بين جاذبة الاستتباع ودافعة الاستقلال والظفر للالآت والحكم للقوة ولا قوة لهذه العصبيات مع كثرتها وجودة اراضيها واتساعها فهي لا شك واقعة في اشراك الدول بالقوة او بالحيلة ان لم يكن العام فالقابل او هذا القرن فالآتي خصوصاً وقد ارسل اليهم الوف من رجال الجمعيات الدينية لافساد ما هم عليه وايقاع النفرة بين تلك الجموع الكثيرة بالمطاعن الدينية ليسهل على الدول التداخل الحربي باسم حماية المرسلين والدفاع عن الدين المسيحي كما هي القاعدة المتبعة بين ممالك اوروبا الطامعة في اقطار الشرق — والدين النظري التصوري والاستحساني كانا منتشرين في

جميع اقسامها الكرة الارضية وبقيا على سيادتها حتى دخل عليها الدين الموسوي في فلسطين وبعض العراق وبعض بلاد العرب ثم الدين المسيحي في الشام وايطاليا واسبانيا وفرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا والروسية واسوج والبرازيل وسويسره والفامنك والبرتوغال وايتازوينا (امريكا المتحدة) وجزائر البحر الابيض وشبه جزيرة اليونان وارمينية ومصر وبعض بلاد العرب والحبشة ثم جاء الدين الاسلامي فدخل عليها في بلاد العرب والفرس وتركستان وكوهستان وكردستان وافغانستان وبلوجستان وخوزستان وهندستان والشام ومصر والسودان وتونس والجزائر ومراكش وشنقيط والاندلس والاناطول وجورجستان وطاغستان وفزان وعادل وزنجبار والنوبة وبرنو ونوتاز ياوتمبكتو وسقطو وسنغمبيا وبعض بلاد الحبشة وكثير من جزائر البحر الابيض والهرسك وبوسنه والبلغار وارمينية وبعض البلاد الصينية وبانفراد الدينين الاسلامي والمسيحي بالمساجلة والمباراة اباداهما من معظم المعمور ولم يبقَ منهما الا عصبيات ضعيفة في موزمبيق وغينا الشمالية والجنوبية والبيرو العليا والشيلي ولكن رجال الدين المسيحي يحاولون نقلهم اليه بواسطة القسيسين والرهبان المرسلين اليهم للترغيب بالوسائل المألوفة والتعليم الديني في المدارس لينقلوا الاطفال طبقة بعد طبقة حتى اذا انقرضت الطبقة الكبيرة انقرض الدين معهم وخرج الصغار على الدين المسيحي وهذه الطريقة التي التزمتها اوروبا في نقل الشرقيين من اديانهم الى الدين المسيحي بواسطة التعليم المدرسي اسهل لهم من طريقة الفتح بالسيف فان الدعوة بالسيف ينفر منها المدعو اول الأمر وهذه لا يشعر بها احد الا بعد تمام تربيته وقد نجحوا في هذه الطريقة في

الجزائر وتونس وبعض اطفال مصر والشام والهند والصين فربوا الكثير على هذه الطريقة وهم وان فاتهم تظاهر المتعامين عليهم بدينهم الآن فقد صيروهم من مشاربهم وسقوهم شراب محبتهم واستخدموهم في الحصول على مآربهم الشرقية ولنجاحهم في هذه الطريقة فتحوا الوفاً من الجمعيات وحبسوا عليها الاوقاف العظيمة ورتبوا لرجال الدين الرواتب الكثيرة وساعدتهم الحكومات على نفوذهم في الممالك الشرقية فهم الآن يحاربون كل امة شرقية بهذه الحرب الادبية صابرين على الاتعاب والمشاق باسطين ايديهم بمال المساعدة والاعانة قائمين بوظائفهم جيلاً بعد جيل بلا ملل ولا سآمة راجين الظفر بالمقصود العام بعد العام والقرن بعد القرن والشرقيون في غفلة الاوهام محجوبون عن معرفة هذه الحروب بحجاب دعوى حرية التدين ومنع التعصب الديني وهما كلمتان لم تسمعا الا في الشرق فان اعمال اوروبا تنكر سماعهما فيها وليس بعد عمل البروتستانت والفرير والجزويت دليل يطلب على شدة تعصب اوروبا للدين نعم ان المدارس المدنية في اوروبا ليس فيها دروس دينية ولكن هذه لا يدخلها التلميذ الا بعد اتمام دروسه الدينية في المدارس الابتدائية وبالجملة فان سعي روساء الدين المسيحي في العالم الشرقي عموماً والصين خصوصاً يجعل للمستقبل حكماً غير ما عليه الناس الآن ما دامت اهواء الشرقيين موزعة حول شقاشق اوروبا واوهام دهاتها ∴ فهذه مقارنة الاديان الانسانية وعصبياتها المنتشرة في اقسام الكرة الارضية قديماً وحديثاً وهذه الاديان الداخلة عليها في ازمان مختلفة بدعوات متغايرة الى عصرنا هذا — ومنها تعلم عدم خلو الامم من دين يدينون به في عصر من العصور واقليم

من الاقاليم وترى ان كلاً منها لم ينفذ برسائل المحبة ولا بجوابات الوداد وما انفذها الا ذاك المعوج المسمى بالسيف فان الانسان حريص على مألوفه ومحبوب والديه ولا ينتقل عنه الى غيره الا بقوّة قاهرة او مجادلة علمية والمجادلة لا تكون الا لافراد لا يستطيعون ان يتظاهروا بغير دين قومهم خوفاً على حياتهم فلم تبق الا القوة · ودعوى ان ديناً نفذ في العالم بسلم وامان دعوى لا دليل عليها فان التاريخ حفظ لكل دين طريق تنفيذه خصوصاً الاديان الثلاثة الموسوية والمسيحية والاسلامية وسيأتي تفصيل عصبياتها وكيفية نفوذها في العالم في ادوارها الاولي

وقد وجد في الاديان الآلهية والانسانية رجال يحابون الملوك والامراء واناس يحافظون على الاصل المتعبد به من غير تغيير ولا تحريف ولا زيادة ولا نقص ولا تأويل يغاير حقائقه المقررة عند متقدمي علمائهم ومحققيهم · فمن القسم الاول رجال من قبضة الازمة الدينية داروا مع الملوك والامراء حيثما داروا تحليلاً وتحريماً بشبهات عقلية او قضايا قياسية او تاويل بعيد او برجوع الى اقوال ضعيفة تنفيذاً لآراء الملوك والامراء في الامم المحكومين فان رجال الدين في كل امة قابضون على الارواح والملوك قابضون على الاشباح فهولاء يحكمون بالصحة والفساد واولئك ينفذون والامم في ايديهم آلات يديرونها كيف شاؤا والسوط بداية التأديب والسيف غاية التهذيب ولا مجال لأمناء الاديان في هذه الميادين لاشتغالهم بالمحافظة على الاصول وهم في خلواتهم بين المتمسكين بعقائدهم · ومن هذا القسم الدائر مع الملوك والامراء حيثما داروا بعض المؤرخين من الموسويين والمسيحيين والمسلمين ممن خدموا

الملوك واختصوا بمجالسهم فانك ترى الرجل منهم اذا رأى من يوافق ملكه في دينه ويخالفه في مذهب من مذاهب فروعه قد علم باحكام تغاير مذهبه فاستفزته حمية الانتصار الى الحق او امامه الآخذ بمذهبه بالنصوص القوية الصحيحة برزله هذا الجليس وطعن في مذهبه وخطاءه وصوب ما عليه الملك واتباعه محتجاً بمسائل ضعيفة يتصيدها من كتب امثاله وانبرى المؤرخ منهم يمدح ويحسن ويذم الغير ويقبح حتى اذا انقضت ادوارهم وهلكت اجسامهم كانت كتبهم اغراس احقاد تتجارى اليها الاتباع متهالكين ويجنون ثمرتها متماوتين فترى رجال كل مذهب متجاذبين اطراف مذاهبهم بزخرف ما صوره المتملقون من هذا القسم فيتشاتمون وهم اهل بيت ويتقاتلون وهم رجال وطن ويتقاطعون وهم ابناء جنس متصل الارحام فاذا نظروا الى المذاهب من حيث تباينها ضحك الموسوي لما يراه في كتب السامري وسخر الكاتوليكي برأي البروتستانتي وحط السني على الخارجي فاذا القى كل منهم ذاك الكتاب وخرج الى المجامع الاختلاطية نسي الالفاظ الصحيحة وحفظ الاغلاط والاوهام وقابل جاره المغاير له او شريكه او ابن جنسه بقلب مظلم وصدر ملتهب بالاحقاد والضغائن ينافقه بالسلام ويوافقه بالمصافحة ويحييه بثغر يبتسم ابتسام الورد فوق الغصن الشائك خصوصاً ما يقع بين المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين فانهم لولا ضرورة الاختلاط وقوة الدول لا كل بعضهم بعضاً . والحقائق في حد ذاتها لا تلتبس بالاوهام الزائفة ولكن من للامم بالتحقيق والاجتماع على كلمة واحدة هي الحق المبين وهم سكارى بكاس الوعاظ ودردي المتعصبين — ومن القسم الثاني افاضل يحافظون على

الاصول الدينية خالصة من شوائب الافكار والاقوال المتضاربة والشبه الوهمية يقضون حياتهم الطيبة في تدريسها وتعليمها ورد المعارضين لها واذا كتبوا تاريخاً دونوا سير المعاصرين على ما هي عليه وخدموا العالم خدمة انسانية محضة يختفون لهذا العمل المبرور في زوايا بيوتهم يكتبون ويبينون ما يكادان يلتبس بالحقائق من الدعاوي الباطلة واذا تم لاحدهم مؤلف جعله طلسماً لا يهتدي اليه الا بعد وفاته ولا ينشر الا بعد ذهاب معاصريه . وفي حياته يتظاهر بموافقة عامة قومه في اطراء معاصريهم من الرؤساء خوفاً من البطش به او تشديد النكير عليه . دعنا من المحاباة حتى في رجال اوروبا المتظاهرة بالحرية فقد اطلعني احد افاضلهم على مؤلف له غريب يذكر فيه الاصل المسيحي وما دخل فيه ويعلم الله تعالى انه لو اظهره واطلع عليه المسيحيون لأغضب الزائغ قبل المتمسك ولا تمضي الايام حتى يموت ويظهر كتابه في تركته ويتعصب له بعض من هم على شاكلته فينشره سرًّا او جهرًا ليتحصل على الغاية المقصودة منه وهي ايقاع العداوة والشحناء بين قومه بالاختلاف الديني الذي دس لاجله الاكاذيب والمفتريات . فرحم الله تعالى من مضى من رجال الفضل وحفظ من بقي وأيد من يأتي منهم فلولاهم ما عرفنا فضل المتقدمين من اكابر المؤلفين ولا ميزنا رذائل السابقين من رجال البهيميات بل لولاهم لزار الناس قبور الظالمين والزائغين متوسلين بهم الى الله تعالى في قضاء مصالحهم غرورًا بما في التواريخ من المدائح والاوصاف التي لا توجد الا في لفيف الاولياء — والى هنا تعلم انه لم يبق في العالم اديان يتنافس فيها الا ستة ثلاثة ذهبت قوى تحريكها وبقيت قوى تأسيسها في

امم قنعت بالحياة راضية بالخضوع لاية قوّة حكمت ارض بعثها ومقر نشأتها وهي الموسوي والبرهمي والمجوسي وربما كان في طي الاقدار ما يبعث فيها روح الحياة الملكية فتتحرك على المتغلبين عليها وتستقل كما كانت في اول نشأتها فان تربية الامم تحت احضان بعضها تولد هيئة المحاكاة وتبث روح التخلص من ذل التابعية الى عز الاستقلال — ودين تطرفت عصبيته في سكناها وبقيت تحت تحويل الانظار اليها وقد تحولت بالفعل كما قدمنا وهو دين البدة (البوذي) · ودينان حملا سلاح المبارزة والدفاع وتشعبا في جميع الاقطار وهما الاسلامي والمسيحي فهما يتبادلان الحركة والسكون بقوى تبعثها الاعتقادات الدينية مستترة بثوب السياسة الشفاف حاملة كتب العهود الدولية على صدرها واضعة يمناها على جبهة الحدود والتخوم قابضة بيسراها على عضد التجارة والمواصلات شاغلة فكرها باسم راحة دينيها في بلاد مغايره فقد اتخذت اوروبا هذه الملل وسائل للفوز بالاطماع اذا سكنت حركات الدفاع العدواني ومقصداً للاعدام اذا تمكنت الوصلة بين الامم والمحكومون يجنون من تلك الاغراس حنظل المعيشة وعلقم الموت في سبيل حصرت ثمراته في افراد اذا اضرموا نار حرب لاغراضهم الذاتية وقربوا اليها الارواح العزيزة ترحموا على الميت وحبذوا للحي وانه اثمن لا تشرى به قلامة ظفر فضلاً عن حياة ملايين من الاناسي · ولولا اطماع الملوك في ممالك بعضهم لعاش الناس في كل ارض اخوانا فقد مضت ازمان الفتوحات الدينية ورضي كل بما هو عليه من الاعتقاد وهيهات ان سكنت حركة الحروب الاعدامية بعد ان كتب على كل لقمة يتناولها الملوك الدين والسياسة ·

غ

اری الوقت قرب بالنسبة لحضور الوابور وقد حضر لي تلغراف بانتظار بعض الاحباب فاشتغل بكتابة ما دار بيننا اليوم حتى لا تزاحمك المطالب بكثرتها . وقد استأذنت صديقنا صاحب البيت في حضور الست معي لتشاركنا فيما نحن فيه فأذن على شرط ان تأتي في لباس امرأة فلاحة

ش

احسنت في استئذانك وعسى ان ترزق تمام الشفاء وتحضر فاني احب مشاغبتها ومبادلتها البحث ولو انها شديدة الخصام كثيرة الجدال اذا فتحت بابًا ولم يقفل على ما تريد مع حدتها في القول وصعوبتها في المطاعن وطالما ضايقتني في اسكندرية فيما نحن فيه باعتراضات ومطاعن لا يقوى عليها غيرها خصوصًا اذا تكلمت في سياسة الدول واخلاق الامم وتواريخ الملوك شرقيين وغربيين فانها تشتد حنقًا وتمتلئ غيظًا كانها ام العالم اجمع لما عندها من الشفقة والحنو والتألم من التخاذل والاختلاف الحاصلين في العالم والمسئول الله تعالى في رزقها السلامة والعافية

١٢ غ

مالي اراك اليوم متغيرًا كانك تشكو شيأ

ش

الحمد لله على السرَّاء والضرَّاء بعد ذهابك امس اخذت اكتب ما دار بيننا وبينما انا على وشك الفراغ اعترتني حمى خفيفة فاستعملت ماء مغلي الكينا بعد ذهاب الدور وطلبت من اهل البيت عمل جانب من ماء الشعير وقد

علمتهم كيفية عمله فقلت لهم اغلوا الشعير اولاً ثم اريقوا ماءهُ فانه يذهب بما فيه من الزهومة والغضاضة ثم اغلوه ثانية حتى يصير كحب البليلة وصفوه وأتوني بمائه لأشرب منه وفي نصف الليل رأيت الاعراض قد خفَّت فصنعت حمَّاماً قدمياً بالخردل (هو حب النبات الشهير عند الفلاحين بالكَبَر) وقد اصبحت ولله الحمد في حالة احسن من حالة امس فتناولت نصف درهم من مسحوق الراوند وقد عزمت على اخذ مسهل ولكن لما رأيت الدور انقطع بعد المرّة الاولى جزعت نفسي من تناوله فكأن النفس لا تقبل الدواء الا مكرهة بحكم الضرورة · وكيف حال الست لعلها اصبحت معتدلة المزاج

غ

الحمد لله اصبحت بخير وقد ائتنست بضيوفها فتسلت بهم عن مرضها ولا يخفاك ان نصف الامراض اوهام فلما ذهب عنها الفكر في المرض بسامرة الستات اصبحت معتدلة الصحة وهي تسلم عليك كثيراً وتقول عند ما يذهب الضيوف تحضر معي ان شاء الله تعالى · وحيث انك معتل المزاج الآن فأْذن لي بالقيام لادرك الوابور فاني متوجه اليوم الى مصر واحضر غداً هل يلزمك شي

ش

ارجوك ان تتوجه الى صديقي الفاضل الشيخ المعلوم وتسأله عن اهلي وحالتهم وأين يكون شقيقي الآن وماذا يصنع وهل وجد أبي شيئاً من كتبي التي فقدت منه في كفر الزيات وخذ هذا الكيس معك علامة فاني اخذته منه يوم خرجت من مصر للاختفاء وقل له صاحبك بخير

غ

عند ما توجهت اول امس الى مصر سألت عن صاحبك حتى وصلت اليه فبمجرد ما اعطيته الكيس تغير واخذ يتفرس فيّ وكلما اخبرته بمعرفتي بك وصداقتنا وما بيننا من المودة انكرني وانكر معرفتك فلما يئست منه قلت له كيف حال ابيه واخيه ووالدته فقال انا لا اعرفهم وانما سمعت من الناس انهم بخير وانهم كانوا اقاموا مدة ببولاق ثم سافروا الى اسكندرية من قريب اما اخوه فيقال انه لا خدمة له ولما سمعت منه ذلك اطمأن قلبي وودعته وقد جعل الكلام في صورة مسموعه وهو خبر منه في الواقع فالحمد لله على سلامتهم

ش

بشّرك الله تعالى بكل خير فقد ملأتني سروراً بهذه العبارة وصديقنا لكثرة الجواسيس حوله احتاط معكم فلا يؤاخذ بما صنع وانما يعد ذلك من حزمه

١٣ غ

هات اليوم عصبيتي الدينين الموسوي والمسيحي وأخر عصبية الدين الاسلامي حتى تحضر الست فانها قالت انك قادر على سبك مقاصدك في قوالب تعجب الخصم ويراها حججاً قاطعة فهي تحب ان لا تدخل في التمهيد الشرقي الا وهي حاضرة معنا فانها ادرى بطرق محاجتك مني لكثرة ما دار بينكما من المباحث في الايام الخالية

ش

لها الله تعالى من حريصة على افكارها في الشرق واهله · واجابة لمقترحها اذكركم بان بني اسرائيل بانتقالهم من فلسطين الى مصر ايام سيدنا يوسف عليه السلام عظمت منزلتهم فيها وارتفعوا عزًا وثروةً ومجدًا الى حيث صاروا سادات الامة المصرية ووجهاءها وارتفع الكثير منهم الى المناصب العالية والادارات الملكية الجليلة كما هو الشأن في كل طارىء على الامة المصرية في جميع ادوارها العمرانية حيث يتقدم فيها الغريب ويتأخر اهلها الى ان ينفذ الفقر فيهم وبعد انقضاء دور الصديق قضوا سنين في هذه المنعة حتى بدا التخاذل فيهم وكثر التخالف بينهم وبين المصريين فضعفت عصبيتهم وتوزعت اهواءهم في مقاصد الاحزاب وقام الملك وقعد بهم وبالمصريين حتى هاجمهم العمالقة واستولوا على البلاد وتأسست دولة الفراعنة الاخيرة فنزل بنو اسرائيل من اوج المالكية الى حضيض الاستعباد واستعملهم العمالقة والمصريون في صغير الاعمال ودنيء الصنائع تحاملاً عليهم وخوفاً من ظهور دعاة منهم يغالبونهم على ما بأيديهم او يكوّنون احزاباً وعصبيات بدعواتهم فتبددت الوحدة وفترت الهمم وامتلأت القلوب بالخوف ومضت على هذه الحال قرون وهم يقاسون اشد العذاب تحت سلطة الفراعنة وبينماهم في غفلة الضعف ونومة الخوف طلعت عليهم الانوار الموسوية مشرقة من صلب عمران ابن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فلما شب وبلغ مبلغ الرجال اخذ يؤلف العصبية بتذكير مجد الاباء وعز الاجداد وشرف الانساب والتنفير من الذلة والاستضعاف لمن هم تحتهم

قدراً وشرفاً والتبكيت بالخضوع والاستكانة مع الكثرة والقوّة وهم ينظرون الى ما يقول بعين التبصر والاعتبار ويعترضونه بقسوة الحاكم وعداوة الامة وفراغهم من المعدّات والحجر عليهم والتضييق بما يمنع اجتماعهم وتأليف العصبية وهو يحرك دماءهم بتسفيه احلامهم وتقبيح جبنهم ويذكرهم ان القوّة الحاكمة كانت افراداً مثلهم وما مكنها من القوّة والسلطة الا جمع الكلمة وتأسيس العصبية على وحدة قامت عليها دعائم الملك واستمر على تحريضهم وتشجيعهم وهم خائفون من سوء العاقبة حتى كان التظاهر الاول حيث استصرخه احد بني اسرائيل على مصري يضاربه فوكزه سيدنا موسى فقضى عليه ثم شاع الخبر ووصل فرعون وجنوده فحقدوا عليه وعزموا على الانتقام منه خصوصاً وانه تربى في بيت الملك وبين عائلته وقد ظهرت مبادئه وعلمت مساعيه وخيف على الملك من حياة العصبية الاسرائيلية فلما جاء احد اتباعه وقال له ان الملاء يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين فخرج كما قال الله تعالى خائفاً يترقب وهاجر الى وادي الشيخ من ارض سيناء فنزل في بني مدين بن ابراهيم على شعيب بن ميكائيل فاكرم نزله وزوجه باحدى ابنتيه واخذ يقص عليه خبر آبائه واسلافه ويؤيد رأيه في جمع العصبية الاسرائيلية للتخلص من قيد الاستعباد بالتظاهر الادبي او بالقوّة وعنه تلقى سيدنا موسى علوماً كثيرة موروثة للشيخ الكبير عن اخوانه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وما زال عنده يأخذ عنه علوم الانبياء واخبار الدعاة واحوال الامم حتى قضى عشر سنين حسب اتفاقه معه عند العقد على زوجته فلما انتهى الأجل سار باهله الى مصر وفي طريقه اخذ زوجته المخاض وكانت ليلة باردة فمشى

بين الجبال يتحسس خبر قوم حالين هناك لعله يجد عندهم نارًا يدفيء بها زوجته فنادته العناية الآلهية بان هذه الليلة هي ليلة مجدك ورفعة قدرك وكلمه ربه انك بالوادي المقدس طوى وانا اخترتك فاستمع لما يوحى انني انا الله لا إله الا انا فاعبدني واقم الصلاة لذكري · اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك · قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرًا من اهلي هارون اخي اشدد به أزري واشركه في امري كي نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا انك كنت بنا بصيرًا · قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى · اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر او يخشى · فأْتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآيةٍ من ربك والسلام على من اتبع الهدى · فرجع موسى الى اهله وقد نبأه الله تعالى وارسلهُ وشرَّفهُ بالتكليم فسار بهم الى مصر وقد قوى عزمه على جمع العصبية ومقاومة عدوه ان لم يؤمن به ويتبعه فيما جاء به من الدين القويم فلما دخل مصر اجتمع بأخيه هارون وقصَّ عليه خبره وما كان من ارسال الله تعالى لهما وعزمه على التظاهر بالدعوة الى الله تعالى اعتمادًا على تأْييد الله ونصره فذهب الى فرعون وحيدًا وهو بين قومه محاط بجنده نافذ الكلمة قوي السلطان فدعاه الى الله تعالى والايمان به فاخذته عزَّة الملك وابت عليه نفسه الانقياد الى من يراه دونه صورة بل الى من تربى في بيته على نفقته وقال له أَلم نربِّك فينا وليدًا امتنَّ عليه بنعمةٍ تقوم بها ارملة وهو ملك يزعم انه آلهُ المصريين وهذا لا يليق بمقام الملوكية فضلاً عن الربوبية ولكنه اراد ان يموه على قومه ويوهمهم استضعاف سيدنا موسى

واختقاره بالنسبة الى مقام الملوكية ومن كانت هذه صفته لا يكون متبوعاً ٠
ثم كر عليه بقضية أُخرى فقال وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين
بنعمتي يريد قتله المصري الذي قتله عندما استصرخه الاسرائيلي متظلماً من قسوته
التي حملته على الفتك به لولا تداركه سيدنا موسى ولعله كان من شريعة يعقوب
ان المُصر على القتل الذي لا يدفع الا بالموت يقتل فلما رآه سيدنا موسى
مصراً على قتل الاسرائيلي ولا يدفع عنه الا بقتله قتله فهو منفذ حكماً من
احكام الشريعة الاسرائيلية او ان الوكز كان للتأديب لا للقتل وهو الحق ولكن
فرعون عده كافراً نظراً لظاهر الحال وليوقع في قلوب المصريين انه ظالم فاتك
لا يصلح لرعاية امة عظيمة ٠ وهي سياسة عرفها فرعون في المصريين يستميلهم اليه
باوهام وخيالات يصوّرها اليهم في صور الحقائق لعلمه انهم يأخذون كلما خرج
من بين شفتيه على انه حق في ذاته لا يقبل التأويل والنظر اذ قد جرب نفسه
معهم في وقائع كثيرة من مثل هذه الاوهام ووجد نفسه ناجحاً قولاً وعملاً حتى
في دعواه الربوبية فيخشى ان يستميلهم سيدنا موسى بدعوة تقبلها العقول هي
اولى بالتسليم من دعواه الباطلة فموه عليهم القول واظهر عظمته امامهم فقال له
سيدنا موسى فعلتها اذاً وانا من الضالين الغافلين عن احكامك العاملين بشريعة
آبائي او عن ان الوكز يقتل وعند ما بلغك خبر هذه الواقعة رأيتكم تبحثون عني
لتقتلوني ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين ٠
فتعالى عليه سيدنا موسى بمقام الرسالة الذي انطوى فيه الاقرار بان هناك
إلهاً آخر هو الاله الحق المعبود وانك عبد يرسل اليك مثلي ليدعوك الى
ربك ويردك عن غوايتك وضلالك واني وان كنت مستضعفاً كما تزعم

فقد اكرمني ربي وفضلني عليك وعلى غيرك بالرسالة وعلمني من علم اليقين مالا تعلمه وقوي عزيمتي قوة جئتك بها وحيداً وانت في اعلى مقامات سلطانك اسفه رأيك واحلام قومك في ادعائك الربوبية وتصديقهم اياك مع علمهم بانك مصنوع مثلهم تأكل وتشرب وتحدث وتنام وتمرض وينتابك ما ينتاب العبيد ومع علمهم بهذا كله صدقوا دعوتك الباطلة وآمنوا بمقالتك الكاذبة وانقادوا لك انقياد الاعمى لمن أخذ بيده افترى برهاناً على صدق دعواي اكبر من اختراقي صفوف جندك لا احمل الا عصاي وقولي اني رسول الله اليكم وقد غل الله تعالى يدك فلم تصل اليَّ بسوء وعقل لسانك فلا ينطق بحجة . ثم انك مع عظمتك التي تدعيها تنازلت الى مقام انسان حقير وضيع يمنُّ بمعروفه لفقد مروأته وانحطاط همته وقلت ألم نربك فينا وليداً وتلك نعمة تمنها عليَّ ان عبّدت بني اسرائيل واتخذتهم خدماً وصناعاً ونزعت ما بأيديهم من الملك والملك وانزلتهم من صياصي عزهم ومجدهم الى حضيض استعبادك لهم واستخدامهم في المهن الحقيرة وانت تعلم من شرف انسابهم ومجد آبائهم ما لا يعلمه غيرك من هؤلاء الذين استخففت عقولهم فقدتهم اليك بحبال الاوهام وقد نسوا كما نسيت نعم بني اسرائيل واحياء يوسف الصديق لبلادهم وانفسهم بتدبيره وحسن تصرفه واجتهاده في اصلاح البلاد وتوفيره موارد الثروة عليهم ولم تقصر الاحبار والعظماء منا من بعده حيث جروا على نسقه وخدموكم خدمة جد واخلاص فكان عاقبة سعيهم الجميل ان اتخذت ابناءهم عبيداً وجئت الآن تقول ألم نربك فينا وليداً ولم تذكر اننا ربيناكم وليداً وفتى وشيخاً وهرماً فلنا في كل ذي روح منكم نعمة لا تنكر فهل تقوم نعمتك الصغرى القاصرة

على انسان واحد بنعم بني اسرائيل العديدة التي عمت كل مصري او لعل مراد سيدنا موسى انك عبّدت بني اسرائيل اي اتخذتهم عبيداً وهم ملء بيتك وساحتك فهم الذين ربوني فلا منة لك عليّ او انا من بني اسرائيل الذين تعبّدتهم ولا يليق بمن يدعي السيادة ان يمنّ بلقمة خبز على من يزعم انه من عبيده وفي هذا من التبكيت ما لا يخفى . الا ان قول سيدنا موسى وتلك نعمة تمنها عليّ علمنا لزوم شكر المنعم وان كان كافراً كفرعون فان كفره لم يبطل نعمته ولا منته بدليل الآية واذ لم تبطل النعمة لزم الشكر . ويحتمل ان يكون الكلام من طريق الاستفهام اي أَو تلك نعمة تمنها عليّ فيكون انكاراً لما يدعيه من نعمة التربية لان سبب وقوع سيدنا موسى في يده انه كان يجمع ابناء بني اسرائيل ليذبحهم لا ليربيهم وهذا الذي الجأ ام سيدنا موسى لإلقائه في اليم فوقع في يد فرعون صدفة لا انه استحضره من امه ورباه شفقة منه على ان التي ربته هي امه لا فرعون فانه لم يرضع غيرها فلا وجه لامتنانه عليه وبالجملة فان سيدنا موسى تصلب مع فرعون ووقف وقفة من يدعو سلطاناً للتنازل عن ملكه مع انه فرد لا عون له وليس معه قوة جندية تؤيد حجته وتدفع عنه عدوه وما معه الا عناية من ارسله وهو الله القادر القوي . ومع كل ما ابداه فرعون من الإبراق والارعاد والتهديد والتهويل لم يرجع سيدنا موسى عن قوله اني ادعوك الى الله تعالى لتعبده على انك فرد من افراد عبيده وقد تقدم لفرعون انه قال لقومه انا ربكم الأعلى وقال مرة اخرى ما علمت لكم من إله غيري فكيف ينزل عن دعواه بعد استمراره عليها سنين ولذا اخذ يموّه على المصريين بروغانه في

في المجادلة مع سيدنا موسى فانه لما رآه ثابت القلب غير مبال بسطوته وقوّة سلطانه انتقل من مقام الامتنان الى مقام انكار الإله ظاهرا ليدفع عن قومه دواعي العلم بوجود اله غيره فقال لسيدنا موسى · وما رب العالمين · عند ما قال له اني رسول رب العالمين اليكمُ ومن هذا الاستفهام يرى ان فرعون كان من الحلولية القائلين بان الإله يتدرع بجسد انسان معين فيكون له بمنزلة الروح بالنسبة الى كل جسد · او من الفلاسفة فيقول بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار وقد اعتقد انه بالنسبة لاستعباده قومه صار بمنزلة إله لهم · او انه كان دهرياً يقول ان الافلاك واجبة الوجود في ذواتها ومتحركة لذواتها وان حوادث العالم مسببة عن حركاتها ولهذا كان يسمي نفسه الهاً · والا فان العاقل اذا علم انه وجد بعد ان لم يكن موجوداً ثم علم ان كل ما كان كذلك فلا بد له من موجد مؤثر تولد من هذين العلمين علم بافتقاره في تركيب بنيته وحفظ حياته وكونه عاقلاً دراكاً الى مؤثر موجود واذا وصل الى هذا الحد تحقق انه عبد مخلوق وفقير مرزوق · وقد تكلم العلماء في مجادلة فرعون بكلام يحتاجه الانسان فلا بأس من ايراد بعضه خصوصاً ونحن نعلم ان مناظرتنا ستعرض على غيرنا من كبير وصغير سيما وان الكلام في جانب الحق سبحانه وتعالى والنفس ميالة الى كل بحث يختص به تعالى — قالوا ان السؤال بما انما يكون لطلب تعريف حقيقة الشيء وهذا التعريف اما ان يكون بنفس الحقيقة وذلك محال لاننا اذا عرفنا الشيء بنفسه لزم ان يكون معلوماً قبل ان يكون معلوماً وهو محال واما ان يكون بشيء من اجزاء تلك الحقيقة وهذا في حق الله تعالى محال

لان التعريف بالاجزاء لا يكون الا للمركب والله تعالى يستحيل تركيبه لان كل مركب محتاج الى كل جزء من اجزائه وكل جزء منه فهو غيره فكل مركب محتاج الى غيره وكل محتاج الى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فما ليس بممكن يستحيل ان يكون مركباً فواجب الوجود سبحانه وتعالى ليس بمركب واذا لم يكن مركباً استحال تعريفه باجزائه · واما ان يكون بامر خارج عن الحقيقة كما هنا فانه لما استحال تعريف حقيقة الله تعالى بنفس الحقيقة وانتفى عنها التركيب تحققنا انه لا يمكن تعريف ماهيته تعالى الا بلوازمه وآثاره واللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية ولا يصح تعريفها بالخفية بل لا بد من تعريفها بالجلية واجلى آثار الله تعالى هذه العوالم المحسوسة فلذا قال له سيدنا موسى · رب السموات والارض وما بينهما · اذ لا جواب له الا هذا الذي افحمه وكذبه في دعواه فانه اعلمه بهذا الجواب انه مركب محدود يمكن تعريفه باجزائه والاله لا يكون كذلك واخبره ان الإله هو النافذ الامر في السموات والارض وما بينهما وانت قد انحصرت سلطتك في مصر التي هي قطعة صغيرة من الارض وتعلم ان حولك ممالك يحكمها ملوك مثلك وان لا سلطة لك على شيء من السموات وما فيها فالخالق لهذه السموات والارض وما فيهما هو رب العالمين · فان كنتم توقنون بان هذه المحسوسات مستندة الى موجود واجب الوجود غير مركب ولا محصور فاعلموا اني ادعوكم لمعرفة الله تعالى المستحق للعبادة · فلما علم ان سيدنا موسى حجه وقهره ونجاه من طريق لا يمكنه ان يدعيه رجع الى قومه بالخداع والنفاق فقال · ألا تسمعون · ارجع اليهم الكلام

ليستميلهم اليه كأنه يقول تعجبوا من موسى فاني اطلب منه بيان الماهية ونفس الحقيقة وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية والاشكال الذي طواه فرعون في تعجبه بقوله الا تسمعون هو ان سيدنا موسى عرف ماهية الإله بلوازمها وتعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس الماهية لانا اذا قلنا في شي انه الذي يلزمه لازم كذا فهذا المذكور اما ان يكون معرفاً لمجرد كونه امراً ما يلزمه ذلك اللازم او لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزومية والاول محال لان كونه امراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه وتقدم انه محال . والثاني محال ايضاً لان العلم بانه امر ما يلزمه لازم كذا لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لا يمتنع عقلا اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت ان التعريف بالوصف الخارج عن الحقيقة لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فكونه رب السموات والارض ليس بجواب عن قوله ما رب العالمين المقصود به الاستفهام عن نفس حقيقة الإله . على ان هناك من يعتقد ان السموات والارض واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر عنده فالجواب بان رب العالمين هو رب السموات والارض لا يعتقده الا من يعتقد حدوث العوالم العلوية والسفلية . فلما علم سيدنا موسى تمويهه جاءه من طريق آخر فقال . ربكم ورب آبائكم الاولين . فان كلاً منكم يعلم انه وجد بعد عدم وان آباءه واجداده عدموا بعد وجودهم ومن كانت هذه صفته لا يكون واجب الوجود لذاته بل يكون ممكناً وكل ممكن مفتقر الى موجد مؤثر ولا مؤثر الا الله تعالى الذي هو رب العالمين . فكان

هذا الكلام حجراً في فم فرعون ولكنه علم من قومه ضعف الادراك فعاد الى التمويه وقال . ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون . اضافه اليهم تهكماً به وبهم واوهمهم انه يسأله عن الماهية وهو يجيبه بالآثار الخارجة عنها فلما رآه سيدنا موسى قد التزم المكابرة مع انقطاعه عن الدليل قال له . رب المشرق والمغرب وما بينهما . اي ان هذه الحركات الفلكية القاضية بالشروق والغروب وسير الكواكب على نظام بديع تقضي بان هناك محركاً مؤثراً فيها وليس ذلك نفس الافلاك فان الشيء لا يوجد نفسه واذا بطل ذلك علمنا ان ترتيب الشروق والغروب على الحركات الفلكية لا يقدر عليه الا موجده المؤثر فيه وهو الله تعالى ثم لما قال فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون وفحش في القول اغلظ له سيدنا موسى الجواب فقال ان كنتم تعقلون . فان معرفة الاله بآثاره انما هي طريقة العقلاء والبحث عن ماهية لا تصل اليها الظنون والافكار هو عين الجنون فكأنه قال له المجنون انت لا انا فاني ماش على طريقة العقلاء وانت تريد طريق المجانين ولو نظرت الى نفسك لرأيت بدنك مؤلفاً من الطبائع وهي متنافرة متباغضة متباعدة عن بعضها بالطبع فاجتماعها على نظام يحفظها من التنافر والافتراق لا بد وان يكون بقسر قاسر وليس القاسر النفس الانسانية لان تعلق النفس بالبدن انما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الاخلاط . والقاسر للطباع المؤلف لها في الاجتماع سابق على الاجتماع والسابق على حصول هذا الاجتماع مغاير للمتأخر عنه فثبت ان مؤلف هذه الطبائع مغاير لها وهو الله تعالى الذي ادعوك لعبادته واقول لك عنه انه رب العالمين فلو كنتم تعقلون لمشيتم معي في طريق

الاستدلال بالأثر على المؤثر ورجعتم عن الدعاوي الباطلة · فلما عجز فرعون
عن معارضة سيدنا موسى بالدلائل العقلية ورأى انه غلبه وربما تمكن من
استمالة قومه بهذه البراهين القوية قال · لئن اتخذت الهاً غيري لاجعلنك
من المسجونين · وهذا كلام العاجز الضعيف الذي ضاقت عليه طرق
المحاجة الانسانية فضلاً عن التصرفات الالهية فانه بعد ما رآه من تصلب
سيدنا موسى في دعوته وتصديه له بتسفيه رأيه ورده عن دعاويه الكاذبة
والحاحه عليه بالرجوع عما هو فيه والاعتراف بالله رب السموات والارض
رب العالمين يقول له لئن اتخذت الهاً غيري وما قصد بذلك الا نزع ما
ثبت في مخيلة قومه من براهين سيدنا موسى بايهامه انه يخبر عن نفسه بالالهية
في حضرة من يقول بإله غيره ليبقوا على ما عندهم من اعتقاد إلهيته فلما
سمع منه سيدنا موسى هذا الوعيد لم يلتفت اليه ولا اخذته منه رهبة بل
اراد ان يظهر كذبه وجبنه وعجزه عن مقاومة الرسول فضلاً عن الإله
فقال · اوَ لو جئتك بشيء مبين · اي ولو جئتك بشيء مبين تسجنني ·
قال فأت به ان كنت من الصادقين · وهذا من الدلالة على جهل
فرعون وضعف قواه العاقلة فانه بعد تهديده سيدنا موسى بالسجن ان لم
يعبده ما كان ينبغي له ان يتنازل لطلب اشياء يريد الخصم ان يسفه رأيه
بها ويجعلها حجة على بطلان دعواه وعجزه عن ضبط امور نفسه ولكن
نفس الانسان ميالة الى استطلاع الامر الغريب فحكمت عليه الانسانية بظهورها
على لسانه وفي حركاته فطلب ان يظهر سيدنا موسى ما عنده وقوله ان
كنت من الصادقين تعليل يدفع به وهم صدقه من افكار قومه فجعله مقدمة

لتكذيبه عند وضوح برهانه وهذا احتراس غريب من فرعون · فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين · ودلالة هذه الآية على الإله تعالى ان العصا جسم ميت لا حركة فيه وهي مرئية لفرعون بصورتها الشجرية لا عضو لها ولا روح فيها فانقلابها حية تسعى بين القوم هاهنا وهاهنا ليس من فعل سيدنا موسى لانه ممكن لذاته والممكن لا يوجد غيره لافتقاره الى ممكن بل هو من فعل الله تعالى وقد عجز فرعون عن الاتيان بمثل هذه بل عن منع حركة الحية عند انسيابها بين يديه واذا ثبت عجز سيدنا موسى عن هذا الانقلاب وعجز فرعون عن ردها ومنعها ثبت ان المحرك لها بعد قلبه صورتها هو الله تعالى الذي يدعو اليه سيدنا موسى فهذا دليل نظري من جهة عقلي من جهة أخرى · ثم تناول العصا وهي حية تسعى فعادت عصا كما كانت وقد تحير فرعون وذهل من هذه الآية الغريبة ثم اراه سيدنا موسى آية أُخرى حيث اخرج يده التي يعرفها فرعون فاذا هي بيضاء للناظرين لها شعاع كشعاع الشمس ولم يكن بها برص ولا معه طلاء ثم اعادها الى جيبه واخرجها فاذا هي على حالتها الاولى فرأى فرعون قومه قد بهرهم الامر واخذ بعقولهم وظهرت عليهم مخايل التصديق والاعتراف بما جاء به فمال لنزع ذلك من افكارهم بثلاثة امور الاول قوله ان هذا الساحر عليم · اي عليم باساليب السحر متفنن فيه يأتي بكل عجيبة فلا تصدقوه فانه ساحر وهذا الذي اظهره لكم انما هو من ضروب السحر لا من ضروب المعجزة التي يدعيها ليجعلها دليلاً على وجود إله غيري · الثاني قوله يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره · اوهمهم انه يريد ان يتغلب على عقولهم حتى يستميلهم اليه

فاذا صاروا في قبضته طوع امره ابعدهم عن الوظائف والمراتب وفوض امر البلاد الى بني اسرائيل وجعلهم سادتهم فاذا تمكن من ذلك القى النفرة بينكم واستعمل القسوة فيكم حتي تخرجوا من بلادكم الى غيرها وهذا اصعب ما يكون على اهل الوطن فاراد ان يحرك حميتهم بهذا التمويه · الثالث قوله · فماذا تأمرون · استمالهم اليه برد القول اليهم من طريق الشورى فاستعطفهم بتنازله الى حد ان يشاورهم في اهم الامور واوقات الكروب والنوازل · ومن تأمل في هذه العبارة علم حقارة فرعون حيث نزل من مقام دعوى الالهية الى مقام رجل مغلوب مقهور ليس له نصير دفعته الضرورة الى الاستعانة بمن يزعم انهم عبيده المحتاجون اليه المخلوقون بصنعه وليس بعد هذا ذل · وهل يليق بمن يقول لقومه ما علمت لكم من إله غيري ان يرجع اليهم بقوله فماذا تأمرون فانه نزل الى حد التابعية حيث صير نفسه مامورًا وصيرهم آمرين وهذا دليل على انه ذهل وذهبت عنه فطنته ودهاؤه عندما حجه سيدنا موسى ورأى انه قد استمال النفوس بصدق عبارته وحقية ما جاء به حتى ما يمنعهم من تصديقه الا الخوف من بطش فرعون بدليل قوله · أَرْجِهْ واخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم · ولم يقولوا اقتله واخاه واسترح منهما فانهم لما رأوا غرابة ما جاء به سيدنا موسى وبعده عن ضروب السحر التي يعرفونها ورأوا فرعون يريد صرفهم عن تصديقه بقوله ان هذا لساحر عليم فقالوا عندك كل ساحر عليم فاحشرهم اليك ودعهم يناظرونه بسحرهم ليتبين ان كان ساحرًا مثلهم او انه جاء بحق كما يقول فجمع فرعون لمشورتهم وبعث البعوث في جميع البلاد المصرية

يدعون اليه السحرة وكان السحر متسلطناً في ذلك الوقت والسحرة منتشرون في البلاد وقد خرج سيدنا موسى من حضرة فرعون وذهب الى بيته منتظراً يوم الزينة الذي جعل ميقاتاً لاجتماع السحرة واعيان الاهالي ولم يقدر فرعون على حجزه وسجنه كما كان يتهدده بذلك وفي هذا من الدلائل على صدق رسالة سيدنا موسى وتأييده بقوة ربانية وصيانته بحفظ إلهي ما لا يخفى فانه رجل دخل على ملك يزعم انه إله وكذبه في دعواه الإلهية ونسبه الى الجنون واذهل عقله بما ابداه من المعجزات بين يديه في حضرة قومه ثم خرج كأن لم يكن يصنع شيئاً وما تعرض له احد وقد تقوت العصبية الاسرائيلية بهذه المحاجة واجتمع اشرافهم على سيدنا موسى وحثوا الاصاغر على اتباعه والأخذ بما جاء به . ثم اجتمع السحرة والناس في اليوم المعلوم وجرى بينهم وبين سيدنا موسى ما جرى من ابطال سحرهم وظهور معجزته الحقة وفوزه بالغلبة والظفر وانتهى الامر بإيمان السحرة بما جاء به سيدنا موسى عند ما تبين لهم انه الحق اذ هم احق الناس بالتفرقة بين السحر والمعجزة لعلمهم بضروب السحر واشتغالهم به الازمان الطويلة وقد رأوا ان الذي جاء به ليس من قبيل السحر الذي يعرفونه ولذلك وقعوا في الحال ساجدين وقالوا آمنا برب العالمين وقد كانوا القوة الكبرى التي اراد فرعون ان يدفع بها سيدنا موسى ويؤيد بها قوله ان هذا لساحر عليم فلما رأى سعيه خاب وازداد سيدنا موسى قوة وتأييدا بإيمان السحرة المعتبرين عند الناس قال . آمنتم له قبل أن آذن لكم . يوهم انه عبد من عبيده اذا أذن باتباعه اتبعه الناس وانه لا يجوز لاحد ان يتبعه بغير اذنه وفي هذا من الهذيان ما لا يخفى

ولما رأى ان إيمان السحرة يحول افكار قومه الى تصديق سيدنا موسى اخذ يوهم الناس انه ساحر وان ما حصل من إيمان السحرة كان باتفاق معه فقال يخاطب السحرة انه لكبيركم الذي علمكم السحر . اي انكم قادرون على الاتيان بمثل ما جاء به موسى ولكنكم تواطأتم معه لتستميلوا الناس اليكم باعمالكم مع علم فرعون ان سيدنا موسى تربى في بيته بين حاشيته وبطانته ولم يجتمع بالسحرة ثم هاجر وحده وعاد كما هاجر ولم يجتمع باحد منهم على ان طروّ سيدنا موسى على السحرة مما يقضي عليهم بمنافرته و بذل الجهد في الظهور عليه حرصاً على مركزهم بين قومهم فدعواه انه كبيرهم دعوى باطلة ولكنه تعوّد من قومه سماع كل ما قاله من غير بحث فيه ولا نظر . ثم عطف على السحرة مظهراً عظمته وقوة سلطانه ليسترجع من افكار قومه ما ذهبت به هذه الآيات فقال . لاقطعنّ ايديكم وارجلكم من خلاف ولأُصلبنّكم اجمعين . توعدهم باشد العذاب حيث يريد ان يقطع يد الواحد منهم اليمنى ثم رجله اليسرى ثم يده اليسرى ثم رجله اليمنى ثم يصلبه مبالغة في التنكيل والعقاب ولكن السحرة لم يرهبهم توعده ولا اخافهم تهديده بل قالوا . لا ضير انّا الى ربنا منقلبون . اي انّا آمنا بالله لا رغبة في ذات موسى ولا رهبة منك وانما كان ايماننا لله تعالى الذي اظهر هذه الآيات البينات والمعجزات الباهرات على يد هذا الرسول وانك ان قتلتنا كما تقول فلا ضرر علينا فاننا ننتقل من هذه الدار الفانية الى الدار الباقية وفيها نلقى الله تعالى الذي آمنا به وعرفنا انه الإله الحق المستحق للعبادة دون غيره وانك . انما تقضي هذه الحياة الدنيا . التي تعبدت فيها الناس وادعيت الالهية فيها بامهال الله

تعالى لك وارجا لك الى اليوم الآخر . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر . اظهروا ما كان بينهم وبين فرعون من اكراههم على تعلم السحر ليشعبذ بهم بين قومه ويوهمهم انه هو الذي يظهر هذه الآيات على ايديهم فكانوا آلة يجذب بها الافكار اليه فلما ظهر لهم الحق قالوا . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات . ثم لم يعبأوا بوعيده وتهديده لعلمهم انه عبد ضعيف لا يقدر على شيء وغاية ما عنده ان يتصف بصفة صائل يسطو على حياة غيره بقوته . ثم انفض الجمع وقد قويت شوكة سيدنا موسى وعرف الناس عجز فرعون عن مقاومته ورده فاستخف به السحرة وسجدوا لله تعالى بين يديه وقالوا له انك عبد فان . والله خير وابقى . ولم يبالوا به وهو في اقوى ما يكون من سلطانه وكأنَّ الناس كانوا يعلمون كذبه وانه ليس بإله وانما يعبدونه مرغمين وهو كذلك كان يعلم ذلك منهم ولذلك لم يستح من استشارتهم والاستعانة بالسحرة في جموع قومه فانه لا يعقل ان فرعون ملك المصريين وهو مجنون وانما ملكهم وهو في اعلى مراتب التعقل فهو يعلم انه ليس بخالق للسموات والارض ولا لشيء من الكائنات فان اقرب الاشياء اليه ذاته وهو لا يمكنه تغيير ذرة منها ولا استبدال شعرة بغيرها ولعله كان دهرياً كما قدمنا يعتقد ان الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وانه ربي المصريين باحكامه فجاز عنده ان يقول لهم انا ربكم الاعلى اي مربيكم وما علمت لكم من إله غيري اي معبود يستحق ان تعبدوه فان نعمي عليكم تقضي ذلك لا انه إله خالق لهذه الكائنات مدبر لهذه العوالم العظيمة كما يتبادر للذهن عند سماع دعواه الإلهية . ولم يرجع سيدنا

موسى عن دعوته الى الله تعالى خوفاً من فرعون وملائه بل عاد اليه مع اخيه هارون وقالا له · انَّا رسولا ربك · فرأى فرعون انه لو بدأه بالايذاء لنسبه الناس الى السفه والجهل ولذلك استنكف من البطش والعنف ورجع الى المناظرة فقال · فمن ربكما يا موسى · اي انا الذي ربيتك وليداً أفتعرف رباً اي مربيا غيري وقصد هنا الاستفهام عن كيفية الإله بعد ما استفهم عن ماهيته بقوله ما رب العالمين وعجز عن الوصول اليها وعلم انه لا يعرف حقيقة الله الا الله فقال سيدنا موسى · ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى · اي الإله الذي نعبده وندعو اليه وهو الرب الحقيقي هو الذي خلق صور الكائنات ودبر موادها واحسن تركيبها وبعد ابداعه الشيء هداه بابداع القوى المدركة والمحركة كما ترى من نفسك فان الله تعالى سوّى صورتك وركب بدنك من اخلاط العناصر ثم نفخ فيك من روحه اي من الاجسام النورانية اللطيفة الجوهر التي لا تقبل التحال والتبدل ولا التفرق ولا التمزق فانفذها في بدنك نفاذ النار في الفحم والدهن في البزر فتحركت بهدايته لك وما دامت هذه الاجسام الشريفة نافذة في بدنك سارية في اعضائك فانت حي فاذا فرغ اجلك تولدت في البدن اخلاط غليظة تمنع سريان تلك الاجسام النورانية فيه فانفصلت عن البدن فيعرض لك الموت وكذلك اذا طرأ على البدن طارىء فجائي يمنع سريانها مات البدن عند انتهاء اجله المحدود وانظر الى هذه السموات كيف رفعها وصيرها في هذا الجو العظيم بفعله وتدبيره لا أنها صارت كذلك لاعيانها وذواتها كما تزعم فان الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب

حصول كل جسم في ذلك الحيز . وكذلك الاحياز المعترضة في الخلاء الصرف غير متناهية ولكنها متساوية فلو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصوله في جميع الاحياز ضرورة ان الاحياز باسرها متشابهة وبهذا تعلم ان حصول الاجرام الفلكية في احيازها وجهاتها ليس امراً واجباً لذاته بل لا بد له من مخصص ومرجح ولا مخصص الا الله تعالى الذي خلقها وابدعها . وحكمك حكم هذه الاجرام لانك جسم حاصل في حيز فيمتنع ان يكون حصولك في هذا الحيز لذاتك او لعينك بل ذلك حاصل بتخصيص الله تعالى الذي خلقك وهداك لتناول ضروريات حياتك وكل ما كان جسما يمتنع ان يكون إلهاً . ثم انك ترى ان خلق المعادن والنبات والحيوان انما يكون بواسطة تركيب طبائع هذا العالم البديع وعند تركيبها لا بد وان يحصل من الارض والماء والهواء قدر مخصوص ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص فلو قدّرنا حصول زيادة على ذلك المقدار او نقص فيه لم يتولد معدن ولا نبات ولا حيوان فمخصص هذه المقادير هو الذي اعطى كل شيء خلقه وانت أحد افراد الحيوان المخلوق بهذه الطريقة فانت عبد مفطور لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرّاً . ولا تنكر انك خلقت من نطفة وهذه النطفة ان كانت جسما متشابه الاجزاء لم يكن المقتضى لتولد البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهر النطفة ودم الطمث لان تأثير الطبيعة بالذات والايجاب لا بالتدبير والاختيار . والقوة الطبيعية اذا عملت في مادة متشابهة الاجزاء وجب ان يكون فعلها هو الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة لوجب ان يكون شكلها

الكرة والحاصل خلافه فالفاعل غير الطبيعة وهو الله تعالى . وان كانت النطفة جسماً مركباً من اجزاء مختلفة في الطبيعة والماهية . يجب ان يكون تولد البدن منها بفاعل مختار لان النطفة سريعة الاستحالة فالاجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة فالجزء الذي هو مادة الدماغ لا يمتنع حصوله في اسفل البدن كما لا يمتنع حصول الجزء الذي هو مادة القلب في الرأس فيلزم ان يكون ترتيب الاعضاء على هذا الشكل المعين امرًا دائماً او اكثرياً والحاصل خلافه فالفاعل غير الطبيعة ومع ذلك فان النطفة لو كانت مركبة من اجزاء مختلفة الطبائع فان تحليل تركيبها ينتهي الى اجزاء كل واحد منها في نفسه جزء بسيط فلو كان المدبر لها قوّة طبيعية لكان شكل كل جزء منها هو الكرة فيكون الحيوان كرات مضموم بعضها الى بعض وعلى فرض ثبوت ذلك فكل كرة محتاجة الى مخصص يخصصها بقدرها وحيزها وثبت ان الطبيعة لا تقدر على التخصيص والتعيين فالمخصص لا بد ان يكون مختارًا وهو الله تعالى لا الطبائع ولا تأثير الكواكب والافلاك واذا امتنع ذلك على الطبائع والكواكب مع مشاهدة تأثيرها في الاشياء فلأن يمتنع بالنسبة اليك من باب أولى فالذي اعطى كل شيء خلقه وهداه لما خلق لاجله هو الله تعالى الفاعل المختار . وايضاً فانك جسم وكل جسم متصف بالتركيب والقوّة والهداية وليس هذا الاتصاف واجباً فانا نشاهد الاجسام منفكة عن تراكيبها بعد الموت وهذا دليل على انه جائز والجائز لا بد له من مرجح والترجيح يستدعي قدرة عليه وعلماً بما فيه من المصالح والمفاسد وهذان مستحيلان على الانسان لانه لا يقدر على شيء من

تغيير جسمه بعد تركيبه فعجزه عن انشائه من باب اولى وكما استحال ذلك على الانسان يستحيل ان يكون المرجح جسماً له مؤثرية لان الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص بعضها بالمؤثرية يكون جائزاً فيفتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلا بد من انتهاء سلسلة الاحتياج الى موجود مؤثر ليس بجسم ولا جسماني · وتأثيره لا يكون بالذات لان الموجب لا يميز مِثلاً عن مثل والاجسام مع كونها متساوية في الجسمية فقد اختص بعضها بالصورة الفلكية والبعض بالعنصرية والبعض بالنباتية والبعض بالحيوانية فاختلافها يثبت ان المؤثر فاعل بالاختيار مدبر قادر على كل مقدور عالم بكل معلوم يستند العالم باسره الى خلقه وتدبيره وذلك هو الله تعالى — ثم اراد ان يتم سيدنا موسى برهانه على مخالفة الإله للعالم وخلقه كل شيء فخشي فرعون من ظهور حجته وقوة برهانه الذين يصرفان قومه عن عبادته واتباعه الى الايمان بالله تعالى واتباع رسوله فاعترض الكلام بالسؤال عن القصص والحكايات وقال · فما بال القرون الأُولى · اي ما حالها وكيف كانت فلم يلتفت سيدنا موسى الى مغالطته حتى لا ينقطع طريق الاستدلال على الصانع الحكيم جل شأنه وقال له · علمها عند ربي في كتاب · اي ان احوالها ثابتة في علم الله تعالى ثبوت النقش في الكتاب · لا يضل ربي · اي لا يجهل شيئاً من الاشياء بل هو عالم بكل المعلومات ولا ينسى شيئاً مما علمه فان علمه ابدي لا يتغير ثم كر على الاستدلال بالاثر على المؤثر لزيادة تعجيز فرعون وافحامه وتكذيبه في دعواه بين قومه فقال · الذي جعل لكم الارض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماء · وفرعون يعلم انه عاجز عن هذا كله وهذا الذي اذله

وجبروه حتى استشار قومه فادركهم الوهن والخوار المقليان وقالوا له · اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك · اي اتتركه يتمادى في دعواه التي اخذت بالالباب وقد عظمت شيعته وتقوت عصبيته بحيث يمكنهم ان يثوروا عليك ويفسدوا دينك وملكك ويتركك موسى ولا اصنام التي نصبتها لتقرب الناس اليك فلا تجد من يعبدك فقال لهم ان موسى لا يمكنه ان يخرج من اسرنا واستعبادنا هو وقومه الا بعصبية يتحرك بها ويعتمد عليها وإنا سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم · فاننا ان فعلنا ذلك منعنا العصبية من النمو وكلما مات رجل منهم لا يقوم غيره مقامه لاستئصالنا الابناء وبهذا تنقطع عصبيتهم شيئاً فشيئاً · وإنا فوقهم قاهرون · الآن فهم في قبضتنا وتحت تصرفنا فنضيق عليهم في كل شيء قبل ان يخرجوا علينا · فلما سمع بنو اسرائيل ذلك هالهم الامر وكدرهم فقال لهم سيدنا موسى استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين · امرهم بامرين وبشرهم ببشارتين في عبارة واحدة فالامران في قوله استعينوا بالله واصبروا · والبشارتان في قوله ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين · ومراده ان فرعون عبد ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره فاستعينوا بالله عليه ومن استعان بالله هان عليه وقع البلاء لرضاه بالقضاء والقدر واصبروا على هذا الوعيد والتهديد حتى يمكننا الله من الخروج من ذل العبودية فعاقبة الصبر محمودة ثم اعلموا ان الارض لله الذي خلقها وخلق من عليها لا لفرعون واذا كانت لله فهو يورثها من يشاء من عباده اطمعهم سيدنا

موسى في ميراث الارض لتقوى عزائمهم وتجتمع كلمتهم فإن الانسان المستعبد الذليل اذا قيل لهُ ان فعلت كذا نجوت خاطر بنفسه في فعل ذلك الشيء فما بالك اذا قيل لهُ انك ستَرِث ملك مستعبدك لا شك انهُ يستسهل كل صعب من الوسائل حتى يصل الى هذا المقصود العالي · والعجب ان بني اسرائيل عندما سمعوا ذلك من سيدنا موسى قالوا · أُوذينا من قبل ان تاتينا ومن بعدما جئتنا · فان المنجمين عندما اخبروا فرعون ان مولودا من بني اسرائيل يقتله وينتهي ملكه على يديه اخذ يقتل ابناءنا مدة ثم تحقق ان هذا المولود هو انت وقد جئته الآن تدعوه لعبادة الله تعالى وقومه حذروه منا وخافوا ان نفسد عليهم دينهم فاغروه بنا وها انت تسمع وعيده بذبح ابنائنا فقال سيدنا موسى · عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض · فاطمأنت قلوبهم وسكنت حركة خواطرهم وايد الله تعالى نبيه موسى بالآيات فتوالت على فرعون وقومه ونصر الله رسوله نصرا مبينا ومع ذلك يقول فرعون وقومه · مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين · وذلك لعزة الملك وحب الاستبداد فان النفس ميالة لما يرفعها على الغير وان كان باطلا في الواقع ولا تحب ما ينزل بها من اوج الرفعة ولو كان حقاً في نفس الامر الا من رحم ربك وقليل ما هم · ومع ما صار اليه فرعون من الغيظ والميل الى الظلم والعدوان لم يرجع سيدنا موسى عن دعوته الى الله تعالى لانه مامور بذلك فجاءه وقال له · يا فرعون اني رسول رب العالمين حقيق على ان لا اقول على الله الا الحق · ناداه بلقبه تحقيرا له واستخفافاً به لظهوره عليه في وقائعه معه

فلما رأى فرعون قوة جاش سيدنا موسى وعدم رجوعه عن دعوته ورأى ان تهديده ووعيده لم يوءثر فيه شيئاً وان قومه تعلقوا به واجتمعوا عليه حتى صار لهُ عصبية اسرائيلية عظيمة يمكنه ان يقاوم بها عصبيته المصرية التفت الى قومه وقال · « يا ايها الملاء ما علمت لكم من إلهٍ غيري » · وليس في عبارة الرجل ما يدل على انه يدعي خالق السموات والارض فانهُ لم يقل ليس هناك إلهٌ غيري وانما قال ما علمت. اي لا ارى من يستحق منكم الطاعة والانقياد اليه غيري · ونقدم له انهُ قال فمن ربكما يا موسى فهو يعلم ان هناك رباً غيره وانهُ عبد ولكنه يحتال على الاغرار بدعاوي باطلة حرصاً على ملكه وتأييدًا لدعوته التي ادعاها قبل ظهور سيدنا موسى فقد كان عصره مع قومه كعصر الخشونة والجهالة وعصر سيدنا موسى معه عصر التنوير والارشاد وهذا الذي دعا فرعون للاحتيال على قومه بقضية اخرى تهكمية اذ قال·« فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي اطّلع الى إله موسى » · وهو يعلم ان الانسان لو وقف على اعلى جبل ونظر الى السماء لكان كنظره لها وهو في اخفض بقعة من الارض فلو بنى له ارفع بناء ما رأى شيئاً غير ما يراه وهو في فراشه وانما ساق هذه العبارة تهكماً فان سيدنا موسى لم يقل ان إلهي في السماء حتى يكون قول فرعون حقيقة وانما قال لهُ رب السموات على ان قوله لعلي اطلع يفيد انه لم يكن قاطعاً بان إله موسى في السماء فقد استفهم منهُ عن ماهيته فاقام له الدليل على وجوده بآثاره ولم يذكر له عن حقيقته شيئاً حتى يتوهم انه في السماء

غ ١٤

من عبارتك يفهم ان هامان ما بنى الصرح مع ان بعض المؤلفين منكم يقول ان هامان جمع من البنائين خمسين الفاً ومن الفعلة ما لا يحصون وطبخ الآجر والجص وصنع المسامير وقطع الاخشاب و بنى بناءً ضخماً لم يبنه احد من العالمين وجعله في اعلى ما يكون من الارتفاع ثم جاء فرعون فارتقى فوقه ورمى السماء بنشابة فعادت ملطخة بالدم فقال قتلت إله موسى وان ذلك كان ابتلاءً من الله تعالى لفرعون وقومه فجاء جبريل وضرب هذا البناء فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت منهم الف الف وقطعة وقعت في المغرب وقطعة وقعت في البحر وقد تناقل مؤلفوكم هذه العبارة ودونوها حتى في بعض كتب التفسير وانت تشير لعدم وقوعها فما هي الحقيقة التي يعول عليها علماؤكم في هذه القصة

ش

يا خواجة انك لست من الطائرين حول كتب القصاص ولا من المتهافتين على كتب الحكايات وقد درست كتبنا وعرفت طريقتنا التي نأخذ بها في مثل هذه الحكاية فاننا لا نأخذ بخبر من الاخبار الا اذا استند لاحد الاصلين العظيمين الكتاب والسنة او لاحدهما . اما الكتاب فانه لم ينص على انه بنى او فعل شيئاً من ذلك وانما حكى عبارة فرعون التهكمية الايهامية . والسنة ليس فيها شيء من هذه القصة التي ذكرتها فلم يبق الا انها حكاية قصاص او خبر مؤرخ وكل منهما غير معول عليه عندنا في مثل هذا الموضوع وكونها في كتبنا لا يفيد صحتها فان المؤلف قد ينقل

الشيء بطريق السماع من القصاص او اعتمادًا على نقل غيره ولم يخرج في الطريقين عن حد الحكاية اذ لا يمكنه القطع بشيء لم ينص عليه كتابه ولا اخبر عنه نبيه ولا اجمع عليه اهل ملته · والانسان ببديهة العقل يحكم بعدم صحة هذه القصة فان البنائين الذين بنوا الصرح وقفوا في الموقف الذي ارتقى اليه فرعون ولم يروا ان الأبعاد التي كانت بينهم وبين السماء وهم تحت البناء قد انتهت وانقطعت ولا راوا جرم السماء محسوساً لهم حتى يلزم اعتقادهم وصول فرعون الى إله موسى او الى رؤيته · وفرعون لم يكن من المجانين حتى يعتقد وصوله السماء بمثل هذا البناء والا لما صح ارسال سيدنا موسى اليه فهو عاقل يعلم من بعد السماء وعدم الوصول اليها ما يعلمه كل عاقل ودعوى رمي النشابة وعودتها ملطخة بالدم غير مسلَّمة عقلاً فانه لو حصل ذلك لاخبر القرآن عنه لكونه أهم ما في القصة ولرجع كثير من بني اسرائيل عن متابعة سيدنا موسى ولقويت حجة فرعون ودعواه ولبكّت سيدنا موسى بقتله الهه ولكان لذلك اثر مّا في القصة ومع تعرض القرآن لها في كثير من السور لم نر في سورة منها ما يشير لذلك فلذا رددنا كل هذه المفتريات وقلنا ان فرعون كان دهرياً فقال ما علمت لكم من إله غيري يدرك بالحس فان حركات الافلاك والكواكب وتأثيرها كافٍ في تغيير العوالم واظهار الحوادث · والإله الذي لا يحس لا يُدل عليه بدليل والحس للإله العلوي لا يكون الا بصعود السماء وان كان هذا ممكناً فاجعل لي يا هامان صرحاً · وايضاً ان بناء كهذا الذي يذكرونه ويبالغون فيه لا يتم الا في سنين طويلة ولا يعقل ان سيدنا موسى ترك الدعوة انتظاراً لفراغهم من البناء او ان فرعون سكت عن

سيدنا موسى مع تظاهره بتكذيبه ودعوة الناس الى متابعته ولو حصل شيء من هذا لذكر وعلم على ان المدة التي بين حضور سيدنا موسى من ارض سيناء وبين خروجه ببني اسرائيل من مصر لا تسع بناء هذا الصرح فيها وبالجملة فان جلالة القرآن وعزّة الدين لا يقبلان هذه المفتريات ولعلها من وضع غير المسلمين وسرت اليهم بالدس او بالمخالطة الا ترى قول فرعون بعد ذلك لقومه · « ذروني اقتل موسى وليدْع ربه اني اخاف ان يبدّل دينكم او ان يُظهر في الارض الفساد » · اوهم قومه انه قادر على قتل موسى ولكن هناك من يمنعهُ منهم فقال ذروني اي دعوني وخلوا بيني وبينه مع انه توعدهُ بقتل ابناء بني اسرائيل ولم يفعل وتهدده بالسجن ولم يفعل وما ذلك الا بصرف الله له عن رسوله · وقوله وليَدْعُ ربه تهكم آخر اي انا اقتله ودعوه يدعو ربه ليخلصه مني وهذا ايضاً من تلاعبه بافكار قومه فانه لو كان قادرًا ما استهاج قومه على سيدنا موسى بقوله اني اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الارض اي ارض مصر الفساد فرجل يخاف من رجل وهو تحت قهره وسلطته وقومه في استبعاده رجل ضعيف عالم بما هو عليه من ادعاء ما ليس لهُ باهل فلو كان بنى الصرح ورمى النشابة ولطخت بالدم ما اقر بالخوف وطلب تمكينه من قتل موسى لئلا يفسد على قومه دينهم ودنياهم · وقد سرت دعوة سيدنا موسى فعمت بني اسرائيل قاطبة واخذ بها بعض من قوم فرعون بل من اقاربه وآله فقام رجل منهم وقال · « اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » · وهذا الذي اذهل فرعون واخافه حيث يسمع اقرار آله بحقية ما جاء به خصمه في جموع قومه وانكار إلهيته

بالمرّة والاعتراف بوجود إله آخر . ولما رأى هذا المؤمن ان ذلك ربما اغرى فرعون به اخذ يواربهم في الكلام فقال . « فان يك كاذباً فعليه كذبه وان يكن صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم » . اي يكفيكم ان تعرضوا عنهُ او تردوه عن دعوته وتكفوا الناس عنه وهناك ان يك كاذباً فيكون كذبه عليه لا يضر احداً بعد صرف الناس عنه وان يك صادقاً في دعوته واخباره بان إلهه يهلك من خالفه ويعذب من كفر به يصبكم بعض هذا الوعيد ومراده الكل ولكنه تلطف في العبارة لصرف شرهم عنه ثم قال « . ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » . اوهم انه يدعو على سيدنا موسى وهو في الحقيقة يدعو على فرعون وقومه فان من تامل قوله يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم يتحقق انه كفر بفرعون وآمن بالله موسى واخبر قومه بان لهم رباً غير الذي يزعمون انه ربهم وهو لا يستحيي من قوله انا ربكم الأعلى ومن كانت هذه صفته فهو المسرف على نفسه باتباع الباطل بعد وضوح برهان الحق الكاذب فيما يدعيه من دعوى الإلهية او بطلان دعوة موسى بعد ان جاء بالبينات واظهر الله تعالى على يديه المعجزات الباهرة التي نطق بها القرآن والتوراة مفصلة آية آية . ثم لشدة تمكن الايمان من هذا الرجل حذرهم من بطش الله تعالى فقال . « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » . اي انتم اليوم ملوك مصر وهذا الرجل وقومه في قبضتكم وتحت تصرفكم فان اراد الله تعالى عكس القضية وجعلهم ملوكاً وجعلنا عبيداً فمن ينصرنا من بأس الله ان اراد هلاكنا او اذلالنا لهؤلاء

ويظهر أن هذا المؤمن كان من اوجه آل فرعون فانه بعد تظاهره بهذا الكلام ودعوته الناس لاتباع موسى في حضرة فرعون لم يستطع فرعون رده ولا بالكلام ولا عارضه بحجة يبطل بها اعتقاده بل نزل الى درجة احقر الناس المتفاوضين في امر فقال : « ما أريكم الا ما ارى وما اهديكم الا سبيل الرشاد » . اي ما اشير عليكم برأي احسن من قتل موسى سدا لباب الفتنة وحفظاً للملك من الضياع وما اريد بذلك الا هدايتكم الى سبيل الرشاد في العمل وهذه عبارة رجل مغلوب لا سلطان قاهر . وعند ما قال ذلك خاف المؤمن من آله ان يستحسن الناس قتل موسى فأخذ يدفعهم عن هذا الرأي بقوله . « يا قوم اني اخاف عليكم مثل يوم الأحزاب » . اي انكم تقرؤن في كتبكم اخبار قوم نوح وعاد وهود وما حل بهم عند تكذيبهم رسلهم وهذا رسول مثل رسلهم فاخاف انكم ان اصررتم على تكذيبه او صممتم على قتله ان يستأصلكم الله تعالى كما فعل باولئك الهالكين . ثم جاءهم من طريق آخر فقال . « ويا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم » . اي ان الذي جاء به موسى هو الحق وقد اخبرنا ان هنالك الهاً فاعلاً مختاراً يثيب الطائع ويعذب العاصي يوم يندُّ الناس فراراً من بعضهم وينادي الظالم بالويل والثبور وهو يوم القيامة وقد صدق موسى في خبره فاخشى عليكم من هول هذا اليوم يوم تولون مدبرين تظنون الفرار من الله وانتم انما تفرون من نقمته الى عذابه حيث لا عاصم لكم في ذلك اليوم من امر الله ومن لم يعتبر بذلك فهو في حيرة الضلال . « ومن يضلل الله فما له من هادٍ » . وهذا اعلى مقام في التظاهر

بالحق فانه صار الخصم الألد لقوة ايمانه وقد سرت اليه حمية سيدنا موسى فاخذ يرد على قومه ويسفه عقولهم ويصرّح بضلالهم ويشتمهم غير مبال بجموعهم وقوّة سلطانهم . ثم لما رآهم مصرّين على تكذيب سيدنا موسى جاءهم من طريق آخر يبكّتهم به ويخبرهم ان طريقه هو طريق الانبياء قبله فقال اتنكرون عليه . « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً » . اي انكم تعلمون وجود إله حق خالق لهذه الكائنات وقد اخبركم عنه يوسف الصديق قبل ذلك ودعاكم لعبادته واظهر لكم من الآيات الدالة على صدقه ما لا تنكرونه ومع ذلك كنتم في شك مما جاءكم به وبقيتم على نفاقكم معه مدة حياته حتى اذا انقضى دوره ومات قلتم ما بقي رسول يبعثه الله بعد ذلك وان يبعث احدًا تهكمًا منكم بمقام الرسالة وهذا الذي دعاكم لتكذيب موسى ايضاً وهذا هو ضلال المسرف المرتاب الذي اخذته الحيرة فلم يدر اي الطريقين يسلك طريق ما هو عليه وقد ظهر بطلانه ام طريق الهدى وهو قاض بالانقياد الى الداعي الذي يراه دونه . وكأنه كان طريقاً مسلوكاً لقدماء المصريين من جاءهم بالحق كذبوه فان قهرهم نافقوه ومن جاءهم بالباطل صدقوه واتبعوه بدليل قول هذا المؤمن ولا شيء ادل على ان صاحب الحق يرى في نفسه من القوة والشجاعة ما يتصور به قدرته على رد الامم العظيمة من وقوف هذا المؤمن امام ملكه المتعاظم على ربه كبرًا وامام عظماء مملكته وهو يعلم قوتهم وسطوتهم وغلظتهم التي الجأتهم للهم بقتل رسول عظيم يكذبهم ويردهم عن باطلهم وضلالهم ويبكتهم بسابق قبائحهم وسيء

اعمالهم وينادي عليهم بالويل والثبور وما ينطق واحد منهم بكلمة يدفع بها هذا الذي وقف موقف الرسول يأمرهم وينهاهم · وفي تذكيرهم بشأنهم مع سيدنا يوسف تعريض بان الامر سيصير الى موسى وقومه كما صار الى يوسف بعد ان جاء في صورة عبد ضعيف ونبيء بين ايديهم وانتهى امره بان صار حاكمهم الاكبر ومدبرهم الاعظم فهو يقول ارجعوا عما انتم فيه وادخلوا في دعوة موسى وابقوا في ملككم وسلطانكم فانه ليس مقصودا له قبل ان يحل بكم غضب ربكم فيسلبكم الملك ويجعله في بني اسرائيل وفي هذا من المبالغة في النصيحة ما لا يخفى · والعجب من فرعون كيف تناهي في الدعوة الباطلة ورفع انفه على كل مصري واسرائيلي واخذ يهدد سيدنا موسى بما هو من لوازم الملك وعزة السلطان ثم انحط الى اقل الدرجات وصار بحيث يبكته من هو من قومه وينبهه على خطائه ويخوفه من سوء عاقبة بهتانه وافترائه وهو لا يحرك شفته بكلمة يرد بها على هذا المؤمن او يدفع بها حجته وهذه عاقبة البغي ونتيجة الدعاوى الباطلة حيث يرجع صاحبها الى الذلة والحيرة لضعف برهانه · ولله هذا المؤمن فقد علّم الناس طريق التكلم بالحق بين يدي الملوك في قالب المواربة والشفقة على الملك والاشفاق عليه من تعاظم قوة خصمه وتقويه على نزع الملك منه وهو طريق كله ادب وحكمة فلو تهور في حضرة الملك وواجهه بتسفيه رأيه او تكذيبه في دعواه لفتك به وعاقبه العقاب الشديد ولكنه تلطف واخذ يخاطب القوم الذين منهم الملك ويحذرهم ضياع ملكهم الذي هو سلطان الملك وعرش عزه وسطوته فلو تمعنا هذه العبارة وما تحتها من اساليب السياسة وفنون الآداب العالية لرأينا هذا

المؤمن كالواضع لقانون اداري او وزاري يرشد به ارباب المناصب العالية الى التلطف في مخاطبة الملوك والتحايل على اقامة حجة الحق باحسن صورة . وقد زادت قوّة سيدنا موسى بتعضيد هذا المؤمن الذي هو من وجهاء آل فرعون فاشتد تعلق بني اسرائيل به واتسعت آمالهم في نجاح سيدنا موسى وفوزه بتخلصهم من اسر فرعون وجنوده وتجمعوا حوله بعد ان كانوا يفرون منه خوفاً من اعوان فرعون كما قال تعالى « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم » ان يصرفهم عن دينهم بالتعذيب والتنكيل . ثم انه لما اشتدت عصبية سيدنا موسى امره الله تعالى بالتظاهر الادبي اظهاراً لدينه وعملاً بشعائره فاوحى اليه واخيه « أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » والمراد بالبيوت المساجد او المساكن وجعلها متقابلة لتكون العصبية مجموعة في مكان واحد يدفع بعضهم عن بعض ويسمعون ما تدعو اليه وهم حولك كاهل بيت فاشتد غيظ فرعون من هذا التظاهر والنداء بالالهية لغيره او لغير ما يعبده من الاوثان وعزم على استئصال بني اسرائيل دفعاً لشرهم الذي يذهب بملكه فاوحى الله الى موسى « ان أسر بعبادي انكم متَّبعون » فجمع سيدنا موسى من آمن به وامرهم باخذ اهبة الارتحال عن مصر فتجهز القوم وخرج بهم ليلاً وهم جموع كثيرة فلما احس بهم قوم فرعون واخبروه امتلأ غيظاً وارسل رسله في المدائن يجمعون له جنداً يقاتل به بني اسرائيل ويردهم الى مصر او يستأصلهم قتلا وقال لقومه « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » اي طائفة قليلة ونحن امة عظيمة وقد كانوا عبيداً لنا فخرجوا عن طاعتنا ونادوا بغير ديننا وهم

الآن خارجون من بلادنا « وانهم لنا لغائظون » بهذه الاعمال التي تكسبهم العزة وتوقعنا في الذلة وكيف يفعلون ذلك بمرأى منا « وانا لجميعاً حاذرون » ما كان عهدنا ان نحذر من شيء الا في هذا العصر الذي ظهر فيه موسى وصيرنا نحذره ونحذر غيره او انا حذرون شأننا الحذر والتيقظ للامور والاخذ بالحزم في كل شيء فكيف يفوتنا موسى وقومه ويتخلصون مناومراده ان يبعث الحمية في قومه بهذه المحركات فقد سهل عليهم الامر بقوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون اي لا تخافوا منهم او كيف تتأخرون عن قتالهم وردهم عما هم فيه وهم فئة قليلة بالنسبة اليكم ولا ينبغي ان تجبنوا الى حد ان يخرج عبيدكم او مستعبَدُوكم من بلادكم وانتم تنظرون . ثم زادهم زجراً وحثاً على تتبعهم بقوله وانهم لنا لغائظون بهذا الخروج الذي جمعوا فيه ابناءهم و بناتهم ونساءهم واوانيهم وماشيتهم ومشوا بهذا كله كانهم كانوا في ساحة لا ساكن فيها او في امة لا راعي لها ومن يرضى بهذه الاهانة الكبرى . وبهذه العبارات انبعثت روح الحمية في قومه فتجمعوا أُلوفاً وحملوا السلاح واستعدوا للقتال ورتبوا انفسهم جيوشاً وفصائل وسرايا وخرجوا متأثري بني اسرائيل وقد تركوا بيوتهم وزروعهم كما قال تعالى « فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » اي اخرجهم الله تعالى من بساتينهم الجميلة وعيون مياههم التي بها قوام زروعهم من سواقي وآبار تستعمل ايام انخفاض النيل او هي نفس النيل باعتبار منابعه الاصلية وكنوز اي اموال مجموعة عندهم مكنوزة في بيوتهم او اراضيهم التي هي كنوز الاموال بخصبها وحسن ترتبتها وفيضان نيلها وهو وصف بديع لارض مصر التي ترحل اليها الناس من جميع الاجناس وتجارى

عليها الملوك قديماً وحديثاً طمعاً في هذه الكنوز الدائمة التي لا تفنى مادامت يد الفلاح تعمل فيها ومقام كريم وهو وصف لمصر او لبيوتهم فيها وقد كانت على احسن ما تدعو اليه المدنية اذ ذاك فقد كانت مصر في اعلى طبقات العمران وصنائعها في تقدم لا يجاريها فيه غيرها وكانت مرجعاً للراحلين في طلب الصناعة والتجارة . وهذه الجنود التي سار بها فرعون جمعت صناديد قومه واشراف البلاد ووجهاءها اذ من المعلوم انهُ لا يتخلف عظيم في البلاد بعد ركوب الملك بنفسه وما اخرجهم الله تعالى بهذه الصورة الا ليستأصلهم ويجعل مصر غنيمة لبني اسرائيل بدليل قوله «واورثناها بني اسرائيل» وهو تدبير الهي وصنع حكيم لا تتشوش عليه المطالب ولا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء . فلما تلاحقوا ببني اسرائيل وتراءى الجمعان بحيث صار ينظر بعضهم بعضاً على بعد مد البصر «قال اصحاب موسى انا لمدركون» اي ان فرعون لمدركنا بجنوده ولئن ادركنا يستاصلنا لكثرة جنوده وقلتنا فضلاً عما معنا من النساء والاولاد والماشية التي تدعو بعضنا للمحافظة عليها والدفاع عنها فيكون العدد المقاتل في وجه العدو قليلاً فيحصل الخذلان ونقع في اسوء مما كنا فيه من الاستعباد والاهانة فلما سمع سيدنا موسى عبارتهم «قال كلاَّ» اي انهم لا يدركوننا ولا يتمكنون منا «ان معي ربي» بعلمه وقدرته فهو يدفعهم عنا ويهدينا الطريق الموصل للنجاة فانه هو الذي امرني ان اسرى بكم ووعدني النصر على اعدائنا ووعده حق لا يتخلف فلا تخافوا ولا ترهبوا فاطمأنت قلوبهم وجدوا في السير حتى وصلوا البحر الاحمر فكان كما قال الله تعالى «وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون

وجنوده بغياً وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » فدلت هذه الآية على ان الله تعالى جعل لبني اسرائيل طريقاً في البحر يبساً حتى جاوزوه ثم جاء فرعون وقومه فطمى عليهم الماء فاغرقهم وقد تكلم في هذه المعجزة الكبرى اناس من الطبيعيين وغيرهم ممن لا يؤمنون بالكتب السماوية وانكروا فلق البحر بقدرة الله تعالى وجعلوه من باب المد والجزر الطبيعي المعتاد وهؤلاء لا يؤخذ بقولهم فيما يختص بالايات الدينية والمعجزات النبوية فقد بنوا كل اصولهم على المشاهدات الكونية وعللوها بعلل واسباب محسوسة وانكروا ما وراء الحس . والمؤمنون الآخذون بكتب الأنبياء يعتقدون ان الله تعالى فاعل مختار وانه انشأ هذه الاكوان بقدرته وابرزها على هذه الصور والاجناس والاشكال البديعة على ما علمه واراده واذا كان قادراً على احداث وابداع هذا الصنع الغريب فهو قادر على فلق البحر وانجاء قوم واغراق آخرين . على انه حيث انتهت نسبة خلق السماوات والأرض اليه فالمد والجزر من خلقه وابداعه وتاثير بعض الحوادث فيه خلق له ايضاً فكل ما في الاكوان العلوية والسفلية صنعه المنفعل بفعله ولا غرابة في احداث الله تعالى هذه الآية العظمى عند ضرب سيدنا موسى البحر بعصاه التي لا تؤثر شيئاً في البحر ليظهر الله تعالى لبني اسرائيل كمال قدرته وصدق رسوله فيزداد ايمانهم قوة ويعظم يقينهم بنجاتهم على يد هذا الداعي الى الله تعالى فالفلق حاصل بضرب العصا في مرأى العين وهو حاصل بفعل الله تعالى في الحقيقة

غ ١٥

هذه الآية تدل على ان فرعون مات مؤمناً فانه قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين افتقولون بذلك وان منعتم فما تقولون فيها وقد آمن الرجل ثلاث مرات الاولى قوله آمنت والثانية قوله لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل والثالثة قوله وانا من المسلمين وكل واحدة منها كافية في القول بايمانه

ش

العلماء متفقون على عدم ايمانه وهو انما قال ما قال عند ما ادركه الغرق فهو في وقت العذاب وعند نزول العذاب يصير الحال وقت الالجاء فلا يكون الايمان مقبولاً في هذه الحالة لانه جعله وسيلة لدفع البلية عنه · والايمان اذا لم يكن مقترناً بشهادة ان لا اله الا الله وان النبي الداعي رسول الله لا يكون مقبولاً لان الايمان بالله مع عدم الاقرار بصحة رسوله تكذيب للرسول في دعواه وتكذيب الرسول كفر فهو على كفره لانه ما شهد ان موسى رسول صادق ولا آمن برسالته · ثم انه قال لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وهو دليل على انه لا يعرف الله تعالى وانما سمع من بني اسرائيل ان لهذه الكائنات الهاً خالقاً لها مستحقاً للعبادة فآمن به على جهل وعدم اعتقاد جازم فهو تقليد لا حجة فيه على صحة ايمانه · وقد كان بنو اسرائيل قبل مجيء سيدنا موسى يعتقدون ان الله تعالى جسم او يحل في جسم فآمن بوجود اله مجسم او يحل وينزل في بعض الاجسام وهذا صريح الكفر لا الايمان · ولا ينفعه قوله وانا من المسلمين فانه ما قالها الا في هذه الحالة والله تعالى يقول « وليست

التوبة للذين يعملون السيئآت حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار » فاتفاق جمهور العلماء السابقين واللاحقين على انه مات على كفره وان ايمانه بالاله المجهول عنده او بالالجاء او مع عدم تصديق الرسول او مع اعتقاد جسمية الله تعالى او حلوله لا ينفعه ولا يحكم بصحته وان وجد لبعض الناس قول بصحة ايمانه فانه غير معوّل عليه عند الجمهور وربما كان مدسوساً · وصريح اعتقادنا معاشر المسلمين في قصة سيدنا موسى انها على ما اخبرنا بها القرآن العزيز فلا نقبل خبر غيره ان خالفه في شيء مما نص عليه فيها وهو عندنا تنزيل من حكيم حميد لا يقبل التغيير ولا التبديل ولا المعارضة بالشبه والوضعيات الانسانية ولهذا سقت لك ملخص هذه القصة على ما جاء في اصدق كتاب اخباراً من العالم بحقائق الاشياء على ما هي عليه وهو الله تعالى · واذا طبقت ما في القرآن من هذه القصة على ما في التوراة وجدته واحداً الا في بعض الفاظ نطقت بها التوراة هي من معتقد بني اسرائيل خاصة وها هو نص الاصحاحين الرابع عشر والخامس عشر من سفر الخروج من التوراة المتداولة الآن موجود في مذكرتي فاسمعه بحروفه قال في الاصحاح الرابع عشر

وكلم الرب موسى قائلاً كلم بني اسرائيل ان يرجعوا وينزلوا امام فم الحيروث بين مجدل والبحر امام بعل صفون · مقابله تنزلون عند البحر · فيقول فرعون عن بني اسرائيل هم مرتبكون في الارض قد استغلق عليهم القفر · واشدّد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم فاتمجّد بفرعون وبجميع جيشه ويعرف المصريون اني انا الرب ففعلوا هكذا · فلما أُخبر ملك مصر ان الشعب قد

هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب فقالوا ماذا فعلنا حتى اطلقنا اسرائيل من خدمتنا فشد مركبته واخذ قومه معه واخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنود مركبية على جميعها · وشدّد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني اسرائيل وبنو اسرائيل خارجون بيد رفيعة فسعى المصريون وراءهم وادركوهم · جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث امام بعل صفون · فلما قرب فرعون رفع بنو اسرائيل عيونهم واذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو اسرائيل الى الرب وقالوا لموسى لانه ليست قبور في مصر اخذتنا لنموت في البرية ماذا صنعت بنا حتى اخرجتنا من مصر · اليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين لانه خير لنا ان نخدم المصريين من ان نموت في البرية · فقال موسى للشعب لا تخافوا وقفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم فانه كما رايتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم ايضاً الى الابد · الرب يقاتل عنكم وانتم تصمتون — فقال الرب لموسى مالك تصرخ اليَّ · قل لبني اسرائيل ان يرحلوا وارفع انت عصاك ومدَّ يدك على البحر وشقه فيدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة وها انا اشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم فاتمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه فيعرف المصريون اني انا الرب حين اتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه · فانتقل ملاك الله السائر امام عسكر اسرائيل وسار وراءهم وانتقل عمود السحاب من امامهم ووقف وراءهم فدخل بين عسكر المصريين وعسكر اسرائيل وصار السحاب والظلام واضاء الليل فلم

يقترب هذا الى ذاك كل الليل — ومدّ موسى يده على البحر فاجرى الرب البحر بريح شرقية كل الليل وجعل البحر يابسة وانشقّ الماء فدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه الى وسط البحر · وكان في هزيع الصبح ان الرب اشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وازعج عسكر المصريين وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة فقال المصريون نهرب من اسرائيل لان الرب يقاتل المصريين عنهم — فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند اقبال الصبح الى حاله الدائمة والمصريون هاربون الى لقائه فدفع الرب المصريين في وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم البحر لم يبق منهم ولا واحد · واما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم فخلص الرب في ذلك اليوم اسرائيل من يد المصريين ونظر اسرائيل المصريين امواتاً على شاطىء البحر ورأى اسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى .

ونص الاصحاح الخامس عشر

حينئذٍ رنمّ موسى وبنو اسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا · ارنم للرب فانه قد تعظم · الفرس وراكبه طرحهما في البحر · الرب قوتي ونشيدي وقد صار خلاصي · هذا الهي فامجده اله فارفعهُ · الرب رجل الحرب الرب

اسمه · مركبات فرعون وجيشه القاها في البحر فغرق افضل جنوده المركبة في بحر سوف تغطيهم اللجج قد هبطوا في الاعماق كحجر يمينك يا رب معتزة بالقدرة · يمينك يا رب تحطم العدو وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك · ترسل سخطك فياكلهم كالقش · وبريح انفك تراكمت المياه (هكذا في الاصل ولعل المراد ريح قدرتك وانما نسبت الريح الى الانف لانه آلة الشموخ فشبهوا قدرة الله تعالى بانف الرجل العظيم الذي يرفعهُ تعاظما والا فان الله تعالى منزه عن الجسمية والحواس) انتصبت المجاري كرابية · تجمدت اللجج في قلب البحر · قال العدو اتبع ادرك اقسم غنيمة · تمتلئ منهم نفسي اجرد سيفي تفنيهم يدي · نفخت بريحك فغطاهم البحر · غاصوا كالرصاص في مياه غامرة · من مثلك بين الالهة يا رب (المراد بالآلهة هنا ما سماه الناس آلهة وليسوا آلهة كالاصنام وفرعون فان الله تعالى ليس كمثله شيء لا ان هناك آلهة حقة وليس فيها مثله ما من إلهٍ الا الله) من مثلك معتزاً في القداسة محفوفاً بالتسابيح صانعاً عجائب · تمد يمينك فتبتلعهم الارض · ترشد براُفتك الشعب الذي فديته · تهديه بقوتك الى مسكن قدسك · يسمع الشعوب فيرتعدون · تاخذ الرعدة سكان فلسطين حينئذ يندهش امراء ادوم · اقوياء موآب تاخذهم الرجفة · يذوب جميع سكان كنعان تقع عليهم الهيبة والرعب · بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر (المراد بالذراع القوة والا فان الله تعالى لا اعضاء له اذ الاعضاء من لوازم الاجسام وكل جسم مركب وكل مركب حادث والله تعالى قديم فليس له اعضاء) حتى يعبر شعبك يارب حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته · تجيء بهم وتغرسهم في جبل ميراثك (اي الذي تورثه من تشاء من

عبادك لانه موروث لله تعالى عن غيره) المكان الذي صنعته يا رب لسكنك
(لعل المراد لسكن عبادك او انبيائك والا فإن الله تعالى يستحيل عليه الاستقرار
والسكنى لانه ليس بجسم يتحيز في الامكنة) المقدس الذي هيأته يداك
يارب (لعل المراد باليدين القدرة والارادة اي اردت ان يكون البيت المقدس
في مكان كذا ثم كونته بقدرتك والا فان الجارحة مستحيلة على الله تعالى لانها
من لوازم الاجسام وهي حوادث والله تعالى قديم) الرب يملك الى الدهر
والابد فان خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه الى البحر ورد الرب عليهم
ماء البحر واما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر

فمن نص هذين الاصحاحين ترى توافق التوراة والقرآن في فلق البحر
بضربه بعصا سيدنا موسى فاعتراض الاوروبيين على القرآن بانه اخبر عن
امور لا يقبلها العقل يستدلون بذلك على بطلانه وجعله من تأليف نبينا
سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عين اعتراضهم على التوراة وسيدنا عيسى
اخبر انه جاء ليتم التوراة فهو يعتبرها ويعتمد ما فيها فيكون اعتراضهم على
الاديان الثلاثة لا على الدين الاسلامي وحده فصاروا مارقين من الدين
المسيحي بتكذيبهم ما صدقه رسولهم اومعبودهم ولكنهم يقولون ذلك تأييداً
لدينهم وتزييفاً للاسلام فيكون كلامهم من العبث الذي لا يصدر عن العقلاء .
وما ينكرونهُ على القرآن من اخباره عن آيات سيدنا موسى من ارسال
الجراد والدم والقمل والضفادع وغيرها منصوص في التوراة فيكون هذا
الانكار انكاراً لما جاء فيها فتكون التوراة كاذبة عندهم ورسولهم او معبودهم
شهد بصدقها فيكون انكارهم تكذيباً لسيدنا عيسى واي دين يعتمدون عليه

بعد مروقهم من الاديان الثلاثة المتنافس فيها في الارض اللهم الا ان يكونوا طبيعيين يعللون الحوادث بعلل كونية ولا ينسبون شيئاً منها لله تعالى فيكون كلامهم في دين الاسلام توسلاً للطعن في البقية ولكنهم يستترون بين قومهم بالطعن في دين الغير حفظاً لمركزهم بين الامة التي هم منها والا فهذه نصوص التوراة نوردها في بحثنا هذا للمقابلة بينها وبين ما جاء به القرآن ليقف عليها من لا اطلاع لهم على التوراة ويرويها من يعلم التوراة ويسكت عما فيها . قال في الاصحاح السابع من سفر الخروج

فقال الرب لموسى انظر اني جعلتك الهاً لفرعون وهارون اخوك يكون نبيك (لعل المراد اني جعلتك رسولاً لفرعون لانه جاء ينكر على فرعون كونه الها ويخبره بان الاله هو الذي خلق السموات والارض واعطى كل شيء خلقه فكيف يكون هو الها وهو عبد مصنوع مثله وساقدم لك فصلاً في نفي الالهية عن الجواهر والاعراض بعد الفراغ من عبارة التوارة) انت تتكلم بكل ما آمرك وهارون اخوك يكلم فرعون ليطلق بني اسرائيل من ارضه (هذا معنى قوله تعالى في القرآن حكاية عن موسى « واخي هارون هو افصح مني لسانا فارسله معي رداً يصدقني » والمراد بفصاحة هارون انه كان يعرف لسان المصريين لكثرة مخالطته لهم واما سيدنا موسى فكان يعرف العبراني وقليلاً من المصري لبعده عنهم ونفوره منهم من صغره ولا يلزم من تربيته في بيت فرعون اتقانه لسانه فان تربيته كانت على يد امه وهي عبرانية اللسان) ولكنني اقسي قلب فرعون واكثر آياتي وعجائبي في ارض مصر ولا يسمع لكما فرعون حتى اجعل يدي على مصر (تكلمنا على

معنى اليد فيما تقدم) فاخرج اجنادي شعبي بني اسرائيل من ارض مصر باحكام عظيمة فيعرف المصريون اني انا الرب حينما امد يدي على مصر واخرج بني اسرائيل من بينهم · ففعل موسى وهارون كما امرهما الرب · هكذا فعلاً · وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون · وكلم الرب موسى وهارون قائلاً (اما كلامه لهارون فبطريق الاخبار عن موسى عن الله) اذا كلمكما فرعون قائلاً هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها امام فرعون فتصير ثعباناً (هذا مخالف لنص القرآن فان العصا لموسى والملقي لها هو لا هارون) فدخل موسى وهارون الى فرعون وفعلا هكذا كما امر الرب · طرح هارون عصاه امام فرعون وامام عبيده فصارت ثعباناً (نص التوراة وان خالف نص القرآن في الملقي لم يختلف في اتحاد الآية وهي انقلاب العصا ثعباناً والاعتراض واقع على هذا الانقلاب لا على الاختلاف في الملقي) فدعا فرعون ايضاً الحكماء والسحرة ففعل عرّافو مصر ايضاً بسحرهم كذلك · طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصيُّ ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيّهم فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب · ثم قال الرب لموسى قلب فرعون غليظ قد ابى ان يطلق الشعب اذهب الى فرعون في الصباح انه يخرج الى الماء وقف للقائه على حافة النهر والعصا التي تحوّلت حيّة تأخذها في يدك وتقول له الرب إله العبرانيين ارسلني اليك قائلاً اطلق شعبي ليعبدوني في البرية وهو ذا حتى الآن لم تسمع هكذا يقول الرب بهذا تعرف اني انا الرب · ها انا اضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحول دماً ويموت السمك

الذي في النهر وينتن النهر فيعاف المصريون ان يشربوا ماء من النهر · ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على انهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً فيكون دم في كل ارض مصر في الاخشاب وفي الاحجار ففعل هكذا موسى وهارون كما امر الرب · رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر امام عيني فرعون وامام عيون عبيده فتحول كل الماء الذي في النهر دماً ومات السمك الذي في النهر وانتن النهر فلم يقدر المصريون ان يشربوا ماء من النهر وكان الدم في كل ارض مصر · وفعل عرافوا مصر كذلك بسحرهم · (لم يخبر القرآن ان السحرة اتوا بقلب الماء دماً بل اخبر ان الله ارسل عليهم الدم وما يرسله الله يستحيل ان يأتي به العبد ولكن نص التوراة هكذا) · فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب · ثم انصرف فرعون ودخل بيته ولم يوجه قلبه الى هذا ايضاً وحفر جميع المصريين حوالي النهر لاجل ماء يشربوا لانهم لم يقدروا ان يشربوا من ماء النهر

وقال في الاصحاح الثامن بعده ما نصه — ولما كملت سبعة ايام بعد ما ضرب الرب النهر · قال الرب لموسى ادخل الى فرعون وقل له هكذا يقول الرب اطلق شعبي ليعبدوني وان كنت تأبى ان تطلقهم فها انا اضرب جميع تخومك بالضفادع فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل الى بيتك والى مخدع فراشك وعلى سريرك والى بيوت عبيدك وعلى شعبك والى تنانيرك والى معاجنك · عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع · فقال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الانهار والسواقي والآجام

واصعد الضفادع على ارض مصر وفعل كذلك العرافون بسحرهم واصعدوا الضفادع على ارض مصر (لم ينص القرآن على ان السحرة فعلوا كفعل الله تعالى او كفعل موسى كنص عبارة التوراة اذ لو فعلوا لبطلت حجة موسى في دعواه فان السحر ساوى المعجزة فاية حجة له بعد ذلك وانما المذكور في القرآن انهم صنعوا حبالاً صوروها بصور الحيات وجعلوها تتحرك بالمواد المطلية بها فتلقفتها عصا موسى ثم لم يكن منهم معارضة بعد ذلك في آية من الآيات) فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا الى الرب ليرفع الضفادع عني وعن شعبي فاطلق الشعب ليذبحوا للرب · فقال موسى لفرعون عين لي متى اصلي لاجلك ولاجل عبيدك وشعبك لاقطع الضفادع عنك وعن بيوتك ولكنها تبقى في النهر فقال غداً فقال كقولك لكي تعرف ان ليس مثل الرب الهنا (هذا النص يعين ان ارسال الضفادع عليهم فعل الرب وان فرعون كان متألماً منها ولذا طلب رفعها وقطعها عنه وعن الناس فكيف يقال ان السحرة فعلت ذلك ايضاً ولعلهم صوروا اشياء كالضفادع لا حقائق لها) فترتفع الضفادع عنك وعن بيوتك وعبيدك وشعبك ولكنها تبقى في النهر · ثم خرج موسى وهارون من لدن فرعون وصرخ موسى الى من اجل الضفادع التي جعلها على الرب فرعون ففعل الرب كقول موسى فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها كوماً كثيرة حتى انتنت الارض · فلما رأى فرعون انه قد حصل الفرج اغلظ قلبه ولم يسمع لهما كما تكلم الرب · ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الارض ليصير بعوضا في جميع ارض مصر ففعلا كذلك · مد هارون يده

بعصاه وضرب تراب الارض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم · كل تراب الارض صار بعوضا في جميع ارض مصر وفعل كذلك العرّافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا · وكان البعوض على الناس وعلى البهائم · فقال العرّافون لفرعون هذا اصبع الله (مرادهم فعل الله واستعاروا الاصبع لان الانسان يحرك الشيء الضعيف باصبعه) ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما قال الرب · ثم قال الرب لموسى بكّر في الصباح وقف امام فرعون انه يخرج الى الماء وقل له هكذا يقول الرب اطلق شعبي ليعبدوني فانه ان كنت لا تطلق شعبي ها انا ارسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان فتمتلئ بيوت المصريين ذباناً وايضاً الارض التي هم عليها · ولكن اميز في ذلك اليوم ارض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لا يكون هناك ذبان لكي تعلم اني انا الرب في الارض (لعل المراد اني انا الرب الفعّال في الارض كما اني فعّال في السماء لا انك انت رب الارض وانا رب السماء) واجعل فرقاً بين شعبي وشعبك · غدًا تكون هذه الآية ففعل الرب هكذا فدخلت ذبانٌ كثيرة الى بيت فرعون وبيوت عبيده وفي كل ارض مصر خربت الارض من الذبان · فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لالهكم في هذه الارض · فقال موسى لا يصلح ان نفعل هكذا لاننا انما نذبح رجس المصريين امام عيونهم افلا يرجموننا · نذهب سفر ثلاثة ايام في البرية ونذبح للرب الهنا كما يقول لنا · فقال فرعون انا اطلقكم لتذبحوا للرب الهكم في البرية ولكن لا تذهبوا بعيدًا · صلّيا لاجلي · ها انا اخرج من لدنك واصلي الى الرب فترتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه غدًا · ولكن

لا يعد فرعون يخاتل حتى لا يطلق الشعب ليذبح للرب . فخرج موسى من لدن فرعون وصلى الى الرب ففعل الرب كقول موسى فارتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه . لم تبق واحدة ولكن اغاظ فرعون قلبه هذه المرة ايضاً فلم يطلق الشعب (ومقابل هذا الاصحاح وما بعده مما ذكر فيه معاهدة فرعون ونكثه قول الله تعالى في القرآن العزيز « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون » ولكن لم يذكر القرآن معجزة الذبان وانما ذكر لسيدنا موسى ست عشرة معجزة وهي قلب العصا حية . وتلقفها ما صنعه السحرة . وخروج يده بيضاء والطوفان . والجراد . والقمل . والضفادع . والدم . وفلق البحر . ونبع الماء من الحجر . واظلال الجبل . واخذ آل فرعون بالسنين . ونقص الثمرات . وحل عقدة لسانه . والطمس على اموال قوم فرعون . وانزال المن والسلوى . ولم يذكر الذبان فالتوراة منفردة بزيادته »

الاصحاح التاسع

ثم قال الرب لموسى ادخل الى فرعون وقل له هكذا يقول الرب اله العبرانيين اطلق شعبي ليعبدوني فانه ان كنت تأبى ان تطلقهم وكنت تمسكهم بعد فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباءً ثقيلاً جداً . ويميز الرب بين مواشي اسرائيل ومواشي المصريين فلا يموت من كل ما لبني اسرائيل شيء . وعين الرب وقتاً قائلاً غداً يفعل الرب هذا الامر في الارض . ففعل

الرب هذا الامر في الغد فماتت جميع مواشي المصريين واما مواشي بني اسرائيل فلم يمت منها واحد . وارسل فرعون واذا مواشي اسرائيل لم يمت منها ولا واحد ولكن غلظ قلب فرعون فلم يطلق الشعب . ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء ايديكما من رماد الاتون وليذره موسى نحو السماء امام عين فرعون ليصير غبارا على كل ارض مصر فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل ارض مصر فاخذا رماد الاتون ووقفا امام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثورا طالعة في الناس وفي البهائم . ولم يستطع العرافون ان يقفوا امام موسى من اجل الدمامل لان الدمامل كانت في العرافين وفي كل المصريين . ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى (لم يذكر القرآن موت المواشية ولا الدمامل ولعل الأولى مندرجة تحت قوله تعالى « ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين » والا فان التوراة تعد معجزات لم يتعرض لها القرآن كما يعلم من مقابلة ماسردناه من معجزات القرآن على معجزات التوراة) ثم قال الرب لموسى بكر في الصباح وقف امام فرعون وقل له هكذا يقول الرب اله العبرانيين اطلق شعبي ليعبدوني لاني هذه المرة ارسل جميع ضرباتي الى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكي تعرف ان ليس مثلي في كل الارض (لعل المراد انه ليس لله تعالى جنس فيكون له مثل وقوله في الارض اي في كل ارض ادعى فيها احد عبيدي الالهية او دعاه الغير بها وخص الارض بالذكر لانها اقرب لنظر فرعون وتعقله من غيرها . والا فان الله تعالى لامثل له ولا يتحيز في ارض او سماء) فانه الآن لو كنت امد يدي واضربك وشعبك

بالوباء لكنت تباد من الارض (اي لو شئت ابادتك فان الجارحة محالة على الله تعالى) ولكن لاجل هذا اقمتك لكي اريك قوتي ولكي يخبر باسمي في كل الارض · انت معاند بعد لشعبي حتى لا تطلقه · ها انا غدا مثل الآن امطر بردًا عظيماً جدا لم يكن مثله في مصر منذ يوم تأسيسها الى الآن · فالآن ارسل احم مواشيك وكل مالك في الحقل · جميع الناس والبهائم الذين يوجدون في الحقل ولا يجمعون الى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون · فالذي خاف كلمة الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده ومواشيه الى البيوت واما الذي لم يوجه قلبه الى كلمة الرب فترك عبيده ومواشيه في الحقل · ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون بَرَدًا في كل ارض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في ارض مصر فمد موسى عصاه نحو السماء فاعطى الرب رعودا وبردا وجرت نار على الارض وامطر الرب بردا على ارض مصر فكان برد ونار متواصلة في وسط البَرَد · شيء عظيم جدا لم يكن مثله في كل ارض مصر منذ صارت امة فضرب البرد في كل ارض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل الا ارض جاسان حيث كان بنو اسرائيل فلم يكن فيها برد · فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما اخطأت هذه المرة · الرب هو البارُّ وانا وشعبي الاشرار صليا الى الرب وكفى حدوث رعود الله والبرد فاطلقكم ولا تعودوا تلبثون · فقال له موسى عند خروجي من المدينة ابسط يدي الى الرب فتنقطع الرعود ولا يكون البرد ايضا لكي تعرف ان للرب الارض واما انت وعبيدك فانا اعلم انكم لم تخشوا بعد من الرب الاله · فالكتان والشعير ضربا

لان الشعير كان مسبلا والكتان مبزرا · واما الحنطة والقطاني فلم تضرب لانها كانت متاخرة (القطاني هي الحبوب التي تطبخ مثل العدس والحمص والفول) فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه الى الرب فانقطعت الرعود والبرد ولم ينصب المطر على الارض · ولكن فرعون لما رأى ان المطر والبرد والرعود انقطعت عاد يخطيء واغلظ قلبه هو وعبيده فاشتد قلب فرعون فلم يطلق بني اسرائيل كما تكلم الرب عن يد موسى

(الاصحاح العاشر)

ثم قال الرب لموسى ادخل الى فرعون فاني اغلظت قلبه وقلوب عبيده لكي اصنع آياتي هذه بينهم ولكي تخبر في مسامع ابنك وابن ابنك بما فعلت في مصر وبآياتي التي صنعتها بينهم فتعلمون اني انا الرب (ان كان لموسى ابن ابن فهو صريح التوراة والا فيكون المراد ابن ابن الجيل الحاضر معه على التأويل) فدخل موسى وهارون الى فرعون وقالا له هكذا يقول الرب اله العبرانيين الى متى تأبى ان تخضع لي اطلق شعبي ليعبدوني فانه ان كنت تأبى ان تطلق شعبي ها انا اجيء غدا بجراد على تخومك (اي ابعث جرادا) فيغطي وجه الارض حتى لا يستطاع نظر الارض ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البَرَد ويأكل جميع الشجر النابت لكم من الحقل ويملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين · الامر الذي لم يره اباؤك ولا آباء آبائك منذ يوم وجدوا على الارض الى هذا اليوم ثم تحوّل وخرج من لدن فرعون · فقال عبيد فرعون الى متى يكون هذا لنا فخا · اطلق الرجال ليعبدوا الرب الههم الم تعلم بعد ان مصر قد خربت فرد موسى وهارون الى فرعون فقال لهما اذهبوا

اعبدوا الرب الهكم ولكن مَن ومَن هم الذين يذهبون فقال موسى نذهب بفتياننا وشيوخنا نذهب ببنينا و بناتنا بغنمنا و بقرنا لان لنا عيدا للرب (لهذا التاريخ لم تكن فرضت ولا سنت اعياد بني اسرائيل فلعل ذلك كان عيدا من عهد يعقوب) فقال لهما يكون الرب معكم هكذا كما اطلقكم واولادكم انظروا ان قدام وجوهكم شرا · ليس هكذا · اذهبوا انتم الرجال واعبدوا الرب لانكم لهذا طالبون فطردوا من لدن فرعون· ثم قال الرب لموسى مد يدك على ارض مصر لاجل الجراد ليصعد على ارض مصر ويأكل كل عشب الارض كل ماتركه البَرَد فمد موسى عصاه على ارض مصر فجلب الرب على الارض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد فصعد الجراد على كل ارض مصر وحلّ في جميع تخوم مصر · شيء ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك وغطى وجه كل الارض حتى اظلمت الارض واكل جميع عشب الارض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد حتى لم يبق شيء اخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل ارض مصر · فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال اخطاءت الى الرب الهكما واليكما والآن اصفحا عن خطيئتي هذه المرة فقط وصليا الى الرب الهكما ليرفع عني هذا الموت فقط فخرج موسى من لدن فرعون وصلّى الى الرب فرد الرب ريحا غربية شديدة جدا فحملت الجراد وطرحته الى بحر سوف لم تبق جرادة واحدة في كل تخوم مصر ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني اسرائيل · ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على ارض مصر حتى يلمس الظلام (الظلام عرض فكيف يلمس فلعل المراد انه لشدة

ظلمته يكاد ان يكون جرما يلمس او يخيل للناظر انه جرم يلمس) فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل ارض مصر ثلاثة ايام لم يبصر احد اخاه ولا قام احد من مكانه ثلاثة ايام ولكن جميع بني اسرائيل كان لهم نور في مساكنهم · فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرب غير ان غنمكم وبقركم تبقى · اولادكم ايضا تذهب معكم · فقال موسى انت تعطي ايضا في ايدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب الهنا فتذهب مواشينا ايضا معنا لا يبقى ظلف لاننا منها ناخذ لعبادة الرب الهنا ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتي الى هناك (لعل المراد بماذا نعبد الرب على الشريعة الجديدة التي سيشرعها لموسى والا فانهم طلبوا ماشيتهم لتقديم ذبائح العبادة منها فتكون لهم شريعة والا فان الكلام يتناقض) ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يشأ ان يطلقهم وقال له فرعون اذهب عني احترز لا تر وجهي ايضا انك يوم ترى وجهي تموت فقال موسى نعمًا قلت انا لا اعود ارى وجهك ايضا

(الاصحاح الحادي عشر)

ثم قال الرب لموسى ضربة واحدة ايضا اجلب على فرعون وعلى مصر بعد ذلك يطلقكم من هنا وعند مايطلقكم يطردكم طردا من هنا بالتمام · تكلم في مسامع الشعب ان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها امتعة فضة وامتعة ذهب واعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين · وايضا الرجل موسى كان عظيما جدا في ارض مصر في عبيد فرعون وعيون الشعب وقال موسى هكذا يقول الرب اني نحو نصف الليل اخرج في وسط مصر فيموت كل بكر في ارض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه الى بكر

الجارية التي خلف الرحي وكل بكر بهيمة (شبه مجيء امر الله تعالى ونزول قضائه على ابكار المصريين بمجيء الملك لتنفيذ امره في عبيده فقال اخرج في وسط مصر او لعل المراد التجلي على مصر بمظهر اسم المنتقم فيموت كل بكر والا فان الله تعالى منزه عن المجيء والذهاب لان الحركة من لوازم الاجسام والله تعالى ليس بجسم ولا جسماني ولا يتحيز في مكان ولا يحل في ذات فان التحيز والحلول من شؤن الحوادث والله تعالى قديم وبعض فرق اليهود يعتقدون ان هذا المجيء كان حقيقيا ولا يؤوّلون شيئاً مما جاء في التوراة من هذ القبيل مثل ماجاء في الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين اخبارا عن سيدنا ابراهيم وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في الخيمة وقت حر النهار فقوله ظهر له عند بلوطات ممرا يعين بظاهره انه رأى ذاتا منحصرة في مكان وقع عليها بصره وهذا مستحيل على الله تعالى لان البصر لايقع الا على جسم محدود والله تعالى ليس بجسم ولا يحد فلا بد من تأويل ذلك بظهور الملائكة لا الرب بدليل قوله بعد ذلك فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة فهذا يعين انه انما رأى الملائكة لا الله الذي يستحيل عليه الحلول في الامكنة وفي الانسان جل شأنه . ومثل قوله في الاصحاح التاسع عشر فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقا ان الرب في هذا المكان وانا لم اعلم فهذا ينبغي ان يؤوّل ببيت الرب او حرم الرب اي المنسوب اليه المختار عنده لعبادته والا فسيدنا يعقوب رسول يعلم علم اليقين ان الله تعالى ليس من الجواهر التي تتحيز وتحل في الامكنة فلا يجوز ان يقول الرب في هذا المكان وانا لم اعلم — ومثل قوله في الاصحاح الثاني والثلاثين « فبقي يعقوب وحده

وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال اطلقني لانه قد طلع الفجر فقال لا اطلقك ان لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال اخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك « فهذا كله ينبغي ان يحمل على ملك صارع يعقوب لا على ان الله تعالى صارع يعقوب كما سمعته من احد يهود بيت المقدس فان في ذلك من الاهانة والعجز والسخرية مالا يخفى فان الذي صارع يعقوب انسان والله يستحيل عليه ان يحل في انسان لانه لو حل في ذات انسان لجاز ان يحل في كل الذوات ضرورة ان الاجسام متساوية في الماهية ولو حل في ذات على الخصوص لاحتاج الى مخصص غيره يخصصه بها لانه قد انحصر في ذات شأنها العجز والضعف واذا احتاج الى مخصص كان عبدا مخلوقا لا الها فاعلا وبهذا نعلم انه يجب التأويل بالملك فرارا من هذا الفساد . ومثل هذا كثير في التوراة وبعض كلام الانبياء فيجب التنبه لما فيه تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن مماثلته خلقه من اي طريق كان وباي صورة كانت) ويكون صراخ عظيم في كل ارض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله ايضا ولكن جميع بني اسرائيل لا يسنّن كلب لسانه اليهم لا الى الناس ولا الى البهائم لكي تعلموا ان الرب يميز بين المصريين واسرائيل . فينزل اليَّ جميع عبيدك هؤلاء ويسجدون لي قائلين اخرج انت وجميع الشعب الذين في اثرك وبعد ذلك اخرج ثم خرج من لدن فرعون في حمو الغضب . وقال الرب لموسى لا يسمع لكما فرعون لكي تكثر عجائبي في ارض مصر وكان موسى

وهارون يفعلان كل هذه العجائب امام فرعون ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني اسرائيل من ارضه »

فمما تقرر في التوراة المتداولة الآن يعلم ان القرآن لم يأت بشيء غريب ولا امر مفتري كما يزعم المتعصبون لدينهم بغير حق وكما يظن المارقون من الدين بجهلهم حقائق الكتب السماوية ورجوعهم الى المحسوسات وانكار كل مالا تقبله عقولهم من آيات الله تعالى وكان الاولى لمثل هؤلاء ان ينكروا وجودهم فانهم لايعلمون من اصل نشأتهم الا وسائط ارتبط بعضها ببعض في ظاهر الامر بعد حدوثها وهي في حد ذاتها مستغربة يحار العقل في كيفية حدوثها واذا جهلوا حقيقـــة امرهم وهم ينظرون انفسهم فأولى ان يجهلوا حقيقة العجائب الالهية والمعجزات النبوية فان العقول في حجاب المحسوسات والمتصوّرات وما لهم اذا رأوا امرا خارقا للعادة قالوا انه من فلتات الطبيعة ولم يقولوا انه من آيات الله تعالى . و بالجملة فان القرآن العزيز قص هذه القصة بما لم يخالف فيه التوراة الا فيما يختص بتنزيه الحق سبحانه وتعالى وعصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وسنتتبع القصة القرآنية مردفة بالقصة التوراتية للمقابلة والجام الخصماء وان كنا معاشر المسلمين لا نحتاج في تصديق قرآننا لشاهد خارجي لاعتقادنا الجازم انه كلام الله تعالى الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه اوحاه الى نبيه سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما اوحى التوراة الى سيدنا موسى والانجيل الى سيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام ولكن اذا تطابقت الادلة بطلت دعوى اهل الجدل والاهواء . والطعن في القرآن بعد هذا التوافق طعن في نفس التوراة واذا وصل الطعن الى التوراة بطلت الكتب الثلاثة لان

الانجيل جاء مؤيداً لحكم التوراة لا ناقضاً لها واذا بطلت الكتب الثلاثة سألنا المتعصبين على القرآن لاي دين يتعصبون وقد كفروا بما انزل الله تعالى . واننا نسمع كثيراً من اهل هذا العصر يزعمون انهم على فكر حر اي لايدينون بدين ولكننا لا نرى واحداً منهم يتظاهر بنقض اصول دينه الا في مجلس امثاله تحت استار الخفاء فاذا خرج الى المجامع العامة كان كأفراد طائفته قولاً وعملاً . وهؤلاء لهم نزغات يوسوسون بها الى ضعفاء العقول الذين لم يتعلموا العلوم الدينية في الصغر فتراهم يستميلون الجهلاء بترهات واباطيل منها انكارهم فلق البحر لسيدنا موسى وانقلاب العصا حية والمعجزات التي ذكرها القرآن والتوراة ويحتجون بان العقل لا يقبل ذلك او ان ذلك كان لحادث كذا الجوي او علة كذا الطبيعية وهي امور تسلطوا بها على كثير من المسلمين والنصارى واليهود والمسلّم منهم بصحة التوراة لا يمكنه الطعن في القرآن لانه جاء مصدقاً لما بين يديه مقرراً الكثير من احكامها التي لا تخالف النص الموجود بها . وكذلك القائلون بصحة الانجيل لا يمكنهم الطعن في القرآن لانه اخبر عن سيدنا عيسى وكيفية تخليقه والمعجزات التي ظهرت على يديه . فتوافق القرآن مع الكتب السماوية فيما اشتملت عليه وما دعت اليه وهو البرهان على صحته ومخالفته لبعض احكام تلك الكتب لايطعن في صحته فانه يوجد في التوراة احكام لا توجد في الانجيل و يوجد في الانجيل مالايوجد في التوراة فاذا عللنا الطعن بالاختلاف تطرق اليهما ايضاً فتعود المسئلة الاولى وهي ابطال الكتب الثلاثة . ولنرجع الى قصة سيدنا موسى بعد غرق فرعون وقومه . قال في الاصحاح الخامس عشر من سفر الخروج مانصه . ثم ارتحل

موسى باسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية شور فساروا ثلاثة ايام في البرية ولم يجدوا ماء فجاءوا الى مارة ولم يقدروا ان يشربوا ماء من مارة لانه مر لذلك سمي اسمها مارة فتذمر الشعب على موسى قائلين ما ذا نشرب فصرخ الى الرب فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً هناك وضع له فريضة وحكما وهناك امتحنه فقال ان كنت تسمع لصوت الرب الملك وتصنع الحق في عينيه وتصغي الى وصاياه وتحفظ جميع فرائضه فمرضاً ما مما وضعته على المصريين لا اضع عليك فاني انا الرب شافيك · ثم جاؤا الى ايليم وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة فنزلوا هناك عند الماء (الذي في القرآن ان القوم عند ما طلبوا الماء استقى موسى فأوحى الله تعالى اليه ان « اضرب بعصاك الحجر (فضربه) فانفجرت منه اثنتي عشرة عيناً » فكان ذلك من المعجزات التي اظهرها الله تعالى على يد سيدنا موسى وهو الاليق بالمقام والتوراة تنص على ان الماء كان موجوداً وهم وردوه)

(الاصحاح السادس عشر)

ثم ارتحلوا من ايليم وأتي كل جماعة بني اسرائيل الي برية سين التي بين ايليم وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من ارض مصر · فتذمر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو اسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في ارض مصر اذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع فانكما اخرجتمانا لهذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع · فقال الرب لموسى ها انا امطر لكم خبزاً من السماء فيخرج الشعب ويلتقطون حاجة اليوم بيومها لكي امتحنهم أيسلكون في ناموسي ام لا · ويكون

في اليوم السادس انهم يهيئون ما يجيئون به فيكون ضعف ما يلتقطونه يوماً فيوماً ٠ فقال موسى وهارون لجميع بني اسرائيل في المساء تعلمون ان الرب اخرجكم من ارض مصر وفي الصباح ترون مجد الرب لاستماعه تذمركم على الرب واما نحن فماذا حتى تتذمروا علينا ٠ وقال موسى ٠ ذلك بان الرب يعطيكم في المساء لحما لتا كلوا وفي الصباح خبزًا لتشبعوا لاستماع الرب تذمركم الذي تتذمرون عليه واما نحن فماذا ٠ ليس علينا تذمركم بل على الرب (المقصود من قول موسى وهارون تبكيت بني اسرائيل بان الحاصل منهم كأنه اعتراض على الله تعالى في فعله لا ان ذلك على سبيل التبري منها والا كان ذلك اشد من تذمر بني اسرائيل وهذا لا يصدر من الرسل عليهم الصلاة والسلام فلزم التأويل بما ذكرنا) وقال موسى لهارون قل لكل جماعة بني اسرائيل اقتربوا الى امام الرب لانه قد سمع تذمركم فحدث اذ كان هارون يكلم كل جماعة بني اسرائيل انهم التفتوا نحو البرّية واذا مجد الرب قد ظهر في السحاب (اي ملكه لان الله تعالى لا يتحيز) فكلم الرب موسى قائلاً سمعت تذمر بني اسرائيل كلهم قائلاً في العشية تاكلون لحما وفي الصباح تشبعون خبزًا وتعلمون اني انا الرب الهكم فكان في المساء ان السلوى صعدت وغطت المحلة وفي الصباح كان سقيط الندى حوالي المحلة ولما ارتفع سقيط الندى اذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيقٌ كالجليد على الارض فلما رأى بنو اسرائيل قال بعضهم لبعض مَن هو لانهم لم يعرفوا ما هو فقال لهم موسى هو الخبز الذي اعطاكم الرب لتا كلوا هذا هو الشيء الذي امر به الرب التقطوا منه كل واحد على حسب اكله عمرا للرأس على عدد نفوسكم تأخذون كل واحد

للذين في خيمته ففعل بنو اسرائيل هكذا والتقطوا بين مكثر ومقال ولما كالوا بالعمر لم يفضل المكثر والمقال لم ينقص كانوا قد التقطوا كل واحد على حسب اكله وقال لهم موسى لا يُبق احد منه الى الصباح لكنهم لم يسمعوا لموسى بل ابقى منه اناس الى الصباح فتولد فيه دود وانتن فسخط عليهم موسى وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب اكله واذا حميت الشمس كان يذوب (وافقت التوراة القرآن في الاخبار عن نزول المن والسلوى على بني اسرائيل وفي النهي عن ادخار شيء منها قال تعالى « يابني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) ثم كان في اليوم السادس انهم التقطوا خبزاً مضاعفاً عمرين للواحد فجاء كل رؤساء الجماعه واخبروا موسى فقال لهم هذا ما قال الرب . غداً عطلة سبت مقدس للرب اخبزوا ما تخبزون واطبخوا ما تطبخون وكل ما فضل ضعوه عندكم ليحفظ الى الغد فوضعوه الى الغد كما امر موسى فلم ينتن ولا صار فيه دود فقال موسى كلوه اليوم لان للرب اليوم سبتاً اليوم لا تجدونه في الحقل . ستة ايام تلتقطونه واما اليوم السابع ففيه سبت لا يوجد فيه وحدث في اليوم السابع ان بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا فلم يجدوا فقال الرب لموسى الى متي تأبون ان تحفظوا وصاياي وشرائعي انظروا ان الرب اعطاكم السبت لذلك هو يعطيكم في اليوم السادس خبز يومين اجلسوا كل واحد في مكانه لا يخرج احد من مكانه في اليوم السابع فاستراح الشعب في اليوم السابع ودعا بيت اسرائيل اسمه مناً وهو كبزر الكزبرة ابيض وطعمه

كرنات بسمل وقال موسى هذا هو الشيء الذي امر به الرب ملء العمر منه يكون للحفظ في اجيالكم لكي يروا الخبز الذي اطعمتكم في البرية حين اخرجتكم من ارض مصر وقال موسى لهارون خذ قسطاً واحداً واجعل فيه ملء العمر مناً وضعه امام الرب للحفظ في اجيالكم . كما امر الرب موسى وضعه هارون امام الشهادة للحفظ واكل بنو اسرائيل المن اربعين سنة حتى جاؤوا الى ارض عامرة اكلوا المنّ حتى جاؤوا الى طرف ارض كنعان واما العمر فهو عشر الايفة (هذا نص التوراة في سبب التيه واما السبب الذي ذكره القرآن فهو عصيانهم امر موسى في حرب اريحا لدخولهم الارض المقدسة ونصه « ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى ان فيها قوماً جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون » اراد بالارض المقدسة فلسطين ودمشق او اريحاء وكان وقوفهم امام اريحاء على الشاطيء الجنوبي من نهر الاردن (الشريعة) الفاصل بينها وبين ارض الكرك والبلقاء ومعنى كتب الله لكم امركم بدخولها او التي وعد اباكم ابراهيم ان يسكن ذريته فيها وقد اختار سيدنا موسى اثني عشر رجلاً كل رجل من سبط وبعثهم ليخبروا حال اريحا ويكتشفوا امرها وبعد عودتهم امر بني اسرائيل بالقيام اليها لمحاربتها فقالوا ان فيها قوماً جبارين شداداً اقوياء لا نقوى على حربهم ولا نقدر عليهم وبلدهم حصين جداً فانه مبني على جبل مرتفع يتعذر ارتقاؤه فان يخرجوا منها فانا داخلون قالوا ذلك على سبيل الاستبعاد اي انهم لا يخرجون منها ابداً فنحن غير داخليها وما يقال هنا في الجبارين من انهم طوال جداً وان الرجل منهم يأخذ العشرة من بني اسرائيل

بيده وان رجلاً اخذ النقباء الذين بعثهم سيدنا موسى لا كتشاف البلد فوضعهم في حزمة حطبه وجاء بهم امرأته الى آخر تلك القصص فمن خرافات القصاص وحشوهم الاكاذيب في عباراتهم

فلما اظهروا الخوف والجبن «قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون» وهذان هما اللذان كتما امر الجبارين عن بني اسرائيل ولم يخبراهم بقوة حصونهم كما اخبر بقية النقباء وهما يوشع وكالب وهما من الذين يخافون الله تعالى وقد انعم عليهم بالهداية فاشارا على بني اسرائيل باقتحام عقبات المشقة والهجوم على باب المدينة والتقوّي عليه بكثرتهم ليفتحوه ويدخلوا فانهم ان دخلوه فقد غلبوا الجبارين واستولوا على مملكتهم وتوصلوا من نحو اريحاء الى القدس الذي هو اشرف الارض المقدسة فما كان منهم الا ان «قالوا ياموسى انا لن ندخلها ابداً ماداموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون» وهذا منتهى الجبن وكفران النعم فانهم يعلمون انهم كانوا مستعبدين للمصريين وكان فرعون يستعملهم في شاق الاعمال والمهن الحقيرة فجاءهم موسى بدعوة حق وألف بين قلوبهم وجمعهم على كلمة واحدة حتى وجدت فيهم عصبية بها تمكنوا من الخروج من مصر ثم ادركهم العدو وبلغ منهم الخوف مبلغاً عظيما فنجاهم الله تعالى من عدوهم على يد رسولهم ثم فلق لهم البحر وانجاهم منه واغرق عدوهم وقومه وهم ينظرون ثم رأوا من المعجزات بعد ذلك ما يبهرهم وكل ذلك كان بدعاء نبيهم او بطلبهم منه فيظهره الله تعالى اظهارا لصدقه وتأييداً لدعوته والآن يقولون له اذهب انت وربك فقاتلا ان هذا لهو الجبن الغريب ولو انصفوا

سيدنا موسى لتفانوا بين يديه خصوصاً وهو يدعوهم لسكنى ارض مقدسة كانت مسكناً لآبائهم ويحثهم على فتح مدينة يكون لهم فيها خير كثير . ومع مبالغة سيدنا موسى في تعريفهم صفة الحق سبحانه وتعالى فانهم عادوا لما يعتقدونه من قبل من جسمية الاله فوصفوه بالذهاب والمجيء جهلا منهم او عناداً او لعلهم قالوا ذلك تهكما به اي ان كنت تعتقد ان لك الهاً ينصرك على من نقاتلهم فاذهب انت وهو لقتال هؤلاء الجبارين فلما رأى سيدنا موسى تصلبهم في الاباء وجبنهم عن القتال « قال رب اني لا املك الا نفسي واخي » اي ان القوم عصوني وابوا ان يقدموا على ما وعدتنا بالوصول اليه فلا املك الا نفسي ولا املك احداً غيري الا اخي الذي لشدة طاعته لي كانه مملوك واما بقية القوم فقد عصوني ولا وثوق لي بيوشع وكالب مع تظاهرهما بالطاعة « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » بحكمك فينا وفيهم وهل مع اباءهم هذا الاباء يدخلون الارض المقدسة « قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض » اي انها محرمة عليهم تحريم تعبد فلا يجوز لهم الرجوع الى اوطانهم حتى تنتهي هذه المدة وهذا عقاب لما حصل منهم من التأخير عن قتال العدو لدخولهم اوطانهم فانهم اذا كانوا يرون الارض المقدسة امامهم وما بينهم الا نهر صغير جدًا ثم انهم لا يدخلونها و يتركون في مفازة لا نبات فيها كان ذلك من اشد انواع العذاب وسهل الله تعالى الامر على موسى وهارون فلم يشعرا بما هم فيه كما لم يشعر سيدنا ابراهيم بحرارة نار النمرود وهو فيها . ولما رأى سيدنا موسى ان الامر قد نفذ وان دعاءه استجيب في قومه حزن عليهم لعلمه مقدار ما يقاسونه مدة الاربعين

سنة في قطعة ارض صغيرة فسلاّه الله تعالى بقوله « فلا تأس على القوم الفاسقين » اي لا تحزن عليهم فانهم فسقوا بعصيانهم امرك وهذه الآية تدل على انهم ما كفروا بعد ايمانهم بموسى بل فسقوا بعصيانهم فقولهم اذهب انت وربك محمول على التهكم · واختلف الناس في موت موسى وهارون ان كان في التية او في غيره اما هارون فكاد يقع اتفاقهم على موته في ارض التيه وهو الحق واما موسى فوقع الخلاف فيه فقال قوم مات في التيه ايضاً وقال آخرون انه عبر نهر الاردن بعد ذلك ومات ودفن بغرر اريحا وقد اشتهر ذلك بين المسلمين و بني على قبره قبة عظيمة ومسجد جليل بينه و بين اريحا نحو ستة اميال ولكن اليهود لا تعترف بهذا بل تقول انه مات قبل ان يعبروا الاردن والسامرة يقولون انه رفع الى السماء وحجة اليهود قول التوراة في آخر الاصحاح الثالث من سفر التثنية حكاية عن موسى « وتضرعت الى الرب في ذلك الوقت قائلاً ياسيدي الرب انت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك و يدك الشديدة (اي قدرتك) فانه اي اله في السماء وعلى الارض يعمل كاعمالك وكجبروتك دعني اعبر وارى الارض الجيدة التي في عبر الاردن هذا الجبل الجيد ولبنان لكن الرب غضب عليّ بسببكم ولم يسمع لي (اي لم يستجب لي) بل قال لي الرب كفاك لا تعد تكلمني ايضاً في هذا الامر اصعد الى رأس الفسجة وارفع عينيك الى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك لكن لا تعبر هذا الاردن واما يوشع فاوصه وشدده وشجعه لانه يعبر امام هذا الشعب وهو يقسم لهم الارض التي تراها فمكثنا في الجواء مقابل بيت فغور » فهذا نص على ان سيدنا موسى لا يدخل الارض

المقدسة ولا يمتنع ان يكون منعه من الدخول مدة التيه لا بعده فان التوراة تقول ان يوشع يقسم الارض المقدسة لهذا الشعب مع انها في الاصحاح الاول من التثنية نصت على عدم دخولهم فيها اذ قالت « وسمع الرب صوت كلامكم فسخط واقسم قائلا لن يرى انسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الارض الجيدة التي اقسمت ان اعطيها لآبائكم ماعدا كالب بن يفنه هو يراها وله اعطي الارض التي وطئها ولبنيه لانه قد اتبع الرب تماما » ثم قالت على لسان موسى « وعليّ ايضا غضب الرب بسببكم قائلا وانت ايضا لا تدخل الى هناك » فلعل المراد بالدخول دخول السكنى والاستقرار لا دخول العبور فان بين الاردن وقبر موسى نحو ثمانية اميال وقد وافقت التوراة القرآن فنصت قصة التيه كما نصها بلا خلاف يعتبر اذ قالت « في الاصحاح الاول من سفر التثنية ثم ارتحلنا من حوريب وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف الذي رأيتم في طريق جبل الاموريين كما امرنا الرب الهنا وجئنا الى قادش برنيع فقلت لكم قد جئتم الى جبل الاموريين الذي اعطانا الرب الهنا انظر قد جعل الرب الهك الارض امامك اصعد تملك كما كلمك الرب اله آبائك لا تخف ولا ترتعب فتقدمتم اليّ جميعكم وقلتم دعنا نرسل رجالا قدامنا يتجسسوا لنا الارض ويردوا الينا خبرا عن الطريق التي نصعد فيها والمدن التي نأتي اليها فحسن الكلام لديّ فاخذت منكم اثنى عشر رجلا . رجلا واحدا من كل سبط فانصرفوا وصعدوا الى الجبل واتوا الى وادي اشكول وتجسسوه واخذوا في ايديهم من اثمار الارض ونزلوا به الينا وردوا لنا خبرا وقالوا جيدة هي الارض التي اعطانا الرب الهنا لكنكم لم تشاؤا ان تصعدوا وعصيتم قول الرب الهكم

وتذمرتم في خيامكم وقلتم الرب بسبب بغضته لنا قد اخرجنا من ارض مصر ليدفعنا الى ايدي الاموريين لكي يهلكنا الى اين نحن صاعدون قد اذاب اخوتنا قلوبنا قائلين . شعب اعظم واطول منا . مدن عظيمة محصنة الى السماء وايضا قد رأينا بني عناق هناك فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا منهم . الرب الهكم السائر امامكم هو يحارب عنكم (اي السائر امامكم ملكه) حسب كل ما فعل معكم في مصر امام اعينكم وفي البرية حيث رايت كيف حملك الرب الهك كما يحمل الانسان ابنه في كل الطريق التي سلكتموها حتى جئتم الى هذا المكان (اي انه رحيم به رحمة الاب لابنه فهو كناية عن شدة عنايته بهم اذ ذاك) ولكن في هذا الامر لستم واثقين بالرب الهكم السائر امامكم في الطريق ليلتمس لكم مكانا لنزولكم في نار ليلا ليريكم الطريق التي تسيرون فيها وفي سحاب نهارا ان لم نحمل السائر على الملك كان الامر مشكلا اذ يصير الرب جاهلا بارضه فلا يعرف الجهات التي تناسب عبيده الا اذا مشي في الارض وتخير لهم مكانا وفي هذا من السخف وتجهيل الاله العليم ما لا يخفى فلذا حملنا كلما جاء من هذا القبيل على الملك لاستحالة ذلك على الإله (المخالف للحوادث المنزه عن الحركة والسكون والبعد والقرب والذهاب والمجيء والتحيز والحلول جل شأنه وتعالت قدرته)

فمن هذا التقرير نعلم اتفاق القرآن والتوراة على ما جاء في سيرة سيدنا موسى وتاريخه وانه بعد تلقيه التوراة مشتملة على قسمي العبادات والمعاملات قبض بقسم العبادات على زمام الدين و بقسم المعاملات على زمام الملك والسياسة واستوزر اخاه هارون واخذ من الاسباط نوابا يحضرون مجلس حكمه

وتعليمه فصارت حكومته دستورية وبقي الامر على ما قرره حتى توفاه الله
تعالى وقد اوصى الى يوشع بالامر بعده بامر التوراة فقام بالامر احسن قيام
وفتح بلد الجبارين اريحاء وسهل طريق الوصول الى الارض المقدسة الى ان
انقضى دوره وانقسمت العصبية الى قسمين ملكي وديني فصارت السياسة
والملك في سبط يهوذا بن يعقوب والنبوة والدين في سبط لاوى بن يعقوب
واستمروا على ذلك قرونا وهم ينقلبون بين خفض ورفع وقوة وضعف حسب
الطوارىء الزمنية الى ان خرج الملك من سبط يهوذا ودخل في يد طالوت
من سبط بنيامين بانتخاب اشمويل بن بال احد انبيائهم عند قيامهم لمحاربة
العمالقة واسترجاعهم ماغلبوهم عليه من البلاد وما اخذوه من امتعتهم ومن
اسروه من ابنائهم وآبائهم ثم عاد الملك بعده الى داود بن يسي (بيشا) بن
عوبيد (عوفيد) بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب (عمينوذب)
ابن ارام (رم) بن حصرون بن فارص (بارص) بن يهوذا بن يعقوب فجمع
الجنود وحشد الجموع واتم فتح ماجاوره من البلاد الشامية والاطراف العربية
الطورية وفي مدته تأيد ملك بني اسرائيل وقويت شوكتهم بما رتبه من
الجنود وما بثه في التخوم من البعوث والسرايا ثم جاء بعده ولده سليمان فجمع
جموع بني اسرائيل واخذ في مهاجمة التخوم حتى ألحق الشام كله بملكه ثم
هاجم نصيبين واطراف العراق وبلاد العرب وزاد ملك بني اسرائيل بسطة بما
غنمه من هذه البلاد وما فتحه من بلاد سورية التي اغنت بني اسرائيل
بخيراتها واخذ في تشييد قبور آبائه وبناء بيت المقدس فبنى مسجد الخليل في
حبرون فوق المغارة التي دفن الخليل وزوجته واسحق وزوجته ويعقوب

وزوجته وبنى مسجدا صغيرا فوق مغارة يوسف الصديق اللاصقة بمغارة الخليل ولم يزل المسجد على بنائه الى اليوم ثم جمع الالوف المؤلفة لبناء بيت المقدس ٠ وقيل ٠٠ انه لما أمر ببناء بيت المقدس ظن ان الارض المقدسة من اورشليم الى حبرون (هي الخليل الآن) فاخذ يبني مسجدا في ارض حلحول على بعد ستة اميال من حبرون (وهو مدفن يونس ابن متى الآن) فنودي ان ليس هنا يبنى البيت المقدس فعدل عن تلك الجهة واخذ يبني في طورزيتا الكائن في شرق بيت المقدس فنودي ان ليس يبنى هنا البيت المقدس فسأل الله تعالى ان يجعل له علامة يعرف بها مكان ذلك المسجد فأرى نورا على لسان صخرة في ارض اورشليم ونودي ان تلك الصخرة هي وسط المسجد الحرام وكانت الصخرة في انف الجبل وتحته واد منخفض ومن الصخرة الى منتهى المسجد من الشمال نحو ثلثمائة متر كما ذكره صاحب كتاب الأنس الجليل فاستحضر العمال لقطع الاحجار وبنى قناطر على سوار عظيمة من الصخرة الى نحو ثلثمائة متر من جنوبها ورفع تلك العقود حتى قربت من الصخرة ثم بنى مسجده في الجنوب في قطعة جهة الغرب منه وتركت بقية الارض حرما امام المسجد ولكنه سوَّره بسور عظيم وبنى فوق الصخرة قبة ٠ وهذه الصخرة عبارة عن لسان من الجبل يتصل به من جهة الشمال وبينه وبين الجهات الثلاث فراغ وتحت الصخرة مغار صغير فيه كان يتعبد داود ابوه وما قيل في الصخرة غير هذا فمن وضع القصاص فانهم يريدون ان يثبتوا قدرة الله تعالى بارتفاعها وعدم ارتكازها على شيء وفاتهم ان نسبتها الى الارض نسبة العدم الى الوجود ومع ذلك فان الارض موضوعة في فراغ تحيط به السماء ولا شيء ترتكز عليه سوى قوة

التجاذب التي خلقها الله تعالى بينها وبين الكواكب وكذلك الافلاك يحيط بعضها ببعض وتدور في فراغ على غير قطب يحملها فكيف عمي الناس عن هذه الاجرام العظيمة ووضعها على غير مرتكز ورفعها على غير عمد واخذوا ينظرون في قطعة حجر لا تزيد عن خمسة امتار في مثلها وكأنه سهل عليهم فهم وجود كوكب الشمس الهائل في مركزه ودورته العجيبة ودور الكواكب حوله وصعب عليهم فهم التصاق هذا اللسان بجهة وبقائه على تلك الهيئة «ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون

وفي سليمان وابيه داود وابنه رحبعم وابن ابنه آفيا وابنه اسا اجتمعت رياسة النبوة والملك فكان كل منهم قابضا على السياستين النبوية والملكية كما كانت الحال في عهد سيدنا موسى وقد بنى سليمان تلك المباني العظيمة ونقشها بالتماثيل الجميلة واستعمل في ذلك مئات الوف من الناس خصوصا وهو يبني في جبال حجرية يأتيها بالصخور من جهات بعيدة ومقاطع منحطة عن محل البناء مع ضعف آلات القطع وجر الاثقال اذ ذاك فبناؤه يدل على انه استعمل سلطة قوية وبطشا عظيما حتى وقعت سطوته وشدته من الناس الى حيث يحشدون الوفاً من اقطار بعيدة ويشتغلون في اعمال شاقة السنين الطويلة مع كونهم في اراضي جبلية لا خصب فيها ولا ماء الا ما يجمعونه من الامطار مع شدة بردها وكثرة ثلوجها ولا تقوم امة بمثل هذه

الاعمال القاسية الا اذا قيدت بيد السلطة القوية والسطوة النافذة ولذا يعبر المسيحيون والاسرائيليون عن سليمان بالملك لاحكامه السياسة واخضاعه هذه الامم مع كون مدته كانت مدة سلم بخلاف مدة ابيه فانها كانت مدة حروب فحق له ان يقول وهب لي ملكا لاينبغي لاحد من بعدي فانه لم يأت بعده من بني اسرائيل من ضبط الملك مثله ولا من نزل عنه درجة · وقد اشتغل بالالهيات والحكميات وتصدى لتعليمها بنفسه فتتلمذ له خلق كثير ونبغ على يديه حكماء اجلاء وفلاسفة اذكياء ولم يحجر على هذه العلوم بل علمها لمستحقيها وطالبيها من يهود وروم وكنعانيين وغيرهم فانتشر علم الحكمة في الاقطار وتوسع الناس فيه باختلاف الافهام واعتنى به الروم اعتناء فاق اعتناء من سبقهم ومنعوه من السفلة وجعلوه من خصائص البيوت الرفيعة ماعدا فن الطب فانه لشرفه جعلوه من خصائص بيت الملك فلا يعلمونه الا لسلالة الملوك وهذا لشدة حرصهم على اعزاز العلم وتعظيمه · وفي مدة حكم سليمان بلغت مملكة فلسطين غايتها علما ومدنية وقوة وبعد انقضاء دوره عادت الاسباط الى التحزب ودعوى الاختصاص ووقع بينهم التخاذل والتنافر فاختلفت كلمتهم وتوزعت اهواؤهم حول الدعاة والمرشحين للمناصب العالية والمتين بالانساب الشريفة فكان ذلك تمهيدا للكلدانيين الذين كانوا لهم بالمرصاد ينتظرون هذا الاختلاف والاختلال ليحملوا عليهم حملة تبديد وتشريد فلما تمكن التخاذل منهم وانحاز كل فريق الى رئيس معين سهل على الكلدانيين اتلاعهم فهاجموا فلسطين وحملوا عليها حملة قوية ولم يكن هناك قوة مجتمعة ولا عصبية ملتئمة فبددوا تلك المملكة العظيمة وقتلوا الرؤساء والعظماء

وساقوا الابناء والنساء سبيا واستعملوهم في الاعمال الحقيرة وتركوا الارض المقدسة خربة لا ساكن فيها ثم اطلق سراحهم بعد ذلك فعادوا الى الارض المقدسة وقد انقسموا الى ثلاثة اقسام سامرة وهم الذين قالوا لا نعمل الا باسفار موسى الخمسة فان ماعداها من وضع الغير وما هو الا تاريخ من التواريخ لم ينزل الله تعالى منه شيئا على موسى فلا ينبغي ان نتعبد بما هو من قسم التاريخ وقرّايين وموسوية وهذان يقولان باسفار موسى وغيرها ولكنهما اختلفا في التلمود واحكامه ثم ان السامرة قالوا ان بيت المقدس هو جبل نابلس المسمى غيثال وهو الذي افتدى فيه ابراهيم اسحق او اسمعيل وقرب فيه آدم قربانه وهو قبلة كل اسرائيلي واليه حجه وعليه يعمل العيد والقسمان قالا ان بيت المقدس هو ارض اورشليم ونابلس خارجة عن حدوده ومسجد سليمان هو البناء الكائن في غرب جبل الزيتون (طورزيتا) وبهذا الاختلاف وقع القتال بين السامرة وبقية الاقسام واستمر سنين حتى ان الموسوية لم يتمكنوا من بناء سور اورشليم الا باستعمال السلاح دفاعا عن الفعلة والصناع مدة البناء ثم اختص السامرة بسكنى نابلس وجبالها الى سبسطية وفيها كان كرسي ملكهم ولهم حروب متواصلة مع اليهود والفنيقيين ليس هذا محل ذكرها . ثم عادت سطوة الاحبار والانبياء بعد ذلك وكثر الاختلاف والمغالبة على الملك والدين وظهر كثير من المرشحين للملك بعصبيات اسسوها وجموع الفوها فانحلت عرى قواهم التأسيسية والتحريكية واخذ الملك في الانحطاط وامتلأت القلوب بالاحقاد والاضغان وقضوا على ذلك قرونا وهم بين قائم وقاعد وحرب وسلم حتى صارت البيوت والافخاذ في حكم القبائل المستقلة وقد رأى الكلدانيون

وعورة الطريق وجدب تلك الاراضي وصعوبة سكناها فاعرضوا عن محاربتهم والحاقهم بمملكتهم البابلية وتركوهم في هرج ومرج يقطع بعضهم بعضا وبينما هم في هذا التخاذل والتغالب وتوزيع الكلمة والاهواء اشرقت عليهم الانوار العيسوية آتية من بطن مريم ابنة عمران بن ما ثان بن عازار بن ابي بور الى آخر نسب سيدنا عيسى المتصل بداود المنتهي الى يعقوب بن اسحق بن ابراهيم فهو اسرائيلي العصبية من جهة امه

غ ١٦٠

انك ستلخص امر المسيح هنا كما لخصت امر موسى ونحن وانتم على خلاف في شأنه فعلى اي الاعتقادين تمشي ثم لا بد لك من تحقيق شأن مريم على اعتقادكم فاني احب الوقوف على ذلك لاقابل بين ما اسمعه منك وبين ما نسمعه من قسوسنا مما ينسبونه اليكم فان الانسان لا ينبغي له ان يقطع بشيء الا بعد سماعه من اهله فان الناقل قد يحرف الكلم وقد يغير الموضوع لغرض من اغراضه فكثيرا ما سمعت امورا قبيحة عن المسلمين تنفر منها الطباع وعند ما طفت الممالك الاسلامية وخالطت اهلها السنين الطويلة وعاشرت الاعراب الرُحَّل في الاودية لم اجد شيئا مما سمعته وانا في بلادي فعلمت ان ذلك من سياسة الروحانيين ليصرفوا القلوب عن محبتكم ويلقوا العداوة بيننا وبينكم ويقبحوا الينا ما انتم عليه من الاعتقاد خوفا من ميل النفوس اليكم او البحث في دينكم الذي ربما جر الباحث الى الاسلام اذا استحسنه فان الفكر اذا اطلق وازدحمت فيه المعاني وتشعبت امامه الادلة والبراهين ربما عدل عما تربي عليه لانه اخذه باحتكاك افكاره في افكار غيره كما هو شأن العامة الآخذين

دينهم بلا بحث ولا استدلال ولكن هذه التمويهات لا تمنع ارباب الافكار الذين رسخت اقدامهم في الدين ان يبحثوا في دين الغير للوقوف على حقائق الاشياء · ومما دلني على ان الحاصل من القسوس من باب التنفير وجود الملايين الكثيرة من النصارى واليهود في بلاد المسلمين وامتزاجهم بهم في السكنى والاسواق والمعاملات والتسوية بينهم في الاحكام حتى كأن الفارق الديني غير موجود بينهم على انهم ربما فضلوا المسلم الشرقي على المسيحي الغربي للارتباط الحاصل بينهم ولما يعلمونه من سعي اوروبا خلف الثروة لا تبالي افقرت مسلماً او مسيحياً شرقياً وما تتداخل في الشرق بعلة حماية المسيحي الشرقي الا من باب الحيلة والتلطف في الوسائل والا فان المسلم والمسيحي عند الاستيلاء عليهما سواء · وكثيراً ما تذاكرت مع اقباط مصر فيما بينهم وبين المسلمين من الروابط والعلاقات فما سمعت منهم الا مدحاً وثناء وتفضيلاً للمسلم على المسيحي الاوروبي فاذا سألتهم عن العلة قالوا مضت علينا القرون الكثيرة ونحن على احسن ما يكون معهم من المخالطة والمعاملة وقد شاركناهم في معظم اعمال الحكومة وامتلاك الاطيان والعقار ولم يتعد احد علينا حتى انه ربما وجد في البلد واحد منا وقد بعدت عنه امثاله فلا يتعرض له احد بسوء بل ربما كان محترماً اكثر مما يكون بين اخوانه الاقباط فاذا تكلمت معهم عن اوروبا واتحادها معهم في الدين وضرورة الالتجاء اليها نفروا مني وقالوا ان اهالي اوروبا جنس يغايرنا لغة وطبعاً وعادة ولهم شغف بحب الاستبداد على الامم الشرقية وتحويل ثروتهم الى بلادهم فهم يحتقرون كل شرقي ويرونه ملحقاً بالبهيم سواء كان مسلماً او مسيحياً وبهذا نرى ان

وجودنا مع المسلمين وخضوعنا للسلطة الاسلامية احفظ لحقوقنا واموالنا وادعى لراحتنا فاننا قد جربناهم وجربهم آباؤنا واجدادنا فلم نجد الا ليناً وحسن معاشرة وان قيل اننا في بعض الازمان نالنا شيئ من الظلم فان ذلك كان عاما فينا وفي المسلمين من الولاة الظلمة . ولم اجد ميالاً لاوروبا الا افراداً قليلين جداً وكذلك عند ماسأَلت الارمن لم أر منهم الا حبهم للمسلمين ولم اسمع منهم الا الثناء عليهم والحط على بعض رجال منهم استخدمتهم روسيا وانكلترة لبث الفتن وايغار الصدور لمصلحتها الملكية لا للجامعة الدينية وكذلك نصارى الشام الذين لم يدخلوا مدارس الاجانب فانهم على وفاق تام بينهم وبين المسلمين وما يحدث بينهم الشغب والفتن الا اضلاع الدول المتخذون منهم ولو تركوا وشأنهم ما تألم واحد من شيئ لما يراه من التساوي والأمن على النفس والعرض والمال وكذلك كل ارض شرقية فيها مسيحيون فانهم لا يحركهم للفتنة الا دسائسنا معاشر الاوروبيين فلهذا تيقنت ان عبارة القسوس غير صحيحة ولكني احب الوقوف على الاعتقاد الصحيح عندكم فهاته بالايجاز فانه غير اجنبي مما نحن فيه

ش

نحن في هذا الباب لانعتمد على مؤرخ ولا حكاية قاصٍ بل نرجع الى القرآن العزيز فان كل ماتعرض له القرآن من الاخبار والقصص ناخذه بالتسليم والقبول لاعتقادنا الجازم ان القرآن كلام الله تعالى فلا نزيد عليه شيئاً ولا ننقص منه شيئاً وكل قول خالف القرآن لانقبله ولا نعول عليه وبهذا تراني مقيدا لايمكنني ان اجاريك فيما تعتقده نفاقا او تزلفا ولا يمكنني ان

اتقوّل على الله تعالى مالم يقله فاسمع القصة على ماجاء نا بها القرآن ولا تكلفني البحث فيما تخالفني فيه من العقائد والاعتقادات فان كلامنا سيعرض على أناس مختلفي الدين فانا اقول ماعندي وانت تقول ماعنـــدك ولولا الزامك ما فتحت هذا الباب • حاصل قصة مريم وابنها عليه السلام ان الله تعالى يقول لنبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اذكر « اذ قالت امرأة عمران » هي حنة بنت فاقوذ زوجة عمران بن ماثان وكان معاصرا لزكريا بن اذن وزوجه ابنته ايشاع اخت مريم وذلك انها اشتاقت الى الولد فقالت اللهم ان لك عليّ نذرًا ان رزقتني ولدًا ان اتصدق به على بيت المقدس وكان نذر مثل ذلك جائزًا في شرع بني اسرائيل ولا يجوز في شرعنا وسألت الولد لان النساء لا تصلح لخدمة البيت لما يصيبها من الحيض والاذى وما في وجودهن في اماكن العبادة من الفتنة فلما حملت قالت « رب اني نذرت لك مافي بطني محررا » اي اني حررت اليك ما في بطني ذكرًا كان او انثى فانها لا تعلم ما هو فهو خالص لخدمتك ليكون من سدنة بيتك « فتقبل مني » فاني لا اريد الا رضاك « انك انت السميع » لتضرعي ودعائي وندائي « العليم » بما في ضميري وقلبي ونيتي اذ لا يعلم ما في السرائر الا انت وحدك « فلما وضعتها » رأتهـــا انثى وكان نذرهم انما يقع على الذكر « قالت رب اني وضعتها انثى » فاخاف ان لا تقبل في الخدمة وترد عليّ بعد ان نذرتهـــا وهي في بطني ولم تقل ذلك تجهيلاً لله تعالى بل على سبيل الاعتذار بدليل قوله تعالى « والله اعلم بما وضعت » فانه هو الذي كوّنها وخلقها وجعلها انثى فهو اعلم بها قبل ان تخلق « وليس الذكر كالانثى » فان الذكر يستمر على الخدمة لقوته وشدته وصبره على الاعمال

الشاقة ولا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس ولا يتهم بمخالطته الرجال والانثى بخلاف ذلك ولكن الذكر كان مطلوبي وهذه الانثى هي موهوبتك وليس ما اطلبه كالذي تهبه وقبل ولادتها توفى والدها عمران ولذلك سمتها امها وقالت « واني سميتها مريم » لتكون عابدة خادمة لله تعالى « واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » وذلك انها لما لم ترزق ولدًا وجاءتها هذه البنت تضرعت الى الله تعالى في حفظها من الشيطان الرجيم وجعلها من الصالحات القانتات « فتقبلها ربها بقبول حسن » بان عصمها وعصم ولدها من مس الشيطان ونزغه ولما وضعتها لفتها في خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها بين ايدي الرهبان ابناء هارون وقالت لهم خذوا هذه النذيرة فتنافسوا فيها لكونها بنت امامهم عمران وكان بنوماثان رؤس بني اسرائيل واحبارهم فقال لهم زكريا انا احق بها منكم فان عندي خالتها فقالوا لا نسلم فيها حتى نقترع فجاؤا الى نهر فألقوا فيه اقلامهم التي يكتبون بها الوحي واتفقوا على ان من يرتفع قلمه هو كفيلها فرسبت اقلامهم وارتفع قلم زكريا ثم اعادوا الاقتراع مرة ثانية وثالثة وفي كل مرة ترسب اقلامهم ويطفو قلم زكريا فرجعوا عنها « وكفلها زكريا » اي تكفل بها بعد فطامها وجعلها في مكان خاص لتربيتها فيه وعبادتها (كلما دخل عليها زكريا المحراب) وهو المكان المرتفع وكان زكريا قد بنى لها غرفة في المسجد وجعل بابها في وسطه لا يصعد اليه انسان الا بسلم صيانة لها وكان اذا خرج اغلق عليها الابواب (وجد عندها رزقًا) وكان دعا لها قبل ذلك بان يبعث الله لها رزقًا يقوم بها فكان كلما رأى شيئًا عندها سألها و (قال يامريم أنّى لك هذا) اي من اين لك هذا خشية ان يكون جاءها به احد

(قالت هو من عند الله) فعند ذلك يطمئن ويعلم ان ذلك اجابة دعائه الذي دعاه لها وعند ما تمت صفاتها الكمالية (قالت الملائكة) والمراد بالملائكة هنا جبريل وانما جمع تعظيما لشأنه واعظاما للامر القادم به «يامريم ان الله اصطفاك» فاظهر عليك أموراً حسنة خارقة للعادة وقد كفاك امر معيشتك فكانت تأتيك بلا كلفة ولا تعب «وطهرك» فعصمك من المعصية والكفر وحفظك من مسيس الرجال وانت بينهم وحسّن اخلاقك فلم تصدر عنك الافعال الذميمة والعادات القبيحة (واصطفاك على نساء العالمين) المعاصرين لك فلم توجد في عصرك انثى تساويك في ذلك . ولم يلزم من تكليم الملك لها نبوتها عندنا فان النبي لا يكون الا رجلا بدليل قوله تعالى (وما ارسلنا قبلك الا رجالاً نوحي اليهم) وانما نعد ماحصل لها كرامة اكرمها الله تعالى بها كما يكرم احد اوليائه بما يشاء اما كيفية خلق ولدها فقد عرفناه من آيتين قرآنيتين وكل منهما تخبرنا ان الله تعالى قال له كن فكان غاية الامر انه جاء من طريق غير معتاد في التولد ولكن ذلك لا يقدح فيه ولا يقف في فهمه الا غبيّ او معاند . فان الشرعيين لا يكلفون انفسهم بالدليل على مانص عليه الإله الحكيم لاعتقادهم انه قادر على كل الممكنات فيعتقدون ان الله تعالى كما خلق آدم من غير اب ولا ام خلق سيدنا عيسى من ام بلا أب لكونه ممكناً . والفلاسفة قالوا ان بدن الانسان انما استعد لقبول النفس الناطقة التي تدبر بواسطة حصول المزاج المخصوص في ذلك البدن . وذلك المزاج انما جعل لامتزاج العناصر على قدر معين في مدة معينة فحصول اجزاء العناصر على ذلك القدر الذي يناسب البدن غير ممتنع وامتزاجها غير ممتنع فامتزاجها

يكون عند حدوث الكيفية المزاجية واجباً وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجباً فثبت ان حدوث الانسان على سبيل التولد معقول ممكن واذا كان الامر كذلك فحدوث الانسان لا عن الأب اولى بالجواز والإمكان . ثم اننا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد بواسطة التعفين واتفاق النسب ومرور الزمن الكافي لتخلق الحيوانات كما يرى في تخليق الفار والذباب والعقارب وغيرها واذا كان كذلك فتولد الولد لا عن الأب اولى ان لا يكون ممتنعاً . ولهذين الطريقين الشرعي والفلسفي قطعنا بان سيدنا عيسى ولد من امه بلا واسطة اب ونزهنا امه البتول عن كل ما يرميها به الاعداء فان اعتقاد الفحش فيها كفر صريح عندنا لان الله تعالى برأها من كل عيب فقال في الآية الأولى « يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » فاثبت ان البشارة اتت لمريم من الله تعالى على لسان الملائكة بغلام يكون بكلمة الله تعالى وخصه بالكلمة هنا مع ان كل شيء لا يكون الا بكلمة الله كن لانه خلق غريب في مجيئه من غير طريق التولد المعتاد فهو كائن بكلمة مبتدأة من الله تعالى وبهذا نعلم ان من هنا ابتدائية لا تبعيضية ونسبه اليها لتعلم انه عبد كائن بغير اب ولكن له ام تناسبه وتساويه في الماهية واخبر انه يكون وجيها في الدنيا مقبولا عند من يؤمن به في وقته معدوداً من المرسلين الذين هم اوجه وجهاء الخلق ووجيهاً كذلك في الآخرة اذ يأتي مع المرسلين بين يدي الله تعالى مسئولا مثلهم فيكون آمناً كبقية اخوانه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وانه من المقربين عند الله تعالى لكونه ممن اصطفاهم

على العالمين . ولا شك ان البشارة بمثل هذا الكلام سارّة مفرحة ثم زادها تفريحاً بقوله (ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) اخبرها انها ستحمل به ويتهمها بنو اسرائيل بما هي منه بريئة فينطق الله تعالى ولدها اظهاراً لبراءتها وهو في مهد رضاعه ثم اذا كبر وصار شاباً كلم الناس كهلا بما يوحيه اليه رب العالمين وانه من الصالحين الذين لا يقترفون السيئات ولا يميلون الى الشهوات فلما سمعت هذه البشارة من الملك ونظرت الى العادة فوجدت التوالد حاصلا بازدواج الذكر والانثى (قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر) اي انك تعلم اني بكر ما تزوجت ولست بغياً حتى يحصل التلقيح من الرجال فيحصل الحمل فكيف يكون ولد بعد تبتلي وبعدي عن الرجال (قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » اي انت ترين الامر بعيد الحصول ولكن الله تعالى لا يتقيد بعادة ولا تحكم عليه طبيعة ولا تعاوقه الموانع الصناعية والقوانين الكونية بل هو فاعل مختار يخلق ما يشاء على اي كيفية شاء من غير ان يعاني تعباً او يرى معارضاً او مانعاً فانه شأنه اذا قضى امراً من الامور الاعتيادية او الخارقة للعادة فانما يقول له كن فيكون فاخبرها ان كل كائن انما يكون بكلمة الله تعالى ولذا بشرها بكلمة تكون منه يتكوّن بسببها ولدها كما تتكوّن اوائل الكائنات فاننا اذا رجعنا بكل جنس القهقري رأينا لكل كائن مبدا كان مادة له وهذا المبدأ لم يكن قبله شيء يتكوّن منه وانما كوّنه الله تعالى وابرزه من العدم الى الوجود بتقديره وقوله كن فاستوى عنده الامر العادي والخارق للعادة لان قدرته مستوية بالنسبة الى جميع الكائنات . ثم زادها تشويقاً للولد بوصف يبعث فيها التشوّف له فقال « ويعلمه الكتاب » اي

الكتابة فلا يكون اميا « والحكمة » اي العلوم التهذيبية ليخرج على خلق حسن محلي بالكمالات « والتوراة والانجيل » ونعلمه توراة موسى فلا يفتخر عليه بنو اسرائيل بشيء وليكون مجيئه متمماً لها ونعلمه الانجيل اي الذي سيوحيه اليه على لسان جبريل كما اوحى التوراة الى موسى ثم زاد البشارة بما يجعلها تهيم في طلب ما وعدها الله تعالى به فقال « ورسولاً الى بني اسرائيل » وسابعثه رسولاً الى بني اسرائيل كما بعثت موسى وهارون فيخبرهم (اني قد جئتكم بآية من ربكم) اي بآية بعد آية من احيائه الموتى ومداواة الاكمه والابرص والاخبار عما يأكلون ويشربون ويفعلون في بيوتهم وبهذه البشارة العظيمة حصل عندها الشوق واتنست ووطنت نفسها على ما سيحصل لها ولذلك قال الفلاسفة ان التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون اسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة أليس ان تصور المنافي يوجب حصول كيفية الغضب ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن . أليس اللوح الطويل اذا كان موضوعاً على الارض قدر الانسان على المشي عليه ولو جعل كالقنطرة على وهدة لم يقدر على المشي عليه بل كلما مشى عليه يسقط وما ذاك الا ان تصوّر السقوط يوجب حصول السقوط وقد ذكروا في كتب الفلاسفة امثلة كثيرة لهذا الباب وجعلوها كالاصل في بيان جواز المعجزات والكرامات فما المانع من ان يقال انه لما تخيلت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد في رحمها وهذا يقولونه على سبيل التصوّر والجواز والا فاننا لا نعتقد الا قول الله تعالى وقد اخبرنا انه اذا اراد شيئاً قال له كن فيكون وجدت الوسائط او عدمت ولا نضطر للقول بتخيلاتها الذهنية بعد اعتقادنا ان الله فاعل

واذا اعتقدنا انه تعالى فاعل مختار وان هذه الاكوان منشآته وخلقه علمنا انه قادر على خلق عيسى بلا واسطة اب كما قال تعالى « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » اي ان صفة عيسى عند الله في تكوينه بغير اب كصفة آدم اذ خلقه وسوَّاه من الطين والطين ليس فيه قوة قيامه بشرًا سويا كما ان ماء الام ليس كافياً في تكوين الجنين من غير الانفعال بماء الرجل فكما ان آدم لم تنبعث فيه الروح الا بكلمة الله تعالى التي هي كن فكذلك عيسى تمّ تكوينه وانبعاث الروح فيه بقوله تعالى كن . وقال في آية أُخرى « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » فاخبر انه رسول من الرسل ليمنع الناس من الغلو فيه بما يخرجه عن الحقيقة الانسانية ثم اخبر انه كوّن بكلمة منه وانه انما قام جسدًا متحركاً بروح منبعث فيه من جانب الحق سبحانه وتعالى . وهناك آية أُخرى ساق فيها قصة السيدة مريم وابنها ووقيعة اليهود فيها وتبرئة الله تعالى لها وتنزيهها عما رموها به وبايرادها تتم قصتها ويعلم اعتقادنا الجازم فيها وفي ابنها ثم نأتي على قصته مع بني اسرائيل بعد ذلك قال تعالى « واذكر » يامحمد لاهل الكتاب وغيرهم « في الكتاب مريم » اي قصتها ليقف الناس على حقيقة امرها « اذ انتبذت من اهلها مكاناً شرقياً » اي تباعدت وانفردت عن اهلها المقيمين معها واقامت في مكان شرقيّ البيت « فاتخذت من دونهم حجاباً » اي فضربت بينها وبينهم سترًا وذلك لان الحائض في شريعة اليهود تعتزل الناس وتتولى امرها بنفسها ولا يقرب منها احد والسيدة مريم كانت تعبد الله تعالى في محرابها وهي صغيرة فلما بلغت وجاءها الحيض اعتزلت مكان

العبادة واتخذت لها جهة تقيم فيها حتى تنتهي مدة الحيض فتطهر وتعود لمحرابها « فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويا » بعد ان طهرت من حيضها ارسلنا اليها رسولنا الروحي الذي هو جبريل فتمثل لها في صورة بشرية لتأنس به ولا تنزعج منه لانها لا تطيق رؤية الملك على صورته النورانية التي خلق بها لعدم تعودها على رؤية غير البشر . انما قلنا ان الروح هنا هو جبريل لان القرآن عندنا يفسر بعضه بعضاً وقد قال الله تعالى خطاباً لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم « نزل به الروح الامين على قلبك » فلولم نقل انه جبريل لكان الروح الذي قام به جسد عيسى هو عين الروح الذي قام به جسد محمد اومثله وهو منقوض بمجيء سيدنا محمد من ابوين كبقية من اكتنفتهم النواسيت فلهذا قلنا انه جبريل ولا ينافي ذلك قوله وروح منه في آية أُخرى فقد جاء مثلها في جانب سيدنا آدم اذ قال تعالى خطاباً للملائكة « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » فالروح المنفوخ من الله تعالى في آدم وعيسى هو النفس الناطقة لان الانسان مركب من جسد ونفس والجسد مولد من الماء المتولد من الاخلاط التي لا بد في حصول التسوية بينها وبين الاركان من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ومن رعاية كيفية امتزاجها وتركباتها ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل المزاج الذي لاجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة . وهناك فرقة حلولية تقول ان من للتبعيض وهذا يوهم ان الروح جزء من اجزاء الاله وهذا لا نقول به ولا نجوزه لان كل ماله جزء وكلٌ فهو مركب ممكن الوجود لذاته وكل ممكن الوجود

لذاته حادث فتكون اجزاء الاله حادثة فيكون مركبه حادثا فيحتاج الى محدث وكل محتاج الى محدث فهو مخلوق . والروح الذي تمثل للسيدة مريم في صورة بشرية هو الروح الذي نزل بالقرآن على قلب سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو جبريل . وهناك فريق من الناس يقول لو جاز ان يظهر الملك في صورة انسان معين فحينئذٍ لا يمكننا القطع بان هذا الشخص الذي اراه الآن هو زيد الذي رأيته بالأمس لاحتمال ان الملك تمثل في صورته . ونحن نقول له من اعترف بافتقار العالم الى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادراً على ان يخلق شخصاً آخر مثل فلان في خلقته وتخطيطه واذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في ان فلاناً المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالأمس ام لا . وكذلك من ينكر الصانع المختار ويسند الحوادث الى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك او الطبيعيات يلزمه تجويز حصول اتصال غريب في الافلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الامور فيكون التجويز لازماً على كل من الاقوال وهذه سفسطة وتعجيز للفاعل المختار جل شأنه . ثم قالوا انه جاء في الاخبار ان جبريل شخص عظيم جداً فكيف صار بدنه في مقدار جثة الانسان هل كان ذلك بان تساقطت اجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذٍ لا يبقى جبريل او بان تداخلت اجزاؤه وذلك يوجب تداخل الاجزاء وهو محال . فقلنا بعد اعتبار جبريل روحانياً فلا استبعاد في ان يتدرع تارة بالهيكل العظيم ومرة بالهيكل الصغير . واذا اعتبرناه جسمانياً قطعنا بان خالقه على تلك الصورة العظيمة قادر على تصغيره وتكبيره فاصل التجويز قائم في العقل فلا يمنعه وانما عرف فساده من طريق السمع وما جوزه

العقل لا تدفعه هذه التخيلات الفاسدة التي تلزم كل انسان ان يشك في نفسه اهو الذي كان بالامس او في اللحظة الماضية ام غيره وقد اخذ فريق من ضعفاء العقول بهذه الاوهام وجعلوها مذهباً لهم مع وضوح فساده لاضعف الناس تصوُّرًا وتعقلاً · فلما رأت السيدة مريم جبريل في الصورة البشرية « قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا » اي ان كان يرجى منك ان تتقي الله تعالى ويحصل ذلك بالاستعاذة به فاني عائذة به منك لانها علمت انه لا تؤثر الاستعاذة الا في التقي فلما قالت له ذلك « قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » فلما قال لها انا رسول ربك علمت انه غير فاجر ولا يريد بها سوءًا وتيقنت انه ملك من الملائكة الذين كان يخبرها عنهم زكرياء فانست وزال ما بها من الخوف وعلمت ان دخول مثله عليها في خلوتها لا يؤدي الى سوء ولا يمنع منه مانع · وقوله لاهب لك غلاماً نسب الهبة لنفسه لكون الامر جرى على يده او لكونه هو الذي نفخ في جيبها · وهنا سألنا سائل فقال لِمَ لم تقولوا ان جبريل هو الذي كوّن عيسى بنفخه في جيب مريم وما الدليل على انه لا يقدر على تركيب الاجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها · فقلنا ان جبريل جسم والجسم لا يقدر على هذه الاشياء اما انه جسم فلأنه محدث وكل محدث اما متحيز او قائم بالمتحيز · واما ان الجسم لا يقدر على هذه الاشياء فلأنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لان الاجسام متماثلة · فقال لا نسلم ان كل محدث اما متحيز او قائم به بل هناك موجودات قائمة بانفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من ذلك كونها امثالاً لذات الله تعالى لان الاشتراك في الصفات الثبوتية لا يقتضي

التماثل فكيف في الصفات السلبية سلمنا كونه جسماً فلم قلتم الجسم لا يقدر عليه قوله الاجسام متماثلة قلنا نعني به انها متماثلة في كونها حاصلة في الاحياز ذاهبة في الجهات او نعني بها انها متماثلة في تمام ماهيتها والاول مسلم لكن حصولها في الاحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات الموصوفات سلمنا ان الاجسام متماثلة فلم لا يجوز ان يقال ان الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض على ان قولنا ان الاجسام متماثلة في كونها حاصلة في الاحياز او في تمام الماهية انما ذلك في المجعول المصنوع وذات الحق سبحانه وتعالى خارجة عن سلسلة الممكنات ويكفي في الرد كون الموجودات القائمة بنفسها مجعولة ممكنة لا قديمة واجبة لذاتها وبهذا نتحقق عجز جبريل عن خلق ذرة او شعرة في جسد فضلاً عن تكوين انسان كامل الشكل والصفات على انه لا يمكنه ان يحرك شيئاً من جسمه الا بقدرة الله تعالى وخلقه تلك الحركة فيه فانه عبد مصنوع ولذا قال لأهب لك غلاماً زكياً اي طاهراً من الذنوب منزهاً عن العيوب ينمو كما ينمو الزرع لطهارته وعناية الله تعالى به فلما سمعت منه اسم الغلام وهي تعلم انها بكر لم يقربها بشر وقع الكلام عندها موقع الغرابة والبعد «وقالت انّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغياً» اي ان طريق الولادة في العادة حصول الولد من مباضعة الرجل للمرأة وانا لم يمسسني بشر بطريق التزوج حتى احمل منه واجيء بهذا الغلام الذي بشرتني به ولست بغيا اي فاجرة امكن الغير مني فآتي منه بهذا الغلام ولا طريق للحمل عادة الا بافتراش الزوج للمرأة او تمكينها الغير سفاحاً فكيف مع عدم اتصافي باحد الوصفين احمل وآتي بغلام زكيٍ وهو تخيل عقلاً .

فان العادة اذا تمكنت واستمرت صارت في حكم الطبع وجوزت للعقل انكار ما خالفها وهي تعلم انها ماجاءت الا من هذا الطريق وكل من تراه من الانسان والحيوان لا يجيء الا من هذا الطريق فلذا انكرت عليه خبره انكار غافلة تحب ان تستوثق من مخبرها ببيان طريق التكوين لا انها انكرت قدرة الله تعالى بهذا الاستفهام فلما سمع منها ذلك « قال كذلك قال ربك هو علي هين » اي ان ربك يقول هذا الامر وان كان غير متصور لك ولا معقولاً عندك لمخالفته العادة فانه هين على الله تعالى لا يعالج فيه شيئاً ولا يعييه احداث شيء بلا واسطة رأساً كما احدث اول الكائنات من غير مادة ولا توسط علة وانما الامر عنده كما قلت لك « الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » ثم قال تعالى « ولنجعله آية للناس ورحمة منا » اي ان الناس ينكرون تمام تكوينه من وجود انسان بغير اب فلاخبارهم باني فاعل مختار افعل ما اشاء واخلق ما اشاء وانوع صور التكوين والتخليق على ما اشاء نجعل ابنك آية لأن الناس يعجبون منها فلا يؤمن بوجوده من غير اب بقدرتي وتكويني له الا من ملأت قلبه ايماناً ولأجعله رحمة اذ يدعو الناس لعبادتي و يبلغهم ما ارسل به وما اوحيه اليه من الشريعة الخاصة به فسماه رحمة كما سمى نبينا سيدنا محمداً حيث قال « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » غير انه جعل سيدنا عيسى رحمة للناس فخصص وجعل سيدنا محمداً رحمة للعالمين فعمم وهذا من جملة اعتقادنا فلا تظنه من التحامل والاستخفاف فاننا نعتقد ان الاستخفاف بسيدنا عيسى او بأي نبي من الانبياء كفر صريح . فلما اخبرها جبريل بذلك حزنت واغتمت لعلمها ان الناس اذا رأوا حملها اتهموها ورموها بالسوء فان اخبرتهم الخبر كذبوها

وانكروا عليها اوقوفهم عند العادة فقال لها جبريل قد تم هذا « وكان امرًا مقضياً » اي ان هذا امر معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لانه لولم يقع لانقلب علم الله تعالى جهلاً وهو محال والمفضي الى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب · وايضاً فلأن جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر الى واجب الوجود والمنتهى الى الواجب انتهاءً واجباً يكون واجب الوجود واذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والاسف (ولذلك قال نبيناصلى الله تعالي عليه وسلم من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب) وهذا الذي هوّن على السيدة مريم وجعلها تصبر لقضاء الله تعالى وقدره ثم نفخ جبريل في طوق قميصها لتأنس بسبب من الاسباب لا لتعلم ان تلك النفخة هي المكونة للولد فان المكوّن له هو الله تعالى « فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا » انما قلنا هنا انه نفخ في جيب قميصها لقوله تعالى في الآية الأُخرى فنفخنا فيه من روحنا اي في عيسى كما قال في جانب آدم ونفخت فيه من روحي وتقدم الكلام على ذلك فلما احست بالحمل خافت من بني اسرائيل فخرجت من بيت المقدس مع ابن عمها يوسف بن يعقوب النجار منطلقين الى مكان في اقصى صهيون وكان لا يوجد في عصرهما من هو اشد منها عبادة واجتهادًا في طاعة الله تعالى فلما عرف يوسف انها حامل تحير وكلما اراد ان يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها واذا اراد ان يبرئها رأى الذي ظهر في بطنها من الحمل فقال لها انه وقع في نفسي من امرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت ان الكلام فيه اشفى لصدري وادعى لترك الفكر فيه وتوارد الظنون عليه فقالت له قل قولاً جميلاً قال اخبريني يامريم هل ينبت

زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم الم تعلم ان الله تعالى انبت الزرع يوم خلقه اولاً من غير بذر وهذا البذر الذي تجعله مادة للنبات الآن انما حصل من الزرع الذي انبته الله تعالى من غير بذر والا لزم تسلسل البذور الى مالا نهاية له وهذا محال فلا بد من اول لحدوثها وظهورها ٠ ألم تعلم ان الله تعالى انبت الشجرة من غير غيث وبقدرته جعل الغيث حياة للشجرة لا منبتا له بعد ما خلق كل واحد منها على حدته او نقول ان الله تعالى لا يقدر على ان ينبت الشجر حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباته ٠ فقال يوسف لا اقول هذا ولكن اقول ان الله تعالى قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون فقالت له اولم تعلم ان الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا انثى فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب فلما دنا نفاسها وجاء شهر وضعها اوحى الله تعالى اليها بواسطة زكريا ان اخرجي من ارض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف على حمار له الى ان جاءت بيت لحم « فأجاءها المخاض الى جذع النخلة » اي الجأها الطلق وحضور وقت الولادة الى العدول عن السير فنزلت بجانب جذع نخلة ببيت لحم بين اورشليم وحلحول وعانت ما تعانيه النفساء حتى وضعته عليه السلام فلما رأته تذكرت شدة بني اسرائيل وما سيتهمونها ويرمونها به من قول السوء « فقالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » مع علمها بان الذي جاءها وبشرها به هو ملك من عند الله تعالى ولكن غلبت عليها الطبيعة البشرية فطاشت افكارها عند ما وقع الامر وقد جرت عادة

العقلاء انهم اذا فجاءهم امر خارق اوطارئ فزعوا به مع علمهم بامكان حدوثه فاذا سكنت طباعهم المتؤثرة بذلك الطارئ تراجعوا الى ما هم فيه من الثبات وكذلك عادة الصالحين اذ طرأ عليهم امر عادي تمني احدهم الزوال والموت قبل حدوثه فكيف بامر خارق للعادة مذهل لعقول العقلاء فما صدر من السيدة مريم لايقدح في كمال عقلها ووفور قواها الفكرية ووثوقها بالله تعالى بل هو من ادل الدلائل على شدة ذكائها وتبصرها وقرأتها العواقب كيف وقد فجئت بامر حار فيه فريق عظيم من الناس وما خلا زمن من الازمان من عهد ولادته الى الآن الا وجاء الوجود الالوف المؤلفة من الناس وهم في حيرة من شأنه وتضارب افكار بين مؤمن وكافر ومصدق ومكذب ومنزه وقادح ففزعها بامر اذهل هذه الجموع الكثيرة لايقدح في قواها الفكرية ولايزيدها الا كمالاً واعتباراً بين العقلاء ومعلوم ان النساء العفيفات لا يتألمن من شيء مثل ما يتألمن من نسبتهن الى البغاء وهن بريئات منه واذا كن يتألمن من النسبة اليه فكيف اذا حصل حمل لامرأة وليس هناك زوج فهذه لا شك وان يشتد حزنها ويكثر همها لما تخشاه من الفضيحة والمعرة اللاحقة بها وبقومها . والسيدة مريم اشتهرت بين قومها انها عذراء ما مسها رجل ولزمت المسجد متعبدة منقطعة الى الخدمة وليست من البيوت الوضيعة حتى لا تبالى بحملها ووضعها مع عدم الزوج بل هي من البيوت الاسرائيلية الشريفة التي يخدش شرفها ويدنس مجدها اي عارض سيء . وكان قد تكفلها زكريا وهو نبي محترم في قومه معظم بين معاصريه فهي محاطة باسوار المجد والشرف من جميع جهاتها

ومن كانت هذه حالتها اذا رأت انها وضعت غلاماً من غير ان يمسسها بشر وعلمت ان قومها سيرمونها بالريبة لكونها جاءت بولد من غير الطريق المعهود لا شك انها تحزن وتمتلئ همّا وغمّا « فناداها » جبريل او عيسى « من تحتها » من جهة اسفل من الربوة التي هي عليها ان كان المنادي جبريل او من بين فخذيها ان كان المنادي عيسى وهو الظاهر لتحقق البشارة من جبريل لها انها سترزق غلاماً زكيّاً يكون آية للناس فانطقه الله الذي خلقه وصوّره وشق سمعه و بصره ليطمئن قلبها و يزول ما بها من هم وغم وتعلم انه آية دالة على قدرة الله تعالى سيكون له شأن عظيم وكان نداؤه « ان لا تحزني » اي لا يجرك الخوف من قومك الى الحزن ومن مخاطبته لها تعلم انه سيدافع عنها بنطقه وهو في سن الطفولية والرضاع وهذا الذي سرّها وازال ما بها من الخوف فان الخائف ربما قتله الخوف فقد اجاع قوم نعجة ثم جاؤا لها بالعلف واحضروا لها ذئباً فمنعها الخوف من الاكل فابعدوا الذئب عنها وكسروا رجلها وجاؤها بالعلف فاكلت ولم يمنعها الألم فالخوف اشد من آلام الامراض والجروح وهذا الذي رحم الله السيدة مريم منه فانطق ولدها عيسى ليزول عنها الخوف . ولما كانت في مكان قفر لا ماء فيه وعطشت عطشاً شديدًا تذكرت المكان وجدبه بعد ما زال عنها الخوف فناداها ايضاً بقوله (قد جعل ربك تحتك سريا) اي قد انبع الله لك عين ماء يجري منها جدول صغير تحت الربوة التي انت عليها لتشربي منه كلما عطشت . واذا جعت فميلي الى مكانك (وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا) وهذا الجذع اليابس اذا اخضرّ واثمر وطاب ثمره في وقت قريب حتى صار رطباً يجنى

ويؤكل كان ذلك من الآيات المطمنة لك الدالة على قدرة الله تعالى الذي خلقك ورزقك بهذا الغلام المبارك (فكلي) من هذا الرطب الجنيّ (واشربي) من ماء السريّ اي الجدول (وقَري عيناً) اي لا تخافي من شيء مما تتوهمينه فان الله تعالى سيصرفهم عنك (فاما ترين من البشر احدًا) ممن يحومون حول هذا المكان او من المارين من قومك وجاء ليكلمك او يسألك عن شأنك (فقولي) له (اني نذرت للرحمن صوماً » اي امساكاً عن الكلام «فلن أكلم اليوم انسيا» وقد امرت بالصمت عن مجادلة السفهاء لان صون النفس عن السفهاء واجب واذل الناس واحقرهم سفيه لم يجد من يسافهه فانه لا يقطع لسان السفيه الا الصمت عنه ولأن الله تعالى سينطق ولدها في مهده ليجادل عنها بني اسرائيل عند طعنهم في عصمتها فامرت بالصمت لهاتين العلتين ليكون ذلك ادل على شرفها وادفع لخصومها . وهذا وان كان خاصاً بالسيدة مريم الا انه عام في تعليم الادب ومحاسن الاخلاق ليلزم العقلاء الصمت اذا ابتلوا بمجادلة السفهاء واتهامهم بما ليس فيهم من العيوب. فالآية من الخاص المراد به العموم . ثم تحولت من بيت لحم مكان ولادتها « فأتت به » اي بابنها عيسى « قومها تحمله » على كتفها فاجتمع بها القوم وجعلوا ينظرونها متعجبين من مجيئها بولد تحمله على كتفها وهم يعلمون انها ما تزوجت فلما ذهب بهم العجب كل مذهب « قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً » اي عظياً منكرًا لم يعهد في بيتك ولا كان يظن فيك « يا أخت هارون » نسبوها الى جدها الاعلى لاشتهارها بالصلاح الذي اشتهر به هارون كما يقال لمن يكون من قريش يا اخا قريش اي ياواحدا

منهم او انهم نسبوها الى هارون اخيها وكان صالحاً كما كان ابواها بدليل قولهم «ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا» واذا كان ابوك صالحاً لم يقارف السيئات وامك عفيفة لم تبغ برجل غير زوجها واخوك صالحاً متعبدا فكيف صرت الى حالة تخالفينهم فيها . والذم بهذه الصورة اقبح واشنع فان القادح لو قال لمن يذمه يا ابن الادنياء السفهاء الضالين كيف ضللت وفسقت لم يكن ذلك مساوياً لقول الآخر يا ابن الاتقياء الصالحين وسلالة الانبياء والمرسلين واخا البررة الطاهرين كيف تركت سبيل قومك وخالفت سير آبائك وركبت من الفسوق والضلال ما دنست به مجد آبائك . وهذا هو الطريق الذي التزمه بنو اسرائيل لزيادة تبكيت السيدة مريم البريئة من كل ريبة فلما رأت تعصبهم عليها وان كلامها لا يدفع عنها الريبة ولا يكون حجة على طهارتها مع رؤيتهم الولد على كتفها وعلمت ان ولدها كلمها قبل ذلك حين ناداها من تحتها ايقنت ان لا برهان اعظم من نطق طفل يدافع عن أمه (فاشارت اليه) اي اشارت اليهم ان كلموا ولدي هذا فانه يخبركم عن حقيقته فظنوا انها تسخر وتهزأ بهم وامتلأوا غيظاً و (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) اي ان هذا طفل صغير لم يبلغ مبلغ الكلام فكيف تحيلينا عليه وهو ليس اهلاً للكلام ولا يعقل الخطاب فلما سمع منهم سيدنا عيسى افتراءهم على والدته (قال اني عبد الله) اني عبد مخلوق لله تعالى مثلكم مكون من جسد مركب وروح محرك لاعضائي فلا ينكر تكويني الا من ينكر تكوين نفسه فان القادر على خلق الانسان من ماءين بطريق التلقيح قادر على خلق انسان من ماء واحد هو ماء أمي التي لم تزن ولم تأت بفاحشة واذا جاز لله

تعالى ان يخلق الانسان من مادة ابوين ومن مادة واحد لكونه فاعلاً مختاراً غير مقيد بالقوانين العادية والوسائط الانفعالية وقد خلقني من غير احتياج للتلقيح بماء الاب فانا عبد مخلوق مثلكم لا غرابة فى تكويني ولا يرتاب في شأني الا جاهل بقدرة الله تعالى واقف عند الظواهر والمحسوسات فان اختراع المادة الاولى اصعب من اختراعي على صورة شاركت فيها نوعي الكثير العدد

غ

ان كثيراً من الطوائف يقولون بالحلول او بالاتحاد او بالتبني كفريق من البوذية والقائلين بالهية علي بن ابي طالب والحاكم الفاطمي وغيرهم واني وان كنت لا اجهل اعتقادي ولا انكر عليك اعتقادك الذي خالفتني فيه ولكني اطلب منك ان تقدم لي شيئاً من براهينكم التي تتخذونها حجة على عدم جواز الاتحاد او الحلول فاني كثيراً ما اطالع في كتبكم وارى علماءكم يكفرون طوائف القول بالحلول والاتحاد من قدماء الهند والعرب والمحدثين بعد الاسلام فهات ما عندك من العقليات التي اشاركك في فهمها و يشاركنا فيها كل عاقل تجرد عن التعصب والتقليد بلا دليل

ش

تعلم ان لنا كلاماً طويلاً في هذا الباب لا يختص بطائفة معينة ولا بقوم مخصوصين وانما عند ما نتكلم على صفات الله تعالى نقرر تنزيهه عن النقائص ومخالفته لجميع خلقه فيدخل الكلام على استحالة الحلول والاتحاد ضمناً ونعلم ان جميع طوائف العالم ينزهون الاله عن الجسمية والتحيز ولهذا

يقول علماؤنا ان الاتحاد لا يعقل لان الشيئين اذا اتحدا فهما حال الاتحاد اما ان يكونا موجودين او معدومين او يكون احدهما موجوداً والآخر معدوماً فان كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل وان عدما وحصل ثالث فهو لا يكون اتحاداً بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين وحصول شيء ثالث وان بقي احدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل ان يتحد بالموجود لانه يستحيل ان يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان ان الاتحاد محال · وكذلك يقولون ان الحلول غير معقول ولا متصوَّر بصورة من صور الادراك العقلي فان التصديق مسبوق بالتصوُّر فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا ان نعلم انه هل يصح على الله تعالى او لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة احدها كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم وهذا باطل لان هذا انما يصح لو كان الله تعالى جسماً وجميع الطوائف يقولون انه تعالى ليس بجسم · وثانيها حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعاً لحصول محله فيه وهذا ايضاً انما يعقل في حق الاجسام لا في حق الله تعالى · وثالثها حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الاضافية للذوات فنقول هذا ايضاً باطل لان المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجاً فكان ممكناً فكان مفتقراً الى المؤثر وذلك محال · واذا ثبت انه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن اثباته في حق الله تعالى امتنع اثباته · وقد احتج علماء التوحيد على نفي الحلول مطلقاً بان قالوا لو حل الاله في جسم لحل اما مع

وجوب ان يحل او مع جواز ان يحل والقسمان باطلان فالقول بالحلول باطل . وانما قلنا انه لا يجوز ان يحل مع وجوب ان يحل لان ذلك يقتضي اما حدوث الله تعالى او قدم المحل وكلاهما باطلان لأنا دللنا على ان الله تعالى قديم وعلى ان الجسم محدث ولانه لو حل مع وجوب ان يحل لكان محتاجاً الى المحل والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لا يكون واجباً لذاته وانما قلنا انه لا يجوز ان يحل مع جواز ان يحل لانه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله في المحل امر جائز والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم ان يكون حلوله في المحل امرًا زائدًا على ذاته وذلك محال لوجهين · احدها ان حلوله في المحل لو كان زائدًا على ذاته لكان حلول ذلك الزائد في محله زائدًا على ذاته ولزم التسلسل وهو محال · وثانيها ان حلوله في ذلك المحل لما كان زائدًا على ذاته فاذا حل في محل وجب ان يحل فيه صفة محدثة وذلك محال لانه لو كان قابلاً للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته وكانت حاصلة ازلاً وذلك محال لان وجود الحوادث في الازل محال فحصول قابليتها وجب ان يكون ممتنع الحصول · فان قيل لم لا يجوز ان يحل مع وجوب ان يحل لانه يلزم اما حدوث الحال او قدم المحل قلنا لا نسلم وجوب احد الامرين ولم لايجوز ان يقال ان ذاته تقتضي الحلول بشرط وجود المحل ففي الازل ما وجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلا جرم لم يجب الحلول وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب سلمنا انه يلزم اما حدوث الحال او قدم المحل فلم لا يجوز قوله انا دللنا على حدوث الاجسام قلنا لم لا يجوز ان يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلاً او نفساً او

هيولي على ما يثبته بعضهم ودليلكم على حدوث الاجسام لا يقبل حدوث هذه الاشيا قوله ثانياً او حل مع وجوب ان يحل لكان محتاجاً الى المحل قلنا لا نسلم وجوب احد الامرين بل ههنا احتمالان آخران احدهما ان العلة وان امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة الى المعلول فلم لايجوز ان يقال ان ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها في ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها في ذلك المحل من معلولات ذاته وقد ثبت ان العلة وان استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لايقتضي احتياجها الى المعلول . ثانيهما ان يقال انه في ذاته يكون غنياً عن المحل وعن الحلول الا ان المحل يوجب لذاته صفة الحلول فالمفتقر الى المحل صفة من صفاته وهي حلوله في ذلك المحل فاما ذاته فلا . ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الاضافية الى الغير افتقار ذاته الى الغير وذلك لان جميع الصفات الاضافية الحاصلة له مثل كونه اولاً وآخرًا ومقارناً ومؤثرًا ومعلوماً ومذكورًا مما لا يتحقق الا عند حصول التحيز وكيف لا والاضافات لابد في تحققها من امرين سلمنا ذلك فلم لايجوز ان يحل مع جوزان يحل . قوله يلزم ان يكون حلوله فيه زائدا عليه ويلزم التسلسل قلنا حلوله في المحل لما كان جائزا كان حلوله في المحل زائدا عليه اما كون ذلك الحلول حالا في المحل امر واجب فلا يلزم ان يكون حلول الحلول زائدا عليه فلا يلزم التسلسل . قوله ثانيا يلزم ان يصير محل الحوادث قلنا لم يجوز ذلك . قوله يلزم ان يكون قابلا للحوادث في الازل قلنا لاشك ان تمكنه من الايجاد ثابت له اما لذاته او لامر

ينتهي الى ذاته وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثراً في الأزل فكل ما ذكر في المؤثرية فنحن نذكره في القابلية . وجوابنا عن هذا كله ان نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الاسئلة فنقول ذاته اما ان تكون كافية في اقتضاء هذا الحلول اولا تكون كافية في ذلك فان كان الاول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا انه يلزم اما قدم المحل او حدوث الحال . وان كان الثاني كان كونه مقتضياً لذلك الحلول امراً زائداً على ذاته حادثاً فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله في محل حدوث شيء فيه لكن يستحيل ان يكون قابلاً للحوادث والا لزم ان يكون في الازل قابلاً لها وهو محال . واما المعارضة بالقدرة فغير واردة لانه تعالى لذاته قادر على الايجاد في الازل فهو قادر على الايجاد فيما لا يزال فههنا لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت في الازل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور . وايضاً فان اصحاب القول بالحلول وافقونا على ان ذاته تعالى لم تحل في ناسوت عليّ او ناسوت اي شخص على رأي القرامطة او شخص معين على رأي غيرهم بل قالوا ان الحال في الناسوت هي الكلمة والمراد من الكلمة العلم فنقول العلم لما حل في ناسوت معين ففي تلك الحالة اما ان يقال انه بقي في ذات الله تعالى او ما بقي فيها فان كان الاول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين وذلك غير معقول ولانه لو جاز ان يقال العلم الحاصل في ذات فلان هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى فلم لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى . وان كان الثاني لزم ان يقال ان الله تعالى لم يبق عالماً بعد حلول علمه في ذات

فلان وذلك مما لا يقوله عاقل . وايضاً فان الذات التي ادعى الحلول فيها لا تخلو اما ان تكون قديمة او محدثة والقول بالقدم باطل لانا نعلم بالضرورة ان صاحبها ولد وكان طفلاً ثم صار شاباً وكان يأكل ويشرب ويتغوط وينام ويمرض له ما يعرض لسائر الاجسام البشرية . وان كانت محدثة كانت مخلوقة فتكون حادثة فلا تكون محلاً لقديم يغايرها . فان قيل معنى كون الذات الانسانية الهاً ان الله تعالى خص نفسه او بدنه بالقدرة على خلق الاجسام والتصرف في العالم . قلنا يلزم على ذلك انه لا يغلب ولا يقهره احد لاقتداره على التصرف في العالم بما يشاء وجميع من ادعي عليهم بالحلول او الاتحاد او الالهية المحضة قتلوا فلو كانوا الهة لدفعوا عن انفسهم ولما رضوا لانفسهم العجز ووقوعهم في الاهانة وتسلط احقر العبيد عليهم فعليٌ قتله ابن ملجم والحاكم قتله عبيد اخته وغيره قتله قوم ضعفاء ولو تتبعنا المدعى عليهم هذه الدعوة شرقاً وغرباً اوجدنا كلاً منهم أُصيب بما يكذب المدعين عليه ويثبت عبوديته المحضة ومساواته الحوادث في كل ما يعرض للانسان . لا يقال ان المدعى عليه رضي بذلك لنفسه على ان قاتليه خلقه وعبيده فانا نقول لو كانوا خلقه وعبيده لدفعهم عن نفسه فان دفعهم اسهل من خلقهم فلما لم يقدر على ذلك علمنا انه عبد مخلوق اوقعه ضعفه في يد من هو اقوى منه فاوقع به وفتك ومثل وهو عاجز عن وقاية نفسه — وكما تحيل الحلول والاتحاد تحيل التعدد فنرد على المجوس القائلين بالتثنية وعلى من قال بقولهم بانا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجبا لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعين وما به

المشاركة غير ما به المباينة فكل واحد منهما مركب من جزأين وكل
مركب فهو ممكن وبهذا يعلم ان القول بان واجب الوجود اكثر من واحد
ينفي القول بكونهما واجبي الوجود . ثم انه لا يخلو اما ان يقوى احدهما على
مخالفة الآخر اولا يقوى فان لم يقو عليه فهو ضعيف وان قوى فالآخران لم
يقو على الدفع فهو ضعيف وان قوى عليه فالاول مغلوب فلا يكون الها .
ولو كان اله للخير واله للشر او هناك الهان يتبادلان الايجاد والاعدام وحاول
احدهما فعل شيء والآخر تركه امتنع كون احدهما اولى بالفعل من الثاني
لان الفعل الواحد والترك الواحد لا يقبل القسمة اصلا ولا التفاوت واذا
كان كذلك امتنع ان تكون القدرة على احدهما اكمل من القدرة على
الثاني واذا ثبت هذا امتنع كون احدى القدرتين اولى بالتأثير من الثانية
. واذا ثبت هذا فاما ان يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال اولا يحصل
مراد كل منهما وهو محال اولا يحصل مراد واحدا منهما البتة فحينئذ يكون كل
واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون الهاً فثبت ان كونهما اثنين ينفي كون كل
واحد منهما الهاً لانه لو كان كل واحد منهما قادرًا على ما لا نهاية له امتنع
كون احدهما اقدر من الآخر بل لا بد وان يستويا في القدرة واذا استويا
في القدرة استحال ان يصير مراد احدهما اولى بالوقوع من مراد الثاني والالزم
ترجيح الممكن من غير مرجح . واذا وقع مراد احدهما دون الآخر فالذي وقع
مراده يكون قادرًا والذي لم يقع مراده يكون عاجزًا والعجز نقص والنقص على
الله تعالى محال . ولو فرضنا الهين فاما ان يتفقا او يختلفا فان اتفقا على الشيء
الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان

اختلفا فاما ان يقع المرادان او لا يقع واحد منهما او يقع احدهما دون الآخر والكل محال . فان قيل لم لا يجوز ان يتفقا على الشيء الواحد ولا يلزم محذور لان المحذور انما يلزم لو اراد كل واحد منهما ان يوجده هو وهذا اختلاف اما اذا اراد كل واحد منهما ان يكون الموجد له احدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلنا كونه موجداً له اما ان يكون نفس القدرة او الارادة او نفس ذلك الاثر او امراً ثالثاً فان كان الاول لزم الاشتراك في القدرة والارادة والاشتراك في الموجد . وان كان الثاني فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة احدهما وارادته اولى من وقوعه بقدرة الثاني لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير . وان كان الثالث فذلك الثالث ان كان قديماً استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثاً فهو نفس الاثر . فاذا وقفت على حقيقة هذه الادلة عرفت ان جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن المثيل والشريك والحلول والاتحاد فبطلان قول اللاتينية القائلين بإله حكيم يفعل الخير واله سفيه يفعل الشر لامرية فيه وكذلك قول القائلين بما فوق الاثنين كعبدة الكواكب القائلين ان هذه الافلاك والكواكب اجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء وهي المدبرة لاحوال هذا العالم السفلي وهؤلاء هم الدهرية والذي اداهم لهذا القول انهم رأوا تغيرات احوال هذا العالم الاسفل مربوطة بتغيرات احوال الكواكب فبحسب قرب الشمس وبعدها من سمت الرأس تحدث الفصول وبسبب حدوثها تحدث الاحوال المختلفة في هذا العالم ثم انهم رصدوا احوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط

السعادة والنحوس بكيفية وقوعها في طوالع الناس على احوال مختلفة فلما اعتقدوا ذلك غلب على ظنون اكثر الخلق السابقين ان مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية فلما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها ثم منهم من اعتقد انها واجبة الوجود لذواتها ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للاله الاكبر الا انهم قالوا انها وان كانت مخلوقة للاله الاكبر فانها هي المدبرة لاحوال هذا العالم . ثم انهم لما رأوا ان هذه الكواكب قد تغيب عن الابصار في اكثر الاوقات اتخذوا لكل كوكب صنماً من الجوهر المنسوب ثم عبدوا الاصنام وغرضهم من عبادتها عبادة الكواكب والتقرب اليها . فدين عبادة الاصنام اقدم دين في العالم وكانت فائدة الرسل ابطال تلك العقائد الفاسدة واقامة الادلة القاطعة على حدوث الكواكب واحتياجها الى مدبر حافظ لحركتها مقدر لصورها واجرامها ومراكزها وابعادها وتقاربها وتباعدها واتصالاتها رابط لهذه العوارض بما ينشأ عنها في ذواتها وما تحتها من العوالم وبهذه الادلة ابطلوا كل قول يقول بالاثنينية والتثليث او الكثرة واقاموا البراهين على وحدانية الله تعالى باعتبارين الاول ان ذاته العلية ليست مركبة من اجتماع امور كثيرة . والثاني انه ليس في الوجود ما يشاركه في كونه واجب الوجود وفي كونه مبدا لوجود جميع الكائنات . والجوهر الفرد ان كان واحداً من حيث عدم تركيبه من اجتماع أُمور كثيرة فليس واحداً من حيث عدم وجود ما يشاركه في كونه جوهراً فرداً وليس هو مبدا للكائنات . وبرهان ثبوت الوحدة انه لو كان الاله مركباً لافتقر تحققه الى تحقق كل واحد من اجزائه وكل واحد من اجزائه غيره فكل

مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته واجب لغيره فهو مركب فهو مفتقر الى غيره ممكن لذاته فما لا يكون كذلك استحال ان يكون مركبا فاذًا حقيقة الله تعالى حقيقة احدية فردية لا كثرة فيها بوجه من الوجوه والوحدة بهذا المعنى ليست خاصة بذات الحق لان الموجودات الممكنة اما مفردات او مركبات والمركب لا بد فيه من المفردات فثبت ان هناك مفردات في عالم الممكنات وانما الخاصة به وحدة عدم مشاركة غيره له في كونه واجب الوجود وفي كونه مبدأً لوجود جميع الكائنات فلا يشاركه في هذا النعت سواه · ولك ان تقول في اثبات وحدانيته تعالى انه تعالى واحد في ذاته لا قسيم له · وواحد في صفاته لا شبيه له · وواحد في افعاله لا شريك له · اما انه واحد في ذاته فلأن تلك الذات المخصوصة المشار اليها بقولنا هو الله تعالى اما ان تكون حاصلة في شخص آخر سواه اولا تكون فان كانت حاصلة في شخص آخر كان امتياز ذاته المعينة عن المعنى الآخر لا بد وان يكون بقيد زائد فيكون هو في نفسه مركبا بما به الاشتراك وما به الامتياز فيكون ممكنا معلولا مفتقرا وذلك محال · وان لم يكن كذلك ثبت انه واحد في ذاته لا قسيم له · واما انه واحد في صفاته فلأن موصوفيته سبحانه وتعالى بصفات متميزة عن موصوفية غيره بصفاته من خمسة وجوه الاول ان كل ما عداه لا يكون حصول صفاته له من نفسه بل من غيره والله تعالى يستحق حصول صفاته لنفسه لا لغيره · الثاني ان صفات غيره تعالى مختصة بزمان دون زمان لانها حادثة وصفات الله تعالى لا تختص بزمان لكونها قديمة · الثالث ان صفاته تعالى غير متناهية بحسب المتعلقات فان علمه متعلق بجميع المعلومات وقدرته متعلقة بجميع المقدورات بخلاف

صفات غيره فانها متناهية . الرابع ان موصوفية ذاته بتلك الصفات ليس بمعنى كونها حالة في ذاته ولا بمعنى كون ذاته محلاً لها ولا بمعنى كون ذاته مستكملة بها لان الذات كالمبدا لتلك الصفات فلو كانت الذات مستكملة بالصفات لكان المبدأ ناقصاً لذاته مستكملاً بالممكن لذاته وهو محال بل ذاته مستكملة لذاته ومن لوازم الاستكمال الذاتي تحقق صفات الكمال معه . الخامس انه لا خبر عند العقول من كنه صفاته كما لا خبر عندها من كنه ذاته وذلك لانا لا نعرف من علمه الا انه الامر الذي لاجله ظهر الإحكام والاتقان في عالم المخلوقات فالمعلوم من علمه انه امر ما لا ندري انه ما هو ولكن نعلم منه انه يلزم هذا الاثر المحسوس وكذلك القول في كونه قادرًا وحيًّا . واما انه تعالى واحد في افعاله فظاهر لان الموجود اما واجب واما ممكن فالواجب هو هو والممكن ماعداه وكل ما كان ممكناً فانه يجوز ان لا يوجد مالم يتصل بالواجب ولا يختلف هذا الحكم باختلاف اقسام الممكنات سواء كان ملكاً او فلكاً او فعلاً للعباد او غير ذلك فثبت ان كل ما عداه تعالى فهو ملكه وتحت تصرفه وقهره وقدرته واستيلائه لا يشاركه في ذلك احد ولا يماثله ولا ينازعه ولا يتعاصى عليه اي ممكن كان في اي امر اراده منه والى هنا ينقطع الفكر عن البحث في ذاته تعالى لعدم الوصول الى ذلك فقد علمنا مغايرتها لكل من الممكنات وكل حادث في الفكر من التصورات الذهنية فانه ممكن والله تعالى واجب الوجود لذاته مغاير لهذه الممكنات المتصورة فلم يبق الا انه واحد لا يماثل ولا يحل في ذات ولا يتحد بذات ولا يدخل في اية دائرة من دوائر الممكنات لتنزهه عن المكان والتحيز وتحققه بحقيقة والحكم إله واحد لا إله الا

هو لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا . وجميع طوائف العالم تسعى خلف توحيد الله تعالى وتنزيهه عن مماثلة اي كائن من خلقه و يثبتون انه تعالى غير متحيز ولا قائم بالمتحيز ولايلتفتون لمن يقول ان هناك موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فتكون مثلاً لله تعالى لانه ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته والا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته وما به المشاركة غير ما به المايزة فيكون كل واحد منهما مركباً عما به المشاركة وعما به المايزة وكل مركب ممكن مفتقر الى جزئه . ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما ايضاو يلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر اليهما اولى ان لا يكون واجباً فثبت ان واجب الوجود واحدوان كل ماعداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح وافتقاره الى المرجح اما حال عدمه او حال وجوده فان كان حال عدمه ثبت انه محدث وان كان حال وجوده فافتقار الموجود الى المؤثر اما حال حدوثه او حال بقائه والثاني باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت ان الافتقار لا يحصل الا حال الحدوث وثبت ان كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزا او قائماً بالمتحيز اولا متحيزا ولا قائما بالمتحيز واذا ثبت هذا استحال الحلول والاتحاد ذاتاً وصفة واستحالت البنوة والأبوة من باب اولى فان العقل لايسلم بهما لاول سماعهما من غير نظر ولا استدلال لان الولد اما ان يكون قديماً او محدثاً ولا يجوز ان يكون قديماً لان القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته وما كان

واجب الوجود لذاته كان غنياً عن غيره فامتنع كونه ولدا لغيره فبقي انه لو كان ولدا لوجب كونه حادثاً فنقول انه تعالى عالم بجميع المعلومات فاما ان يعلم ان له في تحصيل الولد كمالاً ونفعاً او يعلم ان لا كمال فيه ولا نفع فان كان الاول فلا وقت يفرض ان الله تعالى خلق هذا الولد فيه الاَّ والداعي الى ايجاد هذا الولد كان حاصلاً قبل ذلك ومتى كان الداعي الى ايجاده حاصلاً قبله وجب حصول الولد قبل ذلك وهذا يوجب كون ذلك الولد ازلياً وهو محال · وان كان الثاني فقد ثبت انهُ تعالىٰ عالم ليس له في تحصيله كمال خال ولا ازدياد مرتبة في الالهية واذا كان الامر كذلك وجب ان لا يحدثه البتة في وقت من الاوقات · وهناك ادلة اخرى يطول شرحها او هاها يحيل التبني على اية صورة فان الله تعالى خلق السموات والارض من غير سابقة مادة ولا مدة ولم يلزم من عدم توسط المادة في خلقها تبنيه لها فكذلك كل ذات جاءت من طريق يخالف العادة فان نسبتها اليه كنسبة بقية المخلوقات من حيث العبودية والافتقار اليه · هذا ما قاله علماؤنا في هذا الباب وهو العقيدة الحقة عند المسلمين على اختلاف مذاهبهم واما من يدعون ان علياً إلها او ان الإله حل فيه او ان روح الله حلت فيه او ان الله اتحد به ومن يقولون بذلك في جانب الحاكم بامر الله الفاطمي ومن يقولون بذلك من القرامطة وغيرهم فانهم ليسوا من المسلمين بل نكفرهم وان صلوا الى قبلتنا وتعبدوا بعبادتنا · واعتقاد المسلمين عامة ان سيدنا عيسى نبي ورسول يجب احترامه وتعظيمه وتنزيهه عن الكذب والخيانة والبلادة وكتمان شيء مما امره الله تعالى بتبليغه ويكفر من يسبه او ينتقص قدره او يكذبه او يعتقد انه غير رسول فنعظيه

حكم نبينا وبقية الانبياء في التعظيم والاحترام والايمان به ونعتقد ان الانجيل الذي اوحاه الله تعالى اليه كتاب سماوي بلغه اليه جبريل كما بلغ التوراة الى موسى والقرآن الى محمد عليهم الصلاة والسلام

غ ١٧

لي معك كلام في هذا المقام اقدمه اليك بعد ان نفرغ من هذا التأسيس فهات الآن بقية خبر الدعوة العيسوية لنخاص الى الدعوة المحمدية والتأصيل العربي المقصود بالذات

ش

بعد ان خاطبهم المسيح عليه السلام بانه عبد الله تبرئة لامه لزم حالة الاطفال فلم يتكلم حتى بلغ السن الذي يتكلم فيه الطفل وقد اختلفت كلمة بني اسرائيل فيه وفي امه فتارة يتهمونها بزكريا وتارة بيوسف بن يعقوب النجار وكثر لغطهم وعلت كلمتهم وجاهر البعض بوجوب قتله والبعض بوجوب قتل زكريا وبلغ الاختلاف بينهم مبلغاً كبيراً قيل انه وصل ملكهم هيرودس فعزم على قتله فاحتمله يوسف النجار مع امه على اتان وقصد مصر خوفاً عليه من القتل وفي مصر تربى سيدنا عيسى حتى بلغ اثنتى عشرة سنة وظهرت له بها ارهاصات لنبوته فكان في المكتب يخبر الصبيان بما يصنع اهلوهم وبما كانوا ياكلون وله قصص كثيرة في مصر مدة اقامته بها كقصة الصباغ والتاجر وغيرها مما يطول سرده ولا ينكر مثله على الانبياء الا ضعفاء العقول ولما مات هيردوس خرجت به امه من مصر قاصدة سورية فما زالت تسير في الاودية وتمر بالقرى الساحلية والناس تكرمها لكرامة ابنها وما يرونه منه من

العجائب حتى جاءت قرية الناصرة فنزلت بها واقام فيها سيدنا عيسى حتى بلغ الثلاثين من عمره فاوحى الله تعالى اليه ان يخرج ويدعو الناس الى عبادة الله تعالى وتوحيده فنادى بين الناس بالدعاء الى الحق واتباعه فيما جاء به من الشريعة واظهر من المعجزات خوارق بهرت العقول ودلت على صدقه فيما جاء به كمداواة الاكمه والابرص والزمني فاحبه الناس واتبعه كثير منهم وحضر يوماً طعاماً عند عظيم يقعد يأكل من اناء ولا ينقص فقال له صاحب الدار من انت قال انا عيسى ابن مريم رسول الله فاتبعه مع نفر من قومه واتخذ له حوار بين اثني عشر رجلاً فكانوا اذا جاعوا او عطشوا قالوا له قد جعنا وعطشنا فيضرب يده الى الارض فيخرج لكل انسان منهم رغيفان وماء يشربون وقالوا له يوماً من افضل منا اذا شئنا الطعام اطعمتنا واذا شئنا الشراب سقيتنا فقال لهم افضل منكم من يأكل من كسب يده فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة وكان من معجزاته انه صوّر صورة من الطين ثم نفخ فيها وسأل الله تعالى طيرانها فطارت وكان له صديق اسمه عازر فمرض فارسلت اخته الى عيسى ان عازر يموت فسار اليه وقد مات منذ ثلاثة ايام فأتى قبره ودعا الله تعالى فاحياه واحيا امرأة وعاشت واحيا سام بن نوح وعزير النبي وغيرهم فكانت عجائبه من فوق المدارك ومن وراء العقول ومن علم ان الله تعالى فاعل مختار وانه يؤيد رسله بما يشاء هان عليه فهم ما صدر من سيدنا عيسى فانه من قبيل دخول سيدنا ابراهيم النار وخروجه منها حياً ملتفاً بردائه لم يحترق له ثوب ولا عضو وضرب موسى البحر بعصاه وقلب العصا حية واليد بيضاً ونبع الماء من الحجر وانزال

المن والسلوى على قومه وخروج ناقة سيدنا صالح من الجبل وغير ذلك مما هو مسطور في الكتب من معجزات الانبياء التي كلها خوارق غاية ما في الباب ان الله تعالى ينوع المعجزات بحسب كل زمن وما غلب على اهله فيه وقد اخلص في اتباع سيدنا عيسى وخدمته الحواريون سمعان . واخوه اندراوس . ويعقوب . ويوحنا . وفيلبس . وبرتولوماوس . وتوما . ومتي . ويعقوب بن حلفا . وتداوس . وسمعان القناني . ويهوذا الاسخريوطي . وكان اجتماع يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) به بشاطىء الاردن من ارض اريحا فعمده هناك وانقطع سيدنا عيسى للعبادة والصلاة والرهبانية في برية اريحا وبظهور خبره وخبر اتباعه قبض هيردوس الصغير على يوحنا وقتله لانكاره عليه امراً لا تجيزه الشريعة ودفن بارض نابلس ببلد يقال له سبسطية وبعض الناس يقول ان راسه بدمشق وزراعه ببيروت بمسجد هناك وجثته بسبسطية واشتهر ذلك بين الناس حتى صار له ثلاثة اضرحة في الاماكن الثلاثة . وبهذا ظهرت شريعته وانتشر خبرها في بني اسرائيل وجميع البلاد الشامية واخذ سيدنا عيسى يشرع الصلاة والصوم والقربات الى الله تعالى ويبين الحلال والحرام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبلغ الناس ما ارسل به من احكام الانجيل فتبعه كثير من بني اسرائيل وخافه رؤساؤهم حرصاً على دينهم الذي يذهب بظهور دعوته الناسخة له فتآمروا عليه واختلفت آراؤهم فجمع سيدنا عيسى الحواريين فباتوا عنده ليلتين يطعمهم ويبالغ في خدمتهم بما استعظموه وقال لهم انما فعلت ذلك لتتأسوا به ثم قال ليكفرن بي بعضكم قبل ان يصيح الديك ثلاثاً ويبيعني احدكم بثمن بخس

ثم افترقوا وكان بنوا اسرائيل تتبعوا اثرهم و وقفوا لهم بالمرصاد ليقبضوا عليهم فعثروا بشمعون وهموا بقتله فتبرأ منهم وهذا الذي اشار اليه سيدنا عيسى انه يكفر به قبل ان يصيح الديك و بهذا تخلص شمعون من بني اسرائيل ثم جاءهم يهوذا الاسخريوطي وعاهدهم على ان يدلهم على مكان سيدنا عيسى ويسلمه اليهم بدراهم اشترطها عليهم وهذا الذي اخبر عنه سيدنا عيسى انه يبيعه بثمن بخس و يأكل ثمنه وكان سيدنا عيسى اخبر الحوار يين بانه يشبه لبني اسرائيل ولا ينالونه بسوء فلما دلهم يهوذا على مكانه اخذوه وجاءوا به قائد القيصر الموجود وقالوا له هذا يفسد ديننا و يحل نواميسنا و يدعي الملك فاقتله ليبقى ديننا لنا و يبقى الملك للقيصر مع ان سيدنا عيسى ما طلب الملك ولا تعرض للملك وانما جاءهم بدعوة حقة كما جاءهم موسى ولكن جرت عادة الانسان ان يدافع عن معتقده و ينكر على من يدعوه الى غيره بادئ بدء فلذا اكبر الاسرائيليون امر سيدنا عيسى وانكروا عليه تغيير بعض احكام التوراة ونسخها بالانجيل وكانوا يظنون ان لا نبي بعد نبيهم موسى عليه السلام وعندما طلبوا من القائد قتله توقف فتوعدوه بابلاغ الامر الى القيصر فامر بقتله . وهنا وقع الخلاف بيننا و بينكم فنحن نقول انه شبه لقاتليه واما ذاته فانها رفعت الى السماء وهو حي فيها وانتم تقولون انه صلب . ومعلوم اننا لا نخالف القرآن برأي ولا خبر راو بل نعتقد صحته وصدق خبره في كل ما جاء به من القصص والاخبار وقد اخبرنا الله تعالى فيه بقوله « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » فهذه الاية هي حجتنا ودليلنا فلذا قلنا انه بعد صلب الشبه جاءت السيدة مريم عند الخشبة تبكي فجاءها سيدنا عيسى وقال لها ما

يبكيك قالت ابكي عليك قال ان الله تعال رفعني ولم يصبني شيء وهذا الذي ترينه شيء شبه لهم فقولي للحواريين يلقوني بمكان كذا فاطمأنت وذهب ما بها من الحزن ثم انها دعت الحواريين اليها واخبرتهم بما قاله وبالمكان الذي يريد ان يلقاهم فيه فانطلقوا اليه ورأوه بعيونهم وامرهم بتبليغ رسالته في النواحي التي عينها لكل واحد منهم قبل ذلك فتفرقوا عنه وذهب كل حواري الى جهته يدعو الى دينه وقد لاقوا من الملوك ما هو مسطور في كتب التاريخ .
والطبيعيون ينكرون صعود الاجسام الثقيلة الى الجو واختراقها الافلاك لوقوفهم عند المحسوسات ونحن لا ننكر على الله تعالى رفع مثل سيدنا عيسى ولا اسراءه بسيدنا محمد بعد علمنا ان الكواكب اجرام متحيزة في مراكزها غير مرتكزة على شيء ولا معلقة بشيء فالذي رفعها وسيرها مع فرط فخامتها لا يعجزه رفع جسم صغير جداً بالنسبة اليها كيف ونحن نرى الاجرام الثقيلة ترتفع الى الجو بالبخار المخلوق لله تعالى فاذا وقع الشيء باثر من آثار الله تعالى كيف يمتنع وقوعه بامره ومشيئته لا يقف في ذلك الا من اضله الله تعالى وسلبه نور الهداية فبقي متخبطاً في ظلمات الغواية « ومن يضلل الله فما له من هادٍ » والى هنا نعلم ان سيدنا عيسى استعمل الرفق في انتشار دعوته ولم يستعمل القوة لكونه رفع قبل ان تكون له عصبية تمنعه من اعدائه فان الحكيم لا يفعل العبث وسيدنا عيسى لما رأى عصبيته قليلة جداً بالنسبة لاعدائه المنتشرين حوله الآخذين عليه كل مسلك رأى من العبث مقاومتهم بمن لا يثبتون امام هذه الجموع الكثيرة فلذا ترك دينه في ايدي الحواريين يدعون اليه حتى تكون عصبية تنادي به وتقاتل على نشره

وبثه في الاقطار وقد كان ذلك بعد امد غير بعيد من عهده كما سنأتي على بيان شيء من الحروب المسيحية التي كانت في رومة وارض فرانسا وبريطانيا واسبانيا والمانيا والروس وغيرها مما اريقت فيها الدماء لانتشار الدين والدعوة اليه · وكان الحواريون وضعوا القوانين الشرعية وكتبوا الكتب التي يجب قبولها واعتقادها فعينوا من التوراة خمسة اسفار سيدنا موسى وكتاب يوشع بن نون وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا واسفار الملوك وسفر بنيامين وسفر المقباسين وكتاب عزرا الامام وكتاب اشير وكتاب قصة هامان وكتاب ايوب ومزامير داود وكتب سليمان الخمسة ونبوّات الانبياء ستة عشر كتاباً وكتاب يشوع بن شارخ ومن الكتب الجديثة الاناجيل الاربعة وسبع رسائل كاثوليكية واربع عشرة رسالة لبولس والايركسيس وهو كلام الرسل وقصصهم وبقي الامر كذلك والناس على ما قاله الحواريون قروناً حتى وقع الخلاف بين بعض الاساقفة في تأويل بعض عبارات الانجيل فحصل انشقاق وتمذهبت كل طائفة بمذهب وهذه عادة الناس في كل دين ان يجتمعوا على كلمة الداعي في اول الامر لا يؤولون منها شيئاً ولا يميلون الى الافهام والمدارك التي توجب الخلاف بالتأويل والاستنباطات فاذا طال العهد وانتشرت الدعوة وتبادل الناس الكلام فيها على اختلاف مداركهم ظهرت الاقوال المتغايرة والاحكام المستنبطة والفروع الراجعة الى الاصل بالتأويل او القياس · ومن هذا ما وقع من الخلاف بين اسكندروس بطريرك الاسكندرية وبين الاسقف اريوش وجماعة من الاساقفة معه فرفع اسكندروس امرهم الى قسطنطين ابن قسطنطين فجمعهم

اليه وتناظروا ثم قر الرأي على عقد جمعية من الاساقفة فجمع قسطنطين الفين وثلثمائة واربعين اسقفاً ورأس عليهم الاسكندروس بطريرك اسكندرية واسطانس بطريرك انطاكية ومقاريوس اسقف بيت المقدس وهذا اول مجتمع اجتمع فيه رؤساء الدين المسيحي للنظر في الخلاف وعقد الاجماع على كلمة لا تتعداها الطوائف فبعد النظر والمناظرات والبحث في الانجيل وما اختلف فيه الناس من عباراته المحتاجة للتأويل قر رأيهم على عقيدة كتبوها وامضوا عليها ووقع اجماع الحاضرين على الاخذ بها ولعن من يزيد عليها او ينقص منها ثم تفرق الاساقفة على اتحاد الكلمة ومنع الخلاف . وفي العقيدة التي قرروها النص على حشر الاجساد اذ قيل فيها عن سيدنا عيسى عليه السلام . وصعد الى السماء وجلس على يمين ابيه وهو مستعد للمجيء تارة اخرى للقضاء بين الاحياء والاموات . وفي آخرها قيل نؤمن بكذا وكذا وبقيام ابداننا بالحياة الدائمة ابد الآبدين . فهذا نص على البعث الاخروي وحشر الاجسام وهو مقتضى العبادات في كل دين والا لما كان للعبادة والتوبة والمغفرة معنى اذا كانت غاية الاجسام الفناء المحض ولا عود ولا بعث فان دور الحياة الدنيوية ينتهي على اية حالة يكون الانسان عليها من غنى او فقر وعز او ذل وقوة او ضعف وصحة او مرض ورفعة او صنعة ولا دخل للطاعة ولا للمعاصي فيها فاذا قلنا بعدم البعث كانت العبادة عبثاً لا طائل تحته وكانت رسالة الرسل شبه لهو ولغو او قانون يضعه اي انسان اضطرته ضرورة الوقائع والحوادث لاتخاذه ولا يقول بهذا الا من جذبته يد الشقاء الى مهواة البهتان فانكر الالهية والنبوة والرسالة وقال ان هي الا حياتنا الدنيا

نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر

١٨ غ

نحن نعتقد في سيدنا عيسى غير ما تعتقدونه فهل تنكرون علينا ذلك وهل ترون اننا محقون في اعتقادنا واذا لم تروا صحة معتقدنا فهل عليكم حرج في معاشرتنا ومعاملتنا

ش

اما الانكار عليكم فاننا منعنا من معارضتكم ومجادلتكم الا بالحسنى اذا لم يؤد الجدال الى الشحناء وكل مسيحي نزل في بلادنا واستوطنها معنا فاننا لا نعارضه ولا نعترض عليه ولا نقبح اعماله الدينية ونعاشره معاشرة الوطني ونعامله بالصدق والاخلاص بحيث يحرم علينا الشرع خيانته وغدره وسلب شيء من ماله وهتك عرضه ويلزمنا المحافظة على حياته . واما كونكم محقين او غير محقين فلا يخفاك ان كل متمسك بدين يرى الحق معه فكما تنكر علي ديني انكر عليك وانا وانت ننكر على بني اسرائيل والا فلو اعتقد الناس صحة جميع الاديان ما وقع بينهم اختلاف . ونحن الآن في زمن امتنعت فيه المجادلات الدينية وانصرفت فيه الافكار الى الامور الدنيوية اللهم الا ما يوجد عند البروتستانت والجزويت والفرير من التعصب الديني فانهم لا يرجعون عن طريق وجدوا فيه نجاح مساعيهم الدينية ولا يوجد في المسلمين من يتعصب للدين مثلهم ولهذا ترى المسلم يمكنه ان يعاشر كل طائفة من طوائف العالم وترى كل طائفة لا تعاشر المسلم الا لحاجة مع النفرة منه ومن هذا تعلم ان المسلمين لا يتعرضون للمعتقدات المغايرة لدينهم فبلاد العرب والعراق والشام

ومصر والاناطول والغرب والهند والافغان ممتلئة بالطوائف التي تخالفنا ديناً وهم ممتعون باحسن ما يرجون من الامن والراحة والحرية التامة ولا يوجد ذلك في دولة من دول اوروبا وحسبك دليلاً على تعصبكم حكمكم على كل شرقي دخل بلادكم ان يخلع ما على رأسه مما اعتاد لبسه في بلاده ويلبس البرنيطة والا فلو رآه الاطفال بعمامة او طربوش لجروا خلفه واذاقوه العذاب الاليم بخلاف الممالك الاسلامية فان الاوروبي ممتع فيها بكل ما يحب من عاداته واخلاقه . وليس ذلك لضعف المسلمين او لخوفهم فان هذه المعاملة الحسناء محفوظة لهم وهم في اعلى ما يكون من الملك وقوة الشوكة فلم يتعصبوا على احد تعصب اوروبا على المسلمين الآن وبالجملة فاننا لا نتعرض لاحد في معتقده مسيحياً كان او اسرائيلياً او غيرهما والحال شاهدة بصدق ما اقول

١٩ غ

رأيت في جرائد هذا الاسبوع ان رجال البرلمان الانكليزي عزموا على المجادلة في المسئلة العرابية وقد اجتهد جماعة منهم في الحصول على اوراق وشهادات تختص بها ليعارضوا بها او يقيموا حجة مؤيدة بها فهل يلزمك شيء من تلك المناظرات لاترجمه لك

ش

احب ان تترجم لي كل ما يختص بمصر فاني ساضع كتاباً في هذه المسئلة بما اعلمه من اصولها وفروعها من عهد المرحوم سعيد باشا الى الآن واريد ان اضم عليه الحقائق التي يعلمها الانكليز ليكون الكتاب كافلاً للمسئلة من جميع وجوهها خصوصاً الاخبار السرية التي لا تظهر الا في المجادلات فارجوك

ان تعتني بالترجمة اعتناءً تاماً بحيث تتتبع الجرائد الانكليزية فلا يفوتك شيء منها واني شاكر لاهتمامك بي في هذه الحالة وخدمتك العالم معي خدمة عامة

غ ٢٠

يقال ان وزارة المستر غلادستون على وشك السقوط فهل ترى ان وزارة اللورد سالسبوري تعود بنفع على المصريين

ش

انت تعلم ان كلاً من غلادستون وسالسبوري انما يشتغل لمصلحة بلاده فدعوى ان هذا حر وهذا محافظ انما هي لتأييد الاحزاب الوطنية التي بمبادلتها الآراء والوظائف تتقوى اركان المملكة ويعظم نفوذها والا فأية رابطة بين الانكليزي والمصري حتى يعطف عليه وهو يخالفه جنساً وديناً ولغةً ووطناً وتابعية . فاذا كانت الروابط منقطعة بينهما كان تداخل الانكليزي في عمل المصري لمنفعة ذاته لا لمصر ولا لاهلها واذا تحققنا هذا فغلادستون وسالسبوري واضعف انكليزي عند المصريين سواء فان وجهة الجميع واحدة . وانت تعلم ان انكلترة دولة مالية اي تاجرة تحب ان تروج تجارتها في البلاد الشرقية وان تحجر على الحاصيل لتنفرد ببيعها وصنعها فهي تسعى في توسيع مستعمراتها وممالكها بما تتغلب عليه من الممالك الشرقية توسيعاً لدائرة تجارتها وتنمية ثروة رجالها وهذا الذي علق الامة الانكليزية بدولتها حباً ومساعدة . ومع ذلك لا اقطع بعدم الفائدة الا بعد رؤية اعمالها في بلادنا فانها تقول انها ستصلح الادارات وتضع حكومة نظامية ثابتة فان ارادت بالحكومة حكومة تشبه الحكومة الهندية ايقنا انها تسلب جميع الادارات من ايدي الوطنيين

عموماً والمسلمين خصوصاً وليس هذا مما يرجوه المصريون منها وان ارادت ان ترشد امراء المصريين لطرق نظامية احسن مما كانت عليه البلاد قبل دخولها فهذا الذي ننتظره وعسى ان نرى منها اصلاحاً فننسى تعديها علينا بحسن مساعيها. ومع ذلك لا يخلو وجود الانكليز بين المصريين من فائدة فانهم كثيراً ما يسمعون عنهم اخباراً وحكايات بين مستحسن ومستقبح فبمباشرة المصريين لهم يقفون على حقائقهم ويعرفون باعث تداخلهم في شؤنهم واني ارجو ان تنتفع بهم البلاد وان يكفينا الله تعالى شرورهم

٢١ غ

هل ترى في نفسك نشاطاً للتوجه معي الى ابعاديتنا لنقيم هناك يومين او ثلاثة من باب تغيير الهواء خصوصاً والست تحب ان تراك

ش

اما توجهي الآن فغير متيسر لما عندي من الامراض التي تمنعني من تحمل مشاق الركوب واما حضور الست فليس هناك مانع منه وانما يلزمها ان تتخفى بثياب بلدية فان كان عندها ثوب و برقع فبها والا اعطيناك من هنا ثياباً وطنية و برقعاً لتستتر بها فان مجيئها بثيابها الافرنجية مع عدم سابقة لذلك مما يوجب توجه الانظار اليها واعمال الافكار في الباعث على التردد

٢٢ غ

الست لا تحضر الا عند مجيئي من مصر فاني عازم على التوجه غداً لقضاء بعض مصالح هناك فهل يلزمك شيء

ش

احب ان تسأل الشيخ الذي ذهبت اليه في المرة الأولى والاولى ان اعطيك كتاباً بخطي ليطمئن و يثق بك ولا يرتاب منك فانه متى رأى بخطي اخبر بما عندهُ من غير ان يتحاشى

الجواب : بعد العنوان

صديقكم المخبوء تحت استار الخفاء يقدم لحضرتكم ما يجب من التحية ويسأل عن صحتكم وما انتم عليهِ من الاحوال . اما حالي فاني مقيم في بلد يخبركم عنهُ صاحب الشدة حامل هذا الكتاب وقد التزمت صرف اوقاتي في كتابة ما عساه ان يكون نافعاً لاخواني ولم يصرفني سوء الاخبار عما تعهده في من حب الخدمة العامة . غير انى مشوش الفكر بانقطاع اخبار والدي وشقيقي عني وانك وان افدت صاحبنا افادة كلية عن اهلي فاني ارجوك ان تكتب لي ما تعلمهُ من شانهم واني اقسم عليك بالله العظيم ان لا تخفي عني شيئاً من خبرهم حتى لو كان احدهم توفي فلا تكتم خبرهُ عني فاني لا يشغلني شيء سوى الفكر فيهم . اما ثقتي بالله تعالى فانها اكبر واعظم من خطوبي وكروبي ولذا تراني غير مكترث بما اراهُ في الجرائد من شدة البحث عليّ وتهديد من يؤويني واعطاء من يدل عليّ الف جنيه لعلمي ان لا يقع الاّ ما يريدهُ الله تعالى وان العبيد لا يمكنهم ان يحدثوا في الكون ذرة او يغيروا شيئاً من مراد الله تعالى فكل عوارضي الدنيوية التي تتوارد عليّ الى مماتي مقدرة ازلاً لا تقبل التغيير فالفكر في مستقبلها اي شيء هو من العبثيات وبهذا استرحت من اشتغال الفكر وتوارد الهواجس . كما اني

ارجوكم ان تخبروني عن اخواني وما تم لهم فاني لا ارى في الجرائد الا شتائم وتهويلا وانذاراً واغراء والحقائق مستورة عني بهذه الايهامات وان حدثتك نفسك بالحضور عندي فراجعها وقر مكانك فانك ربما اتبعت بمن يقف على منتهى سفرك فقد علمت من كتاب بعض اخواني ان الحكومة هجمت بيتك وفتشته فلا ينبغي ان تخاطر بنفسك فتضرها وتضرني معك . وان خفت من الكتابة فاعتمد على خطي هذا وقل لصاحبنا ما عندك من الاخبار من غير ان تتخوف منه في شيء والسلام عليكم ورحمة الله

٢٣ غ

اري قفطانك صار وسخاً واحب ان آخذ مقياسك لافصل لك قفطانين في مصر واحضرهما معي

ش

اشكرك على هذه العناية وها هو المقياس والاحسن ان تاخذ القفطان الابيض لتفصل عليه انما تكون الاكمام طويلة كاكمام الفقهاء فربما اضطررنا للمشي او للقعود مع الناس فيرون لبس فقيه او عالم . وارجوك ان تفصل لي لباسين فان البستي في صورة البنطلون ولها اربطة في الرجلين ولا يخفاك ان الفقهاء لا يلبسون مثلها فيكون ذلك محل الانتقاد والفكر في حقيقتي

٢٤ غ

هل تأذنني ان اذهب الى اخيك الذي في الازهر لاساله عن الاحوال واقف على ما عنده ايضاً

ش

لا تكلف خاطرك بهذا فانهُ يبعث اليَّ كتبهُ عن طريق مأمونة وفي كل اسبوع يكتب لي خلاصة الاخبار وجميع الجاري بمصر فانا انتفع بهِ احسن من كل انسان يكاتبني خصوصاً وانهُ يتحرى في كتابته فلا يخبرني الا بالحقائق والاخبار الموثوق بها فتراني انتظر كتبه انتظاري للفرج جزاه الله تعالى عني احسن الجزاء

غ ٢٥

بلغني انك طلبت منهُ كتباً علمية فهل ارسلها او أستحضرُها لك معي شراء

ش

عندي من كتبه تفسير ابي السعود للقرآن العظيم وقاموس الفيروزابادي والوافي وجغرافية المرحوم رفاعه بك ولا يلزمني الآن كتب فاني ارى اننا ربما انتقلنا من هذا المكان فتكون الكتب حملا ثقيلا معي وانما اذا مررت في الكتبية فاشتر متن ابي شجاع لاحفظهُ لتابعي وهو يساوي قرشاً · ولا تنسَ الدخان فان دخان طنطا غير موافق لي وكلما اشترينا دخاناً من واحد وقلنا انهُ جيد نراهُ كغيرهِ وهذا كل ما يلزمني من مصر الآن

غ ٢٦

كن بخير فاني ذاهب وساعود بعد ثلاثة ايام

ش

الحمد لله على السلامة كيف وجدت الاحوال في مصر

غ

رأيت الذين قبض عليهم ذهب اكثرهم الى منفاهم وبقي قليل منهم في المحاكمة ولكني رأيت الاجانب متخوفين من الانكليز وكل من كان له صاحب من المصريين بث في فكره ان انكلترة تريد ان تمتلك مصر ولكنها تحتال لذلك فلذا رأيت بعض المصريين ممن اعرفهم متكدرين بعد ان كانوا مسرورين وكلما سألت واحدًا وجدت الفكر جاءه من اجنبي ولا يخفاك ان الدول لها مصالح شتى في مصر فهي لا تحب ان يضع الانكليز الحماية على مصر فلهذا اخذوا ينفرون المصريين منهم خصوصاً دولتنا الفرنساوية فانها لا ترضى باقامة انكلترة في مصر ولكنها تتدارك خطأ وزارة غامبتا في عدم الاشتراك معها في ضرب الاسكندرية وليست مدغشقر مثل مصر حتى يعد توجهنا لها مثل توجه انكلترة لمصر فدولتنا لا يقر لها قرار ما دام الانكليز في مصر ولكنها تترقب الفرص ولها امل في بعض جهات صينية تريد ان توجه اليها اساطيلها للاستيلاء عليها فهي تسكت عن الانكليز حتى يتم لها ذاك الغرض ثم تعود لمعاكستهم في مصر · اما صديقك فاني قابلته في خلوة مخصوصة واعطيته الجواب ففرح واطمأن واوصاني عليك واخبرني ان والدك اقام في مركب استأجره نحو اربعين يوماً ثم عاد فسكن في بولاق مدة ثم سافر وهو الآن مقيم بناحية كفر عثمان بجوار كفر الدوار لعدم امكانه دخول اسكندرية الآن · واما شقيقك فانه حضر من التل الكبير فلم يجد احدًا في البيت بل وجد الحكومة وضعت عليه حراساً فتوجه الى ضابط مصر واخبره انه اخوك فسجن اياماً وخرج من السجن وتوجه جهة برية المندورة (المنظورة) لزعمه

ان اباه توجه الى اقاربكم الموجودين بالبرية ولكنه قاسى من الاهوال اشدها وقد نفر منه اعز احبابكم واصدق اخوانكم فلو سلم على رجل ما رد عليه السلام وصار يمشي وحيداً لايكلم احداً ولا يكلمه احد حتى جاء البرية ونزل عند ابن عم لكم يسمى محمدا ابا مصطفى واجتمع عليه اقاربكم هناك ولما لم يجد والده استحسن ان يقيم عنده حتى تستقيم صحته وتصلح حالته فعلم به بعض من عائلة شتا الشهيرة فانذر ابن عمه بعدم اقامته واخراجه من ارض البرية لئلا يراه احد فيظن ان اخاه معه فتتهم هذه العائلة بايوائه وبعد مراجعة طويلة بعث ابن عمه الى ابن عم له آخر في برنبال فحضر واخذه وتوجه به اليها فاقام عنده مدة وقد بعث اخاه ليبحث عن والده فبعد البحث الشديد علم انه في كنج عثمان عند بنت اخت له فتوجه اليه واجتمع بوالديه وبعد الاقامة بكنج عثمان مدة قاموا الى اسكندرية وهم الآن بها غير ان اخاك منع من الخروج من اسكندرية بامر المحافظ اذقد افتري عليه وعلى بعض الوجهاء انهم اسسوا جمعية تسمى الجمعية الاعدامية فهم في كرب شديد الآن بسبب غيبتك وما هم فيه من الحجر والتضييق وملازمة الجواسيس (البوليس السري) للبيت فما خرج والدك لصلاة او لقضاء حاجة الا وتبعه واحد ولااشترى اشياء من احد الا سألوا البائع عنه واتهموه بانه يعرف مكانك وبهذا التضييق اصبحوا في عناء عظيم فلو امرتني ان آتي بهم الى ابعاديتنا لارحناهم من هذه الاتعاب والآلام . وقد اكد عليَّ صديقك المصري بعدم اخبار احد عنك وان لا نثق بصاحب او صديق فان الناس تغيرت احوالهم واصبح يذمكم من كان يمدحكم والعيون ناظرة اليك والبحث عليك شديد جداً واخبرني

ان صديقكم الازهري يتردد عليه وانهما يتبادلان الكلام في شأنك ويجتهدان في الوقوف على ما عند الحكومة من شانك ليخبراك بما يقفان عليه فتكون على علم وحذر . وها هي الثياب التي خطناها لك ان شاء الله تكون لباس العافية

ش

باي لسان اقوم بشكر خدمتك لحبيس مثلي لا يستطيع ان يخرج لقضاء الحاجة الا بعد علمه بخلو المكان من ذي روح ولقد قلدتني مننًا يحفظها لك التاريخ وزحزحت عني بعض ما اجده من جهة والديَّ وشقيقي وان كنت ازددت همًّا على همي بما صاروا اليه من ضنك الحال والتضييق عليهم بما تركهم غرقى الاوهام والآلام والله تعالى يصرف عنهم ما هم فيه ويفرج كربي وكربهم بقدرته الباهرة . اما مجيئهم عندكم فغير ممكن الآن لتتبع الجواسيس اثرهم فربما جاؤا خلفهم وتبعوك ايضاً في تنقلك حتى اذا راوك ترددت على هذا المحل وصلت اليه الشبهة خصوصاً وان الجواسيس من الادنياء الذين لا يسبق لذهنهم الا ما يجلب الشرور والضرر فانهم ابعد خلق الله تعالى عن الخير بل لا يهتدون الى طريقه فاولى ان لا نتعرض لنقلهم من اسكندرية ولا لحضور احد منهم الآن للزيارة حتى تسكن الافكار وتهدأ الحركات - ولقد نصح صديقنا بتأكيده وتحذيره فاني اقرأُ في الجرائد اخبارًا غريبة وارى رسائل هجو ممن كانوا يرون المدح فرضاً عليهم وارى شهادات مزورة مقدمة من اناس صورتهم صورة الامراء او الوجهاء وحقيقتهم حقيقة سفلة اغبياء ويعلم الله انهم ينسبون اليَّ ما لم يخطر ببالي فضلاً عن وقوعه مني وسأبين لك الحقائق عند التكلم على المسئلة المصرية لتتحقق كذب هولاء المنافقين وللحكومة

العذر في قبولها هذه الشهادة ممن تراهم في مقام الاعتبار ظاهراً ولهذا شدد صديقنا في اخفاء خبرنا عن كل انسان فجزاه الله عنا خير الجزاء

غ

اني متوجه الآن واعود غداً مع الست فاني جئت من الوابور الى بلدكم قبل ان اذهب الى الابعادية ولكنني اسألك بالله ان تريح افكارك وتترك الامور لمولاك فاني ارى من حسن اعتقادك وتوكلك على الله ما يقضي بالتسليم والرضا بالمقدور

ش

الامر كله لله وانا اعتقد اعتقاداً جازماً انه لا يقع في الكون شيء الا بارادة الله تعالى وتقديره ويستحيل جلب ضرر على انسان لم يقدره الله تعالى او دفع ضرر عن شخص قدره وقضاه واني مستسلم لقضائه تعالى وقدره راض بافعاله المنزهة عن العبث موقن بانه وليُّ امري وامرهم واسأله ان يلطف بي وبهم . وارجوك ان تسلم على الست ولا تكلفها الحضور الا اذا رغبته واستحضر معك جانباً من زهر الخطمي الموجود ببستانكم لاصنع منه مغلياً لصدري

حضرت الست اليوم وسلمت اليها اوراق المذاكرة من اولها لتراجعها حتى يكون دخولها معنا في المناظرة على علم بما تقدمها ولنشر اليها بحرف س عند ايراد كلامها

٢٧ س .

راجعت كلامكما ووقفت على مقاصدكما واريد ان نفرغ من خبر سيدنا المسيح وندخل في سيرة نبيكم لنتخلص منها الى المقصود فهات ملخص

ما صار بعد رفع سيدنا عيسى وما وعدت به من ذكر بعض الوقائع الدموية التي حصلت للدين وبسببه حتى لا نترك البحث محتاجاً للعودة اليه

ش

قدمنا انه جرت عادة امناء الرسل وخلفائهم ان يتتبعوا الرخص ويحافظوا على العزائم ويلاحظوا اخلاق الامم وما يناسب المكان والزمان فهم مع كل رسول يؤولون كتابه ويفسرون ما انبهم منه ويبينون ما غمض ويحلون ما اشكل واعضل ويفصلون المجمل ويطلقون المقيد ويقيدون المطلق ويعممون الخاص ويخصصون العام ويعرفون المنسوخ ويقيسون حوادثهم الحاضرة على ما ماثلها مما وقع في عهد رسلهم او معاصريهم او قريبي العهد بهم رفقاً بالامم وتسهيلا للمعاملات وتوسيعاً لدوائر المباح والجائز وتاليفاً للنفوس الابية راجعين بافكارهم ومباحثهم الى اصل الرسالة ومآل الدعوة وكتاب النبوة وقد يجتهد البعض في فرع او اصل فيظن الغير انه مخطىء فتتحرك عليه جموع العلماء للمناظرة والنقض والابرام . وعلى هذه القاعدة الجارية في كل امة وزمن ظهر اريوس بدعوته واجتهاده وعقد له المجمع الاول وبعد مضي مائتين وخمسين سنة من هذا المجمع ظهر مقدونيوس بدعوته وعقد له المجمع الثاني ثم ظهر نسطوريوس بدعوته وعقد له المجمع الثالث بعد الثاني باربعين سنة . ثم ظهر ديسقورس صاحب المذهب اليعقوبي وعقد له المجمع الرابع بعد الثالث باحدى وعشرين سنة . ثم عقد المجمع الخامس بعد الرابع بماية وثلاثين سنة لابطال دعوى التناسخ . وكل هذه المجامع كانت لدفع شبه عن اصل العقيدة المسيحية او لرد تأويل او لتصحيح غلط محافظة على

ما قرره المجمع العلمي الاول وهذا الاجتماع هو المسمى عندنا معاشر المسلمين بالاجماع فان علماء الدين في كل امة متى اجمعوا على امر وجب على الامة الاخذ به وعدم الخروج عنه · وبهذا الاجتهاد انقسم الدين المسيحي الى اقسام الكاثوليك والارثوذكس والاريوسي والماروني والنسطوري واليعقوبي وغيرها ثم ظهر القسم البروتستانتي في القرن السادس عشر الميلادي وتفرعت منه مذاهب الكلويني واللاثراني والانكليكاني والبرسبتارياني وغيرها ولكل من هذه الفروع شعب واغصان تدور مع الاصل الانجيلي حيثما دار وتختلف في تأويل او قياس · ولم يقصد واضعو المذاهب الا المقاصد الجليلة ولكن وقوع كتبهم في ايدي من هم دونهم حزماً وادراكاً وعلماً وسياسة حملهم على القول بالتفاضل والاسبقية والارجحية فوضعوا رسائل بقدر مداركهم اوغرت الصدور ونفرت النفوس وملأتها بالاباليس من شؤون الدين وبهذه الرسائل يبتدئ الآخذون بها بالمجادلات والمعارضات البرهانية متنقلين الى التأنيب والتساب ثم لا يزالون يرتفعون درجة بعد درجة الى ان يصلوا درجة العدوان واراقة الدماء على فروع ترجع الى اصل واحد · وكم اوقع هذا الخلاف طوائف بني اسرائيل في دماء واعدام وتخريب ايام دورهم الاول ووجود الاحكام بايديهم · وكم اجرى الدماء بين كنائس رومة وكنائس الروم حتى آل الامر الى استيلاء الروم على رومة واهانة كنيستها المقدسة وقتل بطارقتها ورهبانها بقسوة وغلظة كما سيأتي بيانه · وكم اجري الدماء بين السنيين والشيعيين والخوارج من طوائف المسلمين وآل الامر لحرق الكتب وقتل العلماء والحكماء كما سيأتي تفصيله · وما سفك الدماء الغزيرة في الامم الثلاث الا رسائل التعصب

والخروج عن منهج الاديان القويمة لانفس الاديان باعتبار ما صدرت به عن مهابطها .
ومعلوم ان سيدنا عيسى عليه السلام جمع اليه الحواريين قبل رفعه وقال لهم
« اذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » ثم ارشدهم الى طريق
سابقيه من اخوانه الانبياء باستعمال الرفق والتلطف في الدعوة والتساهل مع
المتعصب والمنكر ودفع المعارض بالحسنى ليكون ذلك ادعى للالتئام واقرب
لتأليف العصبية وتأسيسها فقال « من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن »
وهذا شأن كل رسول جاء بدعوة تنسخ دعوة معاصريه يستعمل الرفق اولاً حتى
يكوّن العصبية التي بها يتمكن من حمل الناس على دعوته بالقوّة وقد ارشدهم
لاستعمال القوّة عند تمكن العصبية بآية السيف « لا تظنوا اني جئت لالقي
على الارض سلاماً ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً » فكان هذا الارشاد
الدرجة الثانية في نشر الدين بالقوة فانفتح لاتباعه باب التظاهر والقتال بعد
ان كان مغلقاً بآية « ومن لم يؤمن يدن » الآمرة باستعمال الرفق واللين
القاصرتين على تعليم الانجيل وتفهيم الامم معناه وما جاء به من الفوائد الدينية
والدنيوية فانه يدعو لعبادة الله تعالى وتوحيده وتأليف النفوس وتهذيب
الاخلاق ومواساة المعدم وحفظ الارواح والاعراض ويعرف انواع العبادة
الانجيلية ويعين درجات العاملين ودركات المخالفين الى غير ذلك مما هو
القاعدة المتبعة في جميع دعوات المرسلين . وعلى هذه الارشادات جرى
الحواريون ثم الرؤساء الآخذون عنهم وجابوا الاقطار داعين للانجيل
والعمل به مقتصرين على الدعوة مع الخشوع والخضوع والرفق في القول
والعمل عملاً بالآية الاولى وسعياً في تأسيس العصبية حتى تم اجتماعها

وقويت اعضادها واتسع نطاق الدعوة فانبرى الاتباع والرؤساء في المتجاورات يدعون ويرشدون الى ان ظهرت مضادة قادة الامم وابوا عليهم الاخذ بدينهم فرجعوا الى آية السيف وحملوا الانجيل على اسنة الرماح ونادوا في اقطار عصبيتهم «المسيح حي . المسيح يملك . المسيح سلطان الارض» فانبعثت حمية الدين في النفوس وتحركت له الدماء وتداعت العصبية حول الرسل لبث دعوتهم بالقتال بعد ان كان الدين دين هدو وسلام فجندوا الجنود وعبوا الجيوش وامتزج الدين بالملك وابتدأت الفتوحات بالسيف والرمح حتى دخل الدين المسيحي ممالك اوروبا واقساماً من آسيا وافريقية ثم قاموا على مملكة بني اسرائيل فقوضوها ودكوا عروشها وبددوا شملهم وشتتوهم في اقسام الكرة الارضية وهم على اثرهم قتلاً وتشريداً حتى تم لهم من الظفر والانتصار ما تم ثم عاد الرؤساء الى النصح والارشاد وتهذيب النفوس ولكنهم مع صرفهم القرون الطويلة في بث الدين والتحذير من العدوان لم تذهب تعاليمهم القسوة التعصبية من اناس اشتغلوا بقتال من يخالفهم مذهباً وان اتفق معهم ديناً فحملوا السلاح باسم الدين بل باسم المذهب الخاص كما فعل كل من طائفتي الاستروغوط واللمبرودية في ايطاليا اذ قاموا عليها بعد ان تربوا تحت احضان ساداتها ومزقوا ممالكها واستولوا عليها في القرن الخامس الميلادي بعد تخريب وتدمير وقتل وهتك ونهب تشمئز منه النفوس . وبينما هاتان الطائفتان تعيثان في سرادينا ونابلي وسيسليا (صقلية) خرجت قبائل شتى وطوائف عديدة من جرمانيا داعية الى المذهب مقاتلة عليه كالوندال والسكسون والسويوة والافرنجة فخرجوا من اقطارهم رافعين علم الدين الكاثوليكي وهاجموا ممالك

اوروبا وخربوا مدنها ودوخوا بلادها واعدموا الوف الوف من النفوس وهتكوا واستباحوا ومثلوا ودكوا عروش ممالك كانت مشيدة قائمة على قواعد متينة تدين بدينهم وتخالفهم في المذهب الفرعي ثم اسسوا لهم ممالك خاصة بطوائفهم في فرانسا وانكلترة واسبانيا والبرتوغال وسويسة باسم الدين ولاجله ثم خرجت الطائفة التونيكية الجرمانية متعصبة للمذهب الكاثوليكي ايضاً وهتكت حجاب الامن وهدمت سور الاجتماع الاوروبي بحروب زلزلت بها الممالك قديمة وحديثة وبددت شمل الامم واستباحت الاموال والاعراض واهانت المعابد ومجامع الاديان المخالفة لمذهبها وقتلت الرؤساء الدينيين ومثلت بالبطارقة والاساقفة وفعلت من افعال التوحش ما لم يسبق له مثيل في العالم الهمجي ثم انزوت اخيرًا في بروسيا الشرقية واسست مملكتها الحاضرة · وبعد هدو الحركات العدوانية زمناً انبرت طوائف أُخرى مفضلة القوّة الادبية على القوّة المادية وعقدت الجمعيات الدينية الخيرية وبثت القساوسة والرهبان في جميع الممالك وفي البلاد الهمجية الاهل باسم المرسلين والمربين والمعلمين وفتحت لهذا العمل الوفاً من المدارس طاوية مبادئها الدينية في صحف التعليم فاتحة باب مدارسها لكل داخل على اي دين كان لتتلطف في نقله الى دينها او مذهبها الخاص : وقد ادركت الممالك المسيحية مقاصد هذه الجمعيات فعضدتها وساعدتها في الاقطار الشرقية وايدت سطوتها الدينية بالدفاع عنها وحمايتها ومدح مساعيها · وبهذا انتشر الدين المسيحي في كثير من الاقطار ولولا ما اعترضه من هذه الخلافات المذهبية والوقائع الدموية والتعصب الشديد والتقاعد عن نصرة الجار لمخالفة المذهب

وانقطاع مواصلات الامم وتعذُّر الاسفار اذ ذاك لانتشر في جميع اقطار الارض قبل الدعوة الاسلامية · ولكن جرت عادة التربية تحت الاحضان وكبر العصبيات المختلفة الجنس واللغة والوطن ان تظهر دعاة ومتغلبين يربيهم الدين وينقلهم من سكون الجهل الى حركة العلم فتتحرك الافكار وتعلو وتسفل بقدر ما عليه اهلها من الاستعداد العقلي والتيقظ الفطري حتى اذا مالت نفوسهم الى الاستقلال الملكي والعز الوطني والشرف الجنسي والتعصب المذهبي تجزأ الكل وكبر الصغير وقوي الضعيف وساد الوضيع وجرد سيف الدين مع سيف الملك وجال رب الاول جولة وحمل صاحب الثاني حملة فتبيد اناس وتخرب ممالك وتهتك اعراض وتسلب حقوق ولا اغماد لهذين السيفين ما دام من الانسان اثنان وانما تتغير المطالب في كل امة وتتنوع اشكال الحروب في كل زمن والباعث هو هو دين وسياسة اذ ليس للانسان طريق اعدام في الغالب غيرها · وبينما طوائف الروم والرومانيين في مغالبة على الملك ومقاتلة للدين اشرق عليهم النور المحمدي آتياً من صاب عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الى آخر نسبه الشريف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم · وكان الدين المسيحي لهذا العهد قد انتشر في جميع اوروبا وفي مصر والشام وبلاد نجران من بلاد العرب وبعض بلاد اليمامة وارمينية والحبشة وبقي الباقي من بلاد العرب على الوثنية والفرس على المجوسية والهند كذلك والسودان على الوحشية والغرب على المجوسية في معظمه والنصرانية في بعضه وكذلك الصين واليابون وانام وغيرها على ما كانوا عليه من الدين البوذي · وقد

دخلت اوروبا تحت التعاليم الدينية مدة ولم تفدها اكثر من دعوتها الى الايمان بالمسيح عليه السلام فلم يترتب عليها التفنن في العلوم ولا تأليف كتب نافعة ولا تعليم ما تدعو اليهِ الحضارة ويزيد المدنية كما حصل في الدين الاسلامي باعتناء علمائه وخلفائه كما سيأتي بل كانت التعاليم قاصرة على الاصول الكنيسية ولم تتعلق اوروبا بالعلوم العقلية من رياضية وطبيعية وفلكية وغيرها الا بعد مخالطتها للمسلمين ايام المحاربات الفتوحية والمعامع الصليبية حيث اعتنت بنقل الكتب وترجمتها ودراستها واشتغلت بالمعارف اشتغال جد واجتهاد حتى حيرت العالم بما هداها اليه العلم من الاختراع والابتداع وزينت الممالك بالمحسنات العمرانية وادهشت الناس بتفننها في الاختراع حتى لا يكاد يمر اسبوع الّا يسمع فيه بمخترع جديد ومصطنع مفيد · وكل هذا نتيجة الاختلاط بالمسلمين واحتكاك الافكار في بعضها والتربية تحت الاحضان سنّة الله في خلقه · وكان بنو اسرائيل لهذا العهد قد تفرقوا في الاقطار وتشتتوا في الممالك بما قاسوه من ذل الاستعباد وقهر السلطة والتعصب الديني الذي لم يزل يجري في عروق المسيحيين الى الآن لاعتقادهم انهم هم الذين صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه كما لا يخفاك وهذه عداوة لا يمحوها كرور الايام والليالي لتولدها عن الاعتقاد الديني الجاري من ابن آدم مجرى الدم فكان بعضهم في بلاد العرب والبعض في افريقيا والبعض في اوروبا منزوياً بين اهلها ولا حاكم لهم ولا قوة مجتمعة ولا يفوض اليهم امر من امور الملك مهما كان اختلاطهم وارتباطهم بمن هم معهم من المسيحيين · ومن هذا يعلم ان سيدنا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ولد واربعة اخماس اهل

الارض على شركهم لم يدخلوا تحت قانون دين سماوي وقد ولد بين قوم اميين لا يقرؤون كتاباً ولا يعرفون سياسة ولا يجتمعون تحت رأي عام كل قبيلة مستقلة بنفسها وربما كان في القبيلة بطن او فخذ مستقلاً لا يخضع لرئيس قبيلته والرُحل منهم في الاودية والجبال اكثر من سكان القرى قد توزعوا اهواء وتعددوا قبائل وتباينوا تديناً وتباعدوا مسكناً وكلٌ يرى انه عظيم قومه وحكيم قبيلته لما أُوتوه من الفصاحة والبلاغة والاقتدار على الكلام نثراً ونظماً كما سنبين اخلاقهم وعاداتهم واديانهم ومعاملتهم ان شاء الله

غ

ارى صاحبك الازهري قد حضر ولا بد ان يكون ذلك لامر غريب

ش

اظنه اتى للزيارة والا فانك كنت عنده من عهد يومين · ونشير لهُ بحرفي سع لكونهما نصف اسمه

سع بعد السلام والتحية

هل تأذنون لي بمراجعة محاورتكم لارى ما انتم عليه من المناظرة

ش

تفضل ولكن ليعلم الاستاذ الفاضل اننا الى الآن في مقدمة التأسيس آخذين في تأصيل المسائل الدينية التي بني عليها الخلاف الجاري بين الناس ولم ندخل في المقصود بعد لكون معرفة التأصيل ينبني عليها معرفة النتائج التي اظهرتها تربية الاديان وتكوين عصبياتها بالتجاذب القلبي الذي لا يحله الا فساد العقيدة نعوذ بالله تعالى من ذلك

٢٨ سع

ان هذا التاصيل بديع واراكم متتبعين الاشياء بطريق التلخيص لا بالاسهاب والتطويل وهو التزام حسن ليسهل تناوله وقراءته ولكنني رأيت امرًا اقدمه للاخ الشرقي مستفهماً عن الحقيقة . عند كلامه على صخرة بيت المقدس قال انها لسان من الجبل يتصل به من جهة الشمال فقط فاما من جهة الجنوب وكذا من جهتي المشرق والمغرب فلم يتصل به بل ثم فراغ وان نبي الله سليمان عليه السلام بنى على تلك الصخرة قبة الخ عبارته وقد حضرني ما ذكرهُ الامام ابو بكر بن العربي رحمه الله تعالى في شرح موطا الامام مالك رضى الله تعالى عنه فيما حكاه عن علي بن برهان الدين الحلبي في كتابه انسان العيون في سيرة الامين المامون المعروف بالسيرة الحلبية حيث قال « صخرة بيت المقدس من عجائب الله تعالى فانها صخرة قائمة شعثاء في وسط المسجد الاقصى قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها الا الذي يمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه في اعلاها من جهة الجنوب قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين ركب البراق وقد مالت من تلك الجهة لهيبته وفي الجهة الاخرى اصابع الملائكة التي امسكتها لما مالت ومن تحتها المغارة التي انفصلت من كل جهة عنها فهي معلقة ما بين السماء والارض وامتنعت لهيبتها من ان ادخل تحتها لاني كنت اخاف ان تسقط عليَّ بالذنوب ثم بعد مدة دخلتها فرايت العجب العجاب تمشي في جوانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الارض لا يتصل بها من الارض شيء ولا بعض شيء وبعض الجهات اشد انفصالاً

من بعض قال وهذا الذي ذكره ابن العربي ان قدم صلى الله تعالى عليه وسلم اثرت في صخرة بيت المقدس حين ركب البراق وان الملائكة امسكتها لما مالت قاله الحافظ ناصر الدين الدمشقي في معراجه » فانت ترى ابن العربي بنى كلامه على العيان والمشاهدة فاكشف لنا حقيقة الحال وامط جلباب الاشكال عن هذا السوأل قبل ان اتم المناظرة قراءة

ش

لا يخفاك ان صاحب الانس الجليل اورد في هذه الصخرة اشياء كثيرة لم يصح شيء منها والذي قاله ابن العربي غير بعيد ان يكون معجزة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فان المعجزات كلها خوارق للعادات ولعل ذلك كان لاول نظرة قبل ان تتصل بالجبل والا فانها قد مرت عليها القرون وهي على ما اخبر علماء الاخبار من كونها لسانا في الجبل بناء على هيئتها التي هي عليها (هنا ينبغي ان نقول بعد كتابة هذه الكلمات بسنين عثرت عليّ الحكومة المصرية وابعدتني عن مصر الى الشام فتوجهت الى بيت المقدس وزرت الصخرة ودخلت مغارتها وصليت فيها ركعات وقد رايتها قد بنيت جوانبها حتى استوت على المغارة مرتفعة عن الارض نحو متر ونصف ولكن الانسان عند وجوده تحتها يجد الجهة الشمالية لا فاصل بينها وبقية الجهات يبصر البناء الجديد فيها ويحتمل ان الفاصل بينها وبين الجهة الشمالية كان ضعيفاً جداً حتى لم يظهر للرائي في بدء النظر بلا امعان ولذا قيل انها لسان ملتصق بالجبل وقد رايت اثر قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الجهة الجنوبية وقد وضع عليه دولاب

يفتحه الخدمة لمن جاء زائراً واذا ضربنا كل حائط ونحن تحتها نسمع رنيناً يعلم منه انفصالها عن الجبل ولكن هذا الرنين يضعف جداً في الجهة الشمالية فلعله لقرب المواجهة) ومن قول ابن العربي وبعض الجهات اشد انفصالاً عن بعض يعلم انه تأملها وحقق النظر فيها وان القائلين باتصالها لم يمعنوا النظر في الجهة المنفصلة فيها انفصالاً خفياً عمن يرى من بعد هذا تحقيق ما يقال في توجيه الكلامين على اننا متى تحققنا ان ارتفاعها كان معجزة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم سهل علينا كل شيء فان البناء المحيط بها لم يتبين منه البناء من الصخرة لاستوائه معها ومشابهته لها فربما كانت مرتفعة بهذا المقدار ثم بني هذا البناء تحت جوانبها منعاً لما عساه ان يحصل من تقوى بعض الناس عليها بالمشي فتسقط ويذهب هذا الاثر الخالد وقولنا ما قيل في الصخرة غير هذا فمن وضع القصاص المراد به مبالغتهم في ارتفاعها وطولها وعرضها ونسبة ذلك الى الحديث الشريف او مشاهير العلماء ترويجاً لاقاصيصهم وبالجملة فان البناء الموجود حولها الآن منع الناس من التحقيق والوقوف على الحقيقة وجعلهم يخوضون فيها بالظن والتخمين خصوصاً بعد علم الجميع ان بيت المقدس وقع في ايدي النصارى مدة قبل الاسلام ولما فتحه سيدنا عمر وجد الصخرة مردومة بالقمامات فازالها عنها ثم وقع بعد ذلك في ايديهم ايام الحروب الصليبية واستمر تحت تصرفهم مدة حتى اعاد المسلمون فتحه وفي مثل هذه الاحوال تقوى الظنون في عدم انفصالها عن الجبل او في انفصال الجهة الشمالية انفصالاً خفياً جداً لا يظهر الا بدقة التأمل والله اعلم بحقيقة الحال

—*—

٢٩ سع

الآن زال الاشكال باحالة رؤية ابن العربي على اول نظرة او على تدقيقه النظر في الجهة الخفية الانفصال ولمَ لم تذكر الحروب الاسرائيلية عند ذكر بني اسرائيل ولم تستقص الحروب المسيحية قبل الدخول على التأسيس العربي حتى تكون الوقائع معلومة لتحصل المقابلة بين الاديان الثلاثة

ش

قد اشترط عليَّ الخواجا عدم الدخول في موضوع لم يعينه لي وهو لم يطلب ذلك ولعله أخر هذه الحروب وتفاصيلها الى وقت آخر

٣٠ غ

نعم انا لا أريد ذكرها الآن لئلا يطول التأصيل بما قامت به كتب التاريخ وانما الملخص الذي ذكره صديقنا الشرقي ضروري للمقابلة وعند دخولنا في السيرة العربية لا بد ان تضطرنا المواضيع لذكر بعض الحروب الاسلامية فيكون له حق المقابلة بينها وبين المسيحية والاسرائيلية اذ ذاك . والآن ندخل في السيرة المحمدية وملخص الدعوة الاسلامية وما كان من العرب عند سماعها لنصل الى المقصود

سع

ارى انه ان سرد القصة بتمامها احتاج لوضع كتاب مستقل كبير وقد جمعت في كتب شتّى تغنيه عن السرد والبيان وان ذكرها ملخصة مختصرة كان ذلك اوقع في النفس وابعد عن السأم والملالة

غ

انا بنينا مناظرتنا على الاختصار والتلخيص من اول الامر وهو لا يخرج عن طريقتنا. ولكني اسأل حضرتكم عن موجب الحضور هل طرأ هناك شيء

سع

لم يكن هناك غير ما يسرنا جميعاً وما جئت الاَّ لزيارة الاخ والاطمئنان على صحته ومعرفة حالة اقامته هنا وهل بقي الامر مستوراً كما اعهد ام أذيع بين اهل الدار فنبحث على محل آخر ننقله اليه لئلا يفشو السر فتتطاير الاخبار حتى تصل الحكومة فيقع ما لا نوده

ش

الامر على ما تعهد من الكتمان والتحرز من افشائه اذ لا يعلم الحقيقة الاَّ صاحب البيت ووالدته وقد اخبروا الشيخ خليلاً لثقتهم به فهو يأتي يحدثني ويسامرني وقتاً بعد وقت وقد وجدت في حضوره راحة وانساً فاني كنت اقضي اليوم قبل ذلك في كتابة او تعليم صالح شيئاً ينتفع به فلما جاء الخواجا زالت الوحشة عني بالمرة فصرت اجلس معه الوقت الذي يقيم عندي وبعد قيامه استحضر الشيخ خليلاً فيؤانسني وهذه العناية رحمة من الله تعالى بي وانا في هذه الحال الصعبة اسأل الله تعالى تفريجها بفضله جلت قدرته والشيخ خليل هذا هو مأذون البلد اي نائب الشرع فيها وله اخ اسمه الحاج شاذلي استحضرته لفتح خراج تحت ابطي فانه حلاق صحة البلد ولاهل البيت ثقة تامة بهذه العائلة فترالي في انس بحضور هذين الاخوين وقتاً بعد وقت وانظر لصعوبة الامر وتعرضهما للدخول عندي ثم انظر لكتمهما السر تعلم انهما من رجال الشدة الذين ملئوا هماً ومروءة

٣١ غ

هات ملخص السيرة المحمدية لندخل على التاصيل العربي ولتكن عبارتك سهلة لا تتجاوز وصف نبيكم واخلاقه وسيرته وما كان عند دعوته من قومه ومن عاصروه وان كان ذلك مبسوطاً في كتب مطولة ولكني احب ان اسمعه منك مختصراً بحكم ايجاب المطاب ذلك لئلا تكون المسئلة الشرقية مقتضبة اذا لم يذكر اصلها

ش

اوصاف نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم واوصاف نبيكم عليه الصلاة والسلام و بقية الانبياء حافظ عليها العلماء لوقوف الامم على اوصافهم واخلاقهم وسيرتهم ليقتدوا بهم فيما يجوز الاقتداء فيه وليعلموا من صفاتهم واخلاقهم ما تهتدي به النفوس لمعرفة قدرهم وعلو شأنهم ولكون نبينا آخر الانبياء وقد اعتنى اصحابه والعلماء من بعدهم بجمع صفاته واخلاقه وما كان عليه من الاحوال فجاء ذلك في كتب مطولة نلخص منها انه صلى الله عليه وسلم ولد سنة ٥٧١ ميلادية في العام المسمى بعام الفيل من ابويه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم وآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم فتجتمع أمه مع ابيه في جده حكيم الذي كانت تلقبه العرب بكلاب لكثرة صيده بها وقد ولد مختوناً مقطوع السر مكحول العينين فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر اطول من المربوع واقصر من المشذب اي البائن في الطول عظيم الهامة رجِل الشعر اي كان شعره مشط فتكسر قليلاً ليس بسبط ولا جعدٍ ان انفرقت عقيقته اي شعر رأسه فرقها

والا تركها معقوصة لا يجاوز شعره شحمة أُذنيه اذا هو وفَّره · ازهرَ اللون اي نيره ليس بالابيض الامهق اي الناصع البياض ولا بالآدم اي الاسمر اللون اي انهُ ابيض فيه حمرة · واسعَ الجبين · ازجّ الحواجب الازج المقوَّس الطويل الوافر الشعر سوابغ من غير قرن اي من غير اتصال شعرها بينهما عرق يدره الغضب أقنى العرنين اي سائل الانف مرتفع وسطه له نور يعلوه ويحسبه من لم يتأملهُ اشم اي طويل قصبة الانف · كثّ اللحية اي غزير شعرها تملأُ صدره · ادعج العينين اي شديد سواد حدقتيهما · انجلَ اشكلَ اي واسع العينين في بياضهما حمرة اهدب الاشفار · مدوّر الوجه · سهل الخدين ضليعَ الفم اي واسعه · اشنبَ اي اسنانه في رونق وفيها تحزيز كاسنان الشباب · مفلَّج الاسنان اي بين ثناياه فرق · دقيقَ المسربة وهي خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة كان عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة · اذا افترّ ضاحكاً افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام · واذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه · معتدل الخلق بادناً اي ذا لحم · متماسكاً اي يمسك بعضهُ بعضاً · ليس بالمطهَّم اي مسترخي اللحم ولا بالمكلثم اي مجتمع لحم الوجه · سواءَ البطن والصدر اي مستويهما · مسيحَ الصدر اي ليس فيه قعس واسعه · عظيم المنكبين بعيد ما بينهما · ضخم الكراديس اي رؤُس العظام · عبلَ العضدين والذراعين والاسافل اي ضخمها · رحبَ الراحة اي واسعها · شثنَ الكفين والقدمين اي لحيمهما عظيمهما · سائل الاطراف اي طويل الاصابع · سبط العصب · خمصان الاخمصين اي متجافي اخمص القدم وهو الموضع الذي لا تناله الارض · مسيح القدمين اي املسهما ينبو عنهما الماء · انورَ المتجرّد اي ما

جرّد عنه الثياب من جسده يرى مشرقاً · موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط · عاري الثديين اي من الشعر · اشعر الذراعين والمنكبين واعالي الصدر · طويل الزندين · اذا زال زال تقلعاً اي يرفع رجله بقوة · ويخطو تكفوءاً اي يميل الى سنن المشي وقصده · ويمشي هوناً برفق ووقار ذريع المِشية اذا مشى كانما ينحط من صببٍ اي واسع الخطو اذا مشى يرفع رجليه بسرعة ويمد خطوه خلاف مشية المختال · واذا التفت التفت جميعاً خافض الطرف نظره الى الارض اطول من نظره الى السما جُل نظره الملاحظة ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الاسواق اي عالي الصوت ولا متزين بالفحش ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر كريم الخلق سديد الرأي وافر الحلم لباسه السكينة وشعاره البر وضميره التقوى ومعقوله الحكمة وطبيعته الصدق والوفاء وخُلقه العفو والمعروف وسيرته العدل وشريعته الحق وامامه الهدى وملته الاسلام استكمل الاوصاف الجبلية والكسبية من كمال خلقته وجمال صورته وقوة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه وقوة حواسه واعضائه واعتدال حركاته وشرف نسبه وعزة قومه وكرم ارضه وقوة جاشه وتخلقه بالاخلاق العلية من الدين والحلم والعلم والصبر والشكر والعدل والصدق والزهد والتقوى والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والرفق والتؤدة والوقار والرحمة والرأفة والنزاهة والحزم وقوة العزم وصدق الفراسة والبلاغة والحكمة والحذق والذكاء والفضل والمجد والسودد والشرف والامانة والفطانة وكل ما ينطوي تحت حسن الخُلُق الذي اخبرنا الله تعالى عنه في القرآن بقوله « وانك لعلي خلق عظيم » ثم هو ارجح الناس عقلاً

وافضلهم رأياً يعلم ذلك من تدبيره امر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة وما افاضه على العالم من العلوم وقرره من الشرع من غير تعلم سبق ولا تقدم ممارسة شيء من العلوم على معلم ولا مطالعة كتب ولا مخالطة اهل كتاب فقد بلغ في العلم الغاية القصوى كما يعلم من جوامع كلمه وحكم حديثه وقضايا احكامه واخباره عما في التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحِكَم الحكما وسِيَر الامم الخالية وايامها وضرب الامثال وسياسة الانام وتأصيل الآداب النفسية والشيم الحميدة والفنون التي اتخذ اهلها كلامه فيها قدوة واشارته حجة وهو النبي الامي المبعوث بين الاميين الذين لم يقرأوا كتاباً ولا جالسوا عالماً وذلك فضل الله كما قال « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » جمع الناس بعد النفرة والف الله به بين قلوب مختلفة واهواء مشتتة وامم متفرقة وقبائل متباغضة . وكان قليل النوم قليل الغذاء لم يملئ جوفه شبعاً قط لا يسأل اهله طعاماً ولا يتشهاه ان اطعموه اكل وما اطعموه قبل وما سقوه شرب يجلس للأكل مستوفزاً مقعياً ويقول انما انا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد . لم يبق جوده في يده شيئاً من المال فقد فتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما تاخمها من اطراف الشام والعراق وجلبت اليه اخماسها وجزيتها وصدقتها وسيقت اليه الغنائم وهاداه بعض الملوك بالتحف وما استأثر بشيء من هذا ولا امسك منه درهماً ولا ديناراً بل صرفه في جهته واغنى به غيره وقوّي به المسلمين وقال ما يسرُّني ان لي أُحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار الا ديناراً ارصده لدَيني . وكان يلبس ما وجده ويلبس في الغالب

الشملة والكساء الخشن والبُرد الغليظ ويقسم على من حضره اقبية الديباج المخوّصة بالذهب ويرفع منها لمن لم يحضره · قد جبل على مكارم الاخلاق بجود الهي وفضل رباني لا بمجاهدة ولا برياضة ومعاناة جوع وعطش فان الانبياء فطروا على ذلك من غير تعلم ولا ممارسة كتب تشهد بذلك سيرته وسيرة كل من سيدنا ابراهيم وسيدنا موسى وسيدنا سليمان وسيدنا عيسى وسيدنا يحيى عليهم الصلاة والسلام فان البعض منهم أُوتي الحكمة والعلم وهو مراهق والبعض اوتيها صبياً والبعض اوتيها في المهد فذواتهم مفطورة على توحيد الاله بحيث لو لم يوح اليهم بشرع ما عصوه ولا مالوا الى المعصية · وقد كان عنده من جودة الفطنة والاصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن التدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل وجلالة المكانة وعظم الجاه وحسن الوقار وفخامة القدر وعلو الهمة وصدق العزيمة ونفوذ الكلمة ما امتاز به بين الانام · وكان يؤلف الناس ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوي عن احد منهم بِشرَه ولا خلقه ويتفقد اصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبهم بحيث لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه من جالسه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها او بميسور من القول قد وسع الناس خلقه وبسطه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء يقبل الهدية ولو كراعا ويكافيء عليها ويمازح اصحابه ويضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة

ويقبل عذر المعتذر . ما اخذ احد بيده فيرسلها حتى يرسلها الآخر ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له . يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ اصحابه بالمصافحة ما رؤي قط ماداً رجليه بين اصحابه يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان ابى ويكني اصحابه ويدعوهم باحب اسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على احد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء او قيام ولا يجلس اليه احد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان اكثر الناس تبسماً يكره نقل احاديث الناس اليه ونهى عن ذلك فقال لا يبلغني احد منكم عن احد من اصحابي شيئاً فاني احب ان اخرج اليكم وانا سليم الصدر . يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على من هو احق منهم . يتواضع بين اصحابه تواضع احدهم لرفيقه وقد قدم عليهم يوماً متوكئاً على عصا فقاموا له فقال لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً . ويجلس حيث ما انتهى به المجلس . وفي بيته يكون في مهنة اهله يفلي ثوبه ويحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويكنس البيت ويعقل البعير ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق . وكان اوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من اطرافه كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة ويعرض عمن تكلم بغير جميل . مجلسه مجلس حلم وعلم وحياء وخير وامانة لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم اي لا يقتفى اثرها اشاعة لها . اذا تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير لا يحب التوسع في المآكل والمشارب والفرش زهداً في الدنيا وزخرفها ولذائذها فما اكل على خوان ولا في سكرجة وهي الاناء الصغير

يوضع فيه الأدم ولا خبزله مرقّق ولا شبع من خبز الشعير ثلاثة ايام تباعاً حتى مضى لسبيله ولا بث شكوى لاحد ينام على فراش أَدَم اي جلد حشوه ليف وربما نام على مسح اي كساء من شعر يثني له طاقين او على سرير مرمول بشريط حتى يؤثر في جنبه · وكان خوفه من ربه على قدر علمه به تعالى فكان يصلي حتى تَرِم قدماه و يصوم حتى يقولوا لا يفطر و يفطر حتى يقولوا لا يصوم واذا قام بالليل للصلاة اطال القيام والسجود وسمع لجوفه ازيز كازيز المرجل اي القِدر · قد ابان طريقته المثلى في جوامع كلمه حيث قال المعرفة رأس مالي والعقل اصل ديني والحب اساسي والشوق مركبي وذكر الله انيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قولي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وثمرة فؤادي في ذكره وغمي لاجل امتي وشوقي الى ربي عزوجل · يعظم النعمة وان دقت لا يذم شيئاً ليس بالجافي ولا المهين ولا يقام لغضبه اذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه اذا اشار اشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها واذا غضب اعرض واذا فرح غض طرفه وما انتصر لنفسه قط من مظلمة ظُلمها ما لم تكن حرمة من حرمات الله تعالى · كان عليه برد غليظ الحاشية يوماً فجبذه اعرابي جبذة شديدة حتى اثرت حاشية البُرد في صفحة عاتقه ثم قال يا محمد احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله تعالى الذي عندك فانك لا تحمل لي من مالك ولا من مال ابيك فسكت النبي ثم قال المال مال الله وانا عبده ويقاد منك يا اعرابي ما فعلتَ بي قال الاعرابي لا فقال النبي لِمَ قال الاعرابي

لانك لا تكافئ بالسيئة السيئة فضحك النبي ثم امر ان يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . وتصدى لقتله غورث بن الحارث وهو نائم تحت شجرة وحيداً فانتبه والسيف بيد غورث وهو يقول له من يمنعك مني يا محمد فقال النبي الله اي يمنعني الله فسقط السيف من يد غورث فاخذه النبي وقال من يمنعك مني فقال غورث كن خير آخذ فتركه وعفا عنه . وصبر على معاداة قريش ومقاساة تحاملها واذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم الى ان اظفره الله تعالى عليهم وحكمه فيهم وهم لا يشكون في استئصاله شأفتهم فما زاد على ان عفا وصفح يوم فتح مكة وقال ما تقولون اني فاعل بكم قالوا خيراً اخ كريم وابن اخ كريم فقال اقول كما قال اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فانتم الطلقاء . وكان اذا مشى مع اصحابه ساقهم امامه ومشى خلفهم فلا يتقدمهم كما يتقدم الملوك جنودهم وركب الحمار تواضعاً واردف خلفه اناساً تعليما لمكارم الاخلاق وركب البغلة والخيل والابل وكان يجالس المرضى وذوي العاهات ويؤاكلهم ويسلم على الصبيان اذا لقيهم في طريقه ويكلم كل قبيلة بلغتها ويكتب الى ملوك العرب ورؤساء القبائل والاقيال بلغاتهم ويكرم الوفود على اي دين كانوا ويجادل بالحسنى ويناظر مع ملاحظة الآداب . ويصمت عند تطاول السفهاء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ادبه ربه تعالى بآداب القرآن فاوحى اليه قوله « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين . وطالما ناصبته الجاهلية العداوة وتعرضت له بالاذى وقالت مرة كاهن ومرة شاعر ومرة ساحر وهو معرض عن سفاهتهم وافترائهم منتصب للدعوة الى الله تعالى لايرده عدوانهم ولا يثبطه تحالفهم على رده ومعارضته

وكان ابوه صلى الله تعالى عليه وسلم اصغر اخوته وقد نذر جده عبد المطلب حين عارضته قريش واتعبته في حفره بئر زمزم لئن رزقه الله عشرة بنين يمنعونه من قريش لينحرن احدهم عند الكعبة لله تعالى فرزقه أبا طالب واسمه عبد مناف · والعباس · وعبدالله · والغيداق · وحمزة · والحرث · والزبير · وضرارا · والمقوّم · وعبد العزى الملقب بأبي لهب · ورزقه من البنات عاتكة · وصفية · واروى · وام حكيم · وبرة · واميمة · وكان عبدالله وابو طالب والزبير وعبد الكعبة الملقب بالمقوم وعاتكة واميمة وبرة من ام واحدة هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة · فاراد عبد المطلب وفاء نذره فاخبر اولاده وامر كل واحد ان يكتب اسمه على قدح ثم جاء بهم صاحب القداح التي كانوا يضربونها عند كل امر ارادوه وقال له اضرب بقداح بنيّ هؤلاء واخبره بنذره فضرب فخرج السهم على عبدالله فاخذ ابوه بيده فقامت قريش وقالت ما تريد من ابنك قال اذبحه وفاء بنذري فمنعته وقالت والله لا تفعل لئلا تكون سنة يأتي الرجل منا بابنه فيذبحه في نذره وذهبوا به الى كاهنة كانت بخيبر فقالت ارجعوا الى بلادكم واضربوا القداح عليه وعلى عشرة من الابل فان خرجت على الابل فانحروها او لا فزيدوها حتى تخرج القداح عليها فرجعوا وضربوا على عشرة فخرجت على عبدالله فما زالوا يزيدون عشرة بعد عشرة حتى بلغت مائة فضرب عبد المطلب على المائة ثلاث مرات وهي تخرج عليها فامر بنحرها وتخلية سبيلها لكل جائع من انسان او سبع فلذلك يقال لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ابن الذبيحين عبدالله واسمعيل فان معظم الامة يقول انه

الذبيح لا اسحق . وعبد المطلب هذا اسمه شيبة وامه سلمى بنت عمرو الخزرجية النجارية تزوجها هاشم بالمدينة وحملها الى مكة فلما حملت وقاربت الوضع عادت الى اهلها فولدته بالمدينة ومات ابوه بغزة فبقي عند اخواله حتى ذهب عمه المطلب بن عبد مناف فأتى به يردفه خلفه فلما دخل مكة قيل له من هذا فقال عبد لي ثم البسه حلة واخرجه الى قريش وقال هذا ابن اخي هاشم فاشتهر بعبد المطلب وكان لعبد المطلب السقاية والرفادة وهو الذي حفر بئر زمزم التي هي بئر اسمعيل عليه السلام وكانت جرهم قد دفنتها وعند ما اظهرها وحفرها جاءته قريش وقالت بئر ابينا اسمعيل فاشركنا معك فأبى عليهم فحكموا كاهنة بني سعد بن هذيم وكانت بضواحي الشام فركبوا اليها وبينما هم في الطريق فرغ ماء جماعة عبد المطلب واشتد بهم الظماء ولم تسقهم قريش فقال لهم عبد المطلب ليحفر كل منا حفرة حتى اذا مات احدنا واراه اصحابه حتى يكون آخرنا موتاً قد وارى جميع اصحابه فضيعة رجل واحد خير من ضيعة عشرة رجال فحفروا كما قال وبقيت قريش تشرب من مائها ولا تسقيهم حتى مشى عبد المطلب يبحث على ماء فساخت قدم ناقته فنبع الماء وشرب قومه فقالت قريش الذي سقاك الماء في هذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم هي لك بلا معارض ورجعوا ووجدوا في بئر زمزم حال حفرها غزالين من ذهب واسيافاً ودروعاً القتها جرهم فيها فارادت قريش مشاركته فقال نضرب عليها القداح فخرج الغزالان للكعبة والاسياف والدروع له فضرب الاسياف باباً للكعبة وحلاه بالغزالين . وهو اول من تعبد بحراء فكان اذا جاء رمضان خرج اليه واطعم المساكين طول الشهر فوقه

وله مع ملك الحبشة القصة المشهورة عند ما جاء لحرب مكة في العام الشهير بعام الفيل · وعبد المطلب هذا ابن هاشم وكان هاشم احد اخوة اربعة هو والمطلب وعبد شمس ونوفل واسم هاشم عمرو وهو اول من هشم الثريد لقومه واطعم اهل مكة وكانت له السقاية والرفادة فحسده امية بن عبد شمس على سيادته واطعامه الطعام ونافره فتحاكما الى الكاهن الخزاعي بعسفان على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين فقضى الكاهن لهاشم فاخذ الابل ونحرها واطعمها الناس ورحل امية الى الشام عشر سنين فكانت اول عداوة بين هاشم وامية · وابوه عبد مناف اسمه المغيرة وهو الذي عقد الحلف بين قريش والاحابيش وكان جميلاً جداً وهو احد اربعة اخوة هو وعبد الدار وعبد العزّى وعبد بن قصي · وابوه قصي اسمه زيد وسمي قصياً لان امه تزوجت غير ابيه وهو صغير فانتقلت به الى بلاد عذرة مقر زوجها ربيعة بن حرام فلما كبر نافره قضاعي وعيّره بالغربة فرجع الى امه فاخبرته بنسبه وشرف قومه فانتظر حتى جاء الشهر الحرام وخرج مع الحاج حتى اتى مكة واقام مع اخيه زهرة ثم خطب من حليل بن حبشية الخزاعي ابنته حبى فزوجه اياها وكان حليل والي البيت الحرام فاوصى بولايته لابنته فقالت اني لا اقدر على فتح الباب واغلاقه فجعلها لابنه المحترش الملقب بابي غبشان فاشترى قصي منه الولاية فلما رأت خزاعة ذلك تكاثروا على قصي فاستنصر اخاه لامه رزاح بن ربيعة فحضر مع اخوته ومن جاء معهم من قضاعة وتهيأ بنو النضر مع قصي ووقعت الحرب بينهم وبين خزاعة وبني بكر فكثرت القتلى ثم مالوا الى الصلح وحكموا عمرا بن عوف بن كعب فقضى لقصي بولاية

البيت ومكة واهدر كل دم اصابه قصي من خزاعة ثم جمع قصي قومه من الشعاب والاودية والجبال واسكنهم مكة وانزل بني محارب بن فهر وبني الحرث بن فهر وبني بغيض بن عامر وبني تيم الادرم بظواهر مكة فسموا قريش الظواهر ثم اجتمع الفريقان وولوه الملك عليهم فكان اول ولد كعب بن لؤي ملكاً وكان اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز كل شرف قريش وتيمنت قريش به فما نتزوج امرأة ولا يعقد لواء ولا يتشاورون في امر الا في داره · وخطب في قومه فقال انكم جيران الله واهل بيته وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً ايام الحج فكانوا يخرجون من اموالهم فيصنع به الطعام ايام منى فجرى الامر على ذلك جاهلية واسلاماً مدة وهذا هو الرفادة · ولما كبر وكان ابنه عبد مناف ساد قومه وانتهت اليه الرآسة في حياة ابيه شكا اليه عبد الدار ضعفه في قومه فاعطاه دار الندوة وحجابة الكعبة واللواء فلا يعقد لقريش لواء الا بيده والسقاية والرفادة · اما اللواء فبقي في بنيه الى ان جاء الاسلام فابطله واما الرفادة والسقاية فان بني هاشم وبني عبد شمس وبني المطلب وبني نوفل اجمعوا على اخذهما من بني عبد الدار لشرفهم عليهم فتفرقت قريش مع الفريقين فكان بنو زهرة وبنو اسد وبنو تميم وبنو الحرث مع بني عبد مناف وكان بنو سهم وبنو جمح وبنو مخزوم وبنو عدي مع بني عبد الدار وتحالف كل فريق مع حزبه وتهيأوا للقتال ثم انتهوا الى الصلح على ان تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف فكانتا بعده في هاشم ابنه ثم للمطلب اخيه ثم لابي طالب ثم اعطاها لاخيه العباس واما

دار الندوة فبقيت لعبد الدار وولده من بعده حتى باعها عكرمة بن عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن معاوية بن ابي سفيان فجعلها دار الامارة بمكة ثم دخلت الحرم واما الحجابة فبقيت في بني عبد الدار الى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان بن ابي طلحة بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار ٠ وانما ذكرنا هذه النبذة من تاريخ اجداده صلى الله تعالى عليه وسلم لتعلم انه سيد ابن اسياد وانه عريق في الشرف والمجد ولا تزال لترقى اجداده الى عدنان وكل واحد له فضل مأثور وذكر مشهور وسيادة في قومه وعز بين قبائله فلم يجئ من قوم ادنياء ولا من جماعة وضعاء ولا من سفلة الناس بل جاء من اعز بيت واشرفه واكرم قبيلة واعزها وافضل شعب وامجده تحوطه السيادة من آبائه وامهاته ولولا خشية الملل لذكرت آباءه أباً أباً وامهاته أماً أماً ولكن ذلك مشتهر معلوم مدون في امهات الانساب ومطولات كتب السير والاخبار ٠ توفي ابوه عبدالله بالمدينة وقد ارسله ابوه عبد المطلب يمتار له تمرًا والنبي حمل في بطن امه ثم ولدته وارضعته في بني سعد فان العرب كانوا يرضعون اولادهم من الغير لياتي الولد نجيبا اذ كانوا يقولون ان ارضاع الام ولدها مفسد لاخلاقه وذلك لانها ترضعه فوق ما يلزم من اللبن شفقة عليه وهي انما تسمى في التخمة فتجلب عليه الامراض بسوء تدبيرها ثم انها تقصر في كفه عن القبيح رحمة به فيخرج سفيهاً غير مهذب بخلاف المرضع فانها لا ترضعه الا ما يلزم من اللبن لقوته وتنظفه وتتركه يتحرك ويتريض وتقهره عند ما يشب ويمشي وترده عن الرذائل بعنف لئلا يعود فيخرج مؤهلا للكمالات ٠ وقد كفله بعد ابيه جده عبد المطلب حتى

توفي فكفله عمه ابو طالب حتى كبر فكان يسمى بين اهل مكة الامين وما وقعوا في امر الا حكموه فيه واشتهر بالصدق والشجاعة والامانة وعلو الهمة فلما بلغ الخامسة والعشرين من عمره خطب له عمه ابو طالب خديجة بنت خويلد بعد ان ارسلت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعرض نفسها عليه للزواج فامهرها ابو طالب ودعا قريشاً وخطب فيهم خطبته الشهيرة فدخل بها واولدها القاسم وعبدالله وفاطمة ورقية وزينب وام كلثوم واولد مارية القبطية ابراهيم . وقد حضر عليه الصلاة والسلام حلف الفضول وهو ان الفضيل بن الحرث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطوري والمفضل بن فضالة الجرهمي اجتمعوا فتحالفوا على ان لا يقرّوا ببطن مكة ظالماً وقالوا ان الله تعالى عظم امر مكة فلا ينبغي لها الا ذلك ثم درس ذلك بتوالي الزمن حتى اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو اسد وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان وتحالفوا على انهم لا يجدون بمكة مظلوماً من اهلها او من غيرهم الا قاموا معه وكانوا على ظالمه حتى ترد اليه مظلمته وسموا ذلك الحلف حلف الفضول وقد حضره النبي وقال حين ارسله الله تعالى لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما احب ان لي به حمر النعم ولو دعيت به في الاسلام لاجبت . فانظر هذه المكرمة التي اتخذها العرب ايام الجاهلية وهم سكان جبال وقفار ما قرأوا كتاباً ولا عرفوا مدينة ولا خالطوا امماً مهذبة وهل يوجد في الجمعيات الانسانية التي تفتخر بها اوروبا الآن جمعية مثل هذه التي تاخذ للمظلوم بحقه من الظالم وتحفظ الحقوق لاهلها وتكف يد الاستبداد عن كل ذي روح . كل جمعية انسانية

بعد هذه لا تساويها في الدرجة كيفما علت مراتبها وشرفت مقاصدها
ووقع بين سيدنا الحسين ابن سيدنا علي بن ابي طالب وبين الوليد بن عتبة
منازعة وهو اذ ذاك على المدينة من طرف عمه معاوية فتحامل الوليد على
سيدنا الحسين لتمكنه من القوة والسلطان فقال له الحسين اقسم بالله
لتنصفني او لآخذن سيفي ثم لاقومن في مسجد رسول الله صلى الله تعالى
عليه وسلم ثم لادعون بحلف الفضول فقال عبد الله بن الزبير وانا احلف
بالله لو دعا به لاجبته حتى ينصف من حقه او نموت وبلغ الخبر المسور
بن مخرمة وعبد الرحمن بن عثمان التيمي فقالا مثل مقالته فلما رأى الوليد
تدافع الناس حوله انصف سيدنا الحسين من نفسه ورد له حقه . ولو وجدت
جمعيات كهذه الآن لابادت خلقاً كثيراً . وفي السنة الخامسة والثلاثين
من مولد النبي صلى الله عليه وسلم هدمت قريش البيت وبنته حتى بلغ
البنيان موضع الركن وفيه يوضع الحجر الاسود فارادت كل قبيلة رفعه الى
موضعه ووقع بينهم الخلاف وانتهى الى تحالفهم على القتال ومكثوا اربع ليال
يتشاورون فقال ابو امية بن المغيرة اجعلوا بينكم اول من يدخل عليكم
المسجد حكماً يقضي بينكم فدخل النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا هذا الامين
قد جاء رضينا بحكمه واخبروه الخبر فقال هلموا الي ثوباً فاتوه به فاخذ
الحجر الاسود ووضعه في الثوب ثم قال لتاخذ كل قبيلة بناحية من الثوب
ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا فلما بلغوا به الموضع الذي يوضع فيه وضعه بيده ثم بنى
عليه . وكان الذي يلي هذا البيت سيدنا اسمعيل ووليه بعده ابنه نبت ثم
غلبت جرهم على ولد اسمعيل فاخذته منهم فوليه مضاض ثم بنوه من بعده

حتى بغت جرهم واستحلت حرمة البيت وظلموا من دخل مكة من الحاج وغيرهم وظهر فيهم الزنا والفساد فسلط الله عليهم الرعاف ثم اجتمعت خزاعة على اجلائهم فاقتتلوا حتى هزمت جرهم فخرجت الى ارض جهينة فجاءها سيل فذهب بهم اجمعين وفيهم يقول عمرو بن الحرث

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا　　انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فابادنا　　صروف الليالي والجدود العواثر

فولي البيت بعدهم عمرو بن ربيعة رئيس خزاعة ثم وليته قريش بعد خزاعة الى ان جاء قصيّ فاخذه وانفرد برآسته بين قريش كما تقدم . ثم اخذ النبيّ يتعبد في غار حراء من صغره فلم يعبد وثنا ولا حضر ذبيحة لصنم ولا اجتمع مع قريش في مجمع عبادة بل كان يخلو بنفسه في الجبل وربما اقام فيه الليالي الكثيرة العدد وكلما رأى قريشاً حول الاصنام سفه احلامهم وقبح آراءهم وزجرهم عن عبادة صور يصنعونها وحجارة ينحتونها بايديهم وذكرهم بدين ابيهم ابراهيم وكان اليهود يحذرونه ويقولون نخشى ان يكون هذا المبعوث آخر الانبياء فيبطل ديننا ويدعو الى كلمة سواء وقد حذر بحيرا الراهب عمه ابا طالب وقال ان ابن اخيك هذا يكون له شأن عظيم ولئن ظفر به بنو اسرائيل ليفعلن به شرًّا فاحذرهم واحتفظ به وعاش في قومه اربعين سنة قبل ان يرسله الله تعالى ما ضبطوا عليه كذبة ولا رأوه وقع في مكروه ولا تلبس بمعصية ولا تعدي على احد ولا تعرض لجاره ولا طمع في مال ولا تطلع لجاه ولا زاحمهم في نادي لهو ولعب ولا شاركهم في شيء من عوائد الجاهلية ولا بخل بعطاء ولا حكم بغير حق ولا تكلم بلغو ولا افحش في قول ولا اثار فتنة

ولا وشى باحد ولا نم على احد ولا افسد بين اثنين ولا قصر في صلح المتنافرين وتأليف المتباغضين حتى كان احب الى قريش من ابنائها بل من انفسها لما خص به من الصفات الحميدة والاخلاق الجليلة والافعال الجميلة وكان على جانب عظيم من اللين يطمع الطفل ان يقعد في حجره ويعبث في زردائه ينتصر للمظلوم ويتقاضى له خصمه ويعينه على رد حقه ٠ لا ينطق الا بقول فصل وحكم عدل له هيبة في القلوب كانه ملك محاط بجنود واعوان دخل عليه في بيته رجل فاخذته الهيبة فارتعد فقال له هوّن عليك فانما انا ابن امرأة كانت تأكل القدّيد فتنازل له في الخطاب ونسب نفسه الى امه تواضعا ووصفها بانها كانت تأكل القديد لئلا يظن الرجل انه ابن ملك فيقع في قلبه ما يقع عند مقابلته الملوك وهذا تواضع غريب واين جانب لم يلحقه فيه لاحق وكم له من سجايا واخلاق واوصاف ان وجدت واحدة منها في انسان انطلقت الالسنة بمدحه والثناء عليه بما يفوق الاطراء وقد جمعت فيه خلقة وفطرة بخلق الله تعالى وحسن عنايته به فحق له ان يفتخر بقوله ادبني ربي فاحسن تأديبي

٣٢ غ

ومن الذي رباه هذه التربية وعلمه هذه العلوم وفي اي مكتب وصل الى هذا التأديب والتهذيب فان الانبياء السابقين تعلّم كل منهم على استاذ معين وهو صغير ثم افيضت عليه الكمالات حتى تأهل للرسالة فارسله الله تعالى وهو مرشح لارشاد الخلق ودعوتهم الى عبادته ولم يبعث نبي الا وهو متعلم ما به يؤيد حجته ويقيم برهانه فان مجرد الارسال لم يكن كافياً في بث

الحق في اذهان الناس خصوصاً ومعظم الانبياء انما بعث الى قوم وثنيين فنزع ما بأفكارهم من الاعتقاد المتوارث عن آبائهم لا يكون بمجرد الاخبار بالرسالة او قراءة شيء من الكتاب الداعي الى الاخذ به والعمل بما فيه بل لا بد وان تكون الدعوة مصطحبة بقوّة علمية جدلية واقتدار على المناظرة واطلاع على سير الامم واحوالهم فلهذا تعجبت من حسن ما سردته من سيرة نبيكم وطلبت منك بيان مكتبه ومعلمه لأكون على يقين في شأنه .

ش

انت تعلم ان نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بمكة كما اخبرتك وكانت مسكن الاميين بل ان العرب كادوا ان تعمهم الامية فانه ما كان يوجد في مثل مكة الا آحاد من الناس يعرفون الكتابة ممن يترددون على اليمن وبلاد نجران وبلاد الشام للتجارة وحضور المواسم وقد تربى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم في بني سعد رضيعاً ثم سلمته مرضعته الى جده عبد المطلب وهو تركه تحت وصاية عمه ابي طالب فخرج اميا لم يتعلم قراءة ولا كتابة ولاجلس بين يدي معلم من اهل الكتاب يدلك على ذلك اطباق الامم على اختلاف اديانهم واوطانهم ولغاتهم على انه امي وعدم اتهام قريش له بقراءة كتاب او حفظ تاريخ ولم يسمع ذلك عنهم مع انه تعرض لتسفيه احلامهم وتزييف عبادتهم وتقبيح عوائدهم ودفعهم عن معبوداتهم الباطلة باشد ما يكون من التقريع والتوبيخ ولم يتجرأ واحد منهم على نسبة ما يقوله للكتاب او لمعلم غاية ما قالوه بعد انتشار دعوته ان سلمان الفارسي يعلمه مع انه ما صحبه الا بعد الدعوة بكثير على انه كان فارسي العبارة لا يحسن العربية والنبي لم يتعلم

الفارسية حتى يحسن الاخذ عنه وما أخرهم عن نسبته الى معلمين الا علمهم بانه تربى بين ايديهم لم يخط بقلم ولا قرأ في كتاب ولا صحب كاهنا ولا حبرا ولا عالماً بالسير والاخبار وكان اكثر ما يقولون انه ساحر او كذاب وهذان وصفان لا يستلزمان سبق تعلم قرأة او كتابة فان السحر قد يشتغل به الرجال الذين لا يكتبون والنساء اللائي لم يخالطن العلماء والقراء فلذا سهل عليهم رميه به ونسبته اليه ولطالما وقع لهم معه وقائع تستدعي الكتابة كيوم الحديبية فاستدعى عليا بن ابي طالب ليكتب عنه ولم يقل له احدهم اكتب بيدك فانك متعلم لست بامي · وكما انه لم يتعلم الكتابة لم يجالس كهانهم وحكماءهم لعلمه انهم يتكلمون باللغو والباطل و يجذبون قلوب الناس بما يفترونه ومـا يزينونه لهم من الاعمال فكان يتحاشى مجالس هولاء و يجالس الاميين والضعفاء ولو كان تعلم شيئاً من العلوم او صحب عالما مرة لامتلأت كتب الاخبار بذلك خصوصاً كتب الذين يعارضون دينه و يبحثون على ما يضعفون به حجته و يدفعون به دعواه الأيحاء اليه خصوصا عندما يسمعون قول الله تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر · وقصص كتاب الوحي معه لا يخلو منها تاريخ ولا ينكرها من له ادنى اطلاع فهو امي امية لم تشب بتعليم ما والذي تسمعه من سيرته فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

غ ٣٣

ومن اي شيء كان يرتزق قبل بعثته فاني اسمع كثيرًا من الناس يقولون انه كان يأكل من مال زوجته خديجة

ش

من لا اطلاع له على الحقائق والسير الحقة يقول ما يشاء لا يبالي اخطأ او اصاب فان شهرة آبائه و بيت هاشم تغني عن التفصيل ولكن لزيادة الايضاح اقول لك ان جده عبد المطلب كان غنياً بل كان اغنى اهل مكة وقصته مع ابرهة ملك الحبشة في طلبه رد ابله معلومة وكذلك افتداؤه ولده عبدالله بمائة ناقة وذبحه للحاج ما يقوم بكثير من الوفود و بعد وفاته كان في كفالة عمه ابي طالب وكان عمه هذا يتجر في القماش والزيوت وله حظ وافر بين اهل مكة وقد امهر خديجه عشر قلائص وغنى عميه العباس وعبد العزي لا يختلف فيه اثنان فهو من بيت مجد وشرف وثروة تناسب حال ذاك الزمن وتلك البقعة الجرداء وما كانت تنفقه خديجة انما هو في خاصة نفسها وحاجة بيتها فان الركون الى ثروة المرأة لم يكن مالوفاً عند العرب كما هو مالوف عند الاورو بيين الآن وقد بقي عمه ابو طالب حياً ينفق عليه حتى بلغ من العمر تسعاً واربعين سنة ولو علم اهل مكة ان خديجة كانت تنفق عليه وتطعمه لعيروه بذلك وعدوه من دواعي احتقاره وعدم اعتباره ولم يسمع من اهل مكة قول في هذه القضية وعند ما امر بالقتال كان يأكل من سهمه الذي ياخذه من الغنائم . ومعلوم انه بنى امره على الزهد والاقتصاد وعدم التوسع في المعيشة فلذلك كان يقنع بميسور العيش وما زاد عن نفقته ينفقه ولا يتركه يبيت عنده ومن كانت هذه صفته كان ابعد الناس عن التطلع لمال الغير والطمع فيما بايدي الناس من النعمة وسيان عنده ايسرت زوجته او اعسرت الا ترى انه اخذ زوجات بعدها

كان ينفق عليهن وليس لاحداهن شيء يذكر من المال والمتاع فهو في نزاهة نفس وغنى بيت لا يذكر في جانبه احتياجه لمثر او مثرية خصوصاً وثقته بالله تعالى لا تعادلها ثقة مخلوق وهو يقول له لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى

٣٤ غ

انه زوج بعض بناته قبل بعثته فعلى اي شرع كان يزوج ويتزوج

ش

كان يزوج ويتزوج على شرع اسمعيل فقد كانت العقود عندهم موقوفة على ايجاب وقبول وكانوا يمهرون النساء ويولمون لحضور القبيلة مجلس العقد فيقوم الرجل ويخطب الخطبة وفيها يصرح بخطبة المراة ومقدار مهرها فيجيبه الولي وتتم صفة العقد على صورة شرعية وعلى هذه الصورة زوج بناته وتزوج ازواجه وكذلك اباؤه الاعلون ما اخذوا زوجاً بغير عقد شرعي كما قال ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء

غ

حسبك الآن سرد ما قلته وفي غد نجتمع ان شاء الله فان عندي اشغالاً تختص بالعزبة اذ لا يخفاك اننا نجمع القطن الآن واحب ان اقف آخر النهار عند المخزن لوزن ما يحضره الجماعون وملاحظة وضعه في المحل الذي اعينه للشغالة — هذا صديقنا المحترم محمد الممشري حضر من طرانيس

محمد

السلام عليكم ورحمة الله — ان حضرة الاستاذ الاكبر رضي الله تعالى

عنه يسلم عليك ويقول لك دع عنك هذه الوساوس والاوهام واشتغل بطاعة الله تعالى واكثر من ذكر الله ليلاً فانه ينوّر الباطن ويصفي القلب ولا تعلق آملك بخروجك في هذا العام او الذي بعده فان الامد طويل وعلمه عند الله تعالى والشيء الذي استأثر الله بعلمه لا تشغل نفسك به بل اشغل وقتك بما ينفعك ولا ينفعك الآن الا الالتجاء الى الله تعالى والانقطاع اليه والتوسل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانك في حالة لا ينفعك فيها صديق ولا صاحب ولا يقرب منك اخ ولا خليل وليس بعد هذه الشدّة شدة فاجتهد في الطاعة والابتهال الى الله تعالى واعمر وقتك بالعبادة او بالاشتغال بكتابة تنفع عباد الله تعالى وقد اكد عليّ ان اشدّد عليك بطلب قراءة سورة يس احدى واربعين مرّة كل ليلة وان قرأتها العدد المذكور في النهار مرّة كذلك كان احسن وقد اخبرني بذلك وهو ضاحك فاستبشرت وزال ما عندي من الفكر في شأنك والله تعالى يحسن العواقب

غ ٣٥

من هذا الاستاذ واي ارتباط بينك وبينه

ش

هو استاذنا الكامل المولى الفاضل الورع التقي السيد شحاتة القصبي وهو شيخ من الصالحين المنقطعين الى الله تعالى ولكنه يأكل من كسبه ويقيم ببيته ولا يطلب من الناس شيئاً ولا يأخذ عوائد من مريديه كما يفعل اشياخ الطريق بل بيته مفتوح للصادر والوارد وكرمه زائد وفضله مشهور وهو الذي اخبر صديقي محمدا الهمشري بمكاني الاول وبعث لي جواباً يقول لي

فيه قم معه ولا تبرح من عنده حتى يأتيك اذني ولي به ثقة عظيمة لتقواه وحسن صلاحه وقوة يقينه ولطف سيرته التي انفرد بهـا في عصره ونحن معاشر المسلمين نعتقد ان الارواح الطاهرة تلهم من جانب الحق سبحانه وتعالى ما لا تلهمه الارواح الخبيثة فلنا اعتقاد في الصالحين من شيوخنا لا على ما اخبرتني به في اسكندرية من اننا نعتقد ان الاولياء يخلقون و يدفعون المصائب بانفسهم ويجابون النوائب بقدرتهم فان اعتقاد ذلك كفر صريح عندنا وانما نعتقد ان دعاء الصالحين اقرب للاجابة من دعاء غيرهم فلذا نقصدهم لطلب الدعاء عسى الله ان يقضي الحوائج ببركة دعائهم فقد قال في كتابه الذي نعتقد صحته · ادعوني استجب لكم · وهؤلاء الاشياخ تلقوا كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله عن اشياخهم بالسند المتصل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فالناس وان تلقوها عن آبائهم وصاروا بها مسلمين فانهم ياخذونها عن الاشياخ للتبرك بالسند الذي هو كالحجة والبرهان اوكالرخصة من الشارع في ذكرها · ثم ان الاشياخ شانهم بذل النصيحة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم مكارم الاخلاق والحث على الطاعة · وكل شيخ له جملة تلاميذ يتلقون عنه وهؤلاء يصيرون اخواناً ينفع بعضهم بعضاً ويتزاورون ويتناصحون ويتساألون فيما بينهم عن العقائد والفوائد النافعة للدين والدنيا ولا يوجد في الجمعيات التي عقدت للمؤاخاة ما يوجد عند اخوان الطريق المخلصين من الالفة وحسن التودد ومدار ذلك على استقامة شيخهم وحسن سيرته فان كان مستقيماً مخلصاً بعيداً عن الرياء وحب المظهر والجاه مقيداً بالكتاب والسنة كان

ابناؤه على قدمه. وانتفعوا بصحبته ومواعظه وان كان من اهل الدعاوي الباطلة المحبين للمظهر والجاه المتعرضين لاموال الناس المقصرين في الطاعة الميالين للبدع والاهواء لم ينتفع به احد ولا تؤثر تربيته ولا يفيد مريديه غير الخسران والضلال بتقاليده فيما يدعيه وينتحله. والناس تظن في شيوخ الطريق الظنون الفاسدة ويرمونهم بالنقيصة جهلاً بحقيقة الامر وقياساً لاهل الحق على ما يرونه من اهل الباطل. انظر لشيخنا كيف يامر بالطاعة وينهي عن المعصية ويحيل الامر على ما عند الله ويلزمني بالانقطاع عن الخلق والالتجاء الى الخالق والاشتغال بذكره ليصرف عني الوهم والافكار السيئة ويريحني من الهواجس والخواطر بما يحدثه التوكل على الله تعالى من الثقة به وعدم الخوف من سواه واطمئنان النفس بركونها الى العزيز القادر جل شأنه فآكل واشرب وانام وانا في راحة بال منصرف عن الهواجس موقن بان المقدر كائن فان كان خيراً فلا يدفعه الامن وان شرًا فلا يمنعه الخوف فاولى ان اريح افكاري واشتغل بما امر به تاركا العقبى لما جرت به المقادير من قبل

٣٦ غ

وهل تقابلت مع الشيخ في هذا الاختفاء قبل حضورك هنا .

ش

لم اتقابل معه الى الآن وانما بعثت اليه من اخبره بمكاني الاول وكنت عازماً على السفر الى الشام ومنها الى اوروبا فمنعني من الخروج من البلاد وامرني بالتستر حتى يقضي الله تعالى بالفرج وقد رايت بركة رأيه فان السيد حسن موسى العقاد وسليمان بك سامي قبض عليهما بعد خروجهما من البلاد فلو كنت

خرجت الى الشام لقبض عليّ هناك كما قبض عليها في بلاد الدولة . وانا الآن آمن في هذا المكان معتقد انه لا يصيبني الاّ ما قدره الله تعالى واراده . وما احب ان اخرج الى بلادكم بطريق الهرب فاني غير واثق بنجاح اعمل لي هناك لعلمي ان الشرقيّ لا ينتفع بشيء منها الا ان يتجر في مصنوعها بارساله الى الشرق وربما لم يصادف نجاحاً بمعاكسة اهلها له وليس عندي ثروة تساعدني على الاقامة فيها بلا عمل ولا اريد ان اكلفكم بصرف زائد لاجل غير معلوم فأولى لي ان اقيم ببلادي منتظرًا تفريج كربي ولا يخفاك ان كل شيء له غاية ينتهي اليها وامري لا بد وان ينتهي باحدى الغايتين السلامة وهي المرجوة او العطب فلا ينبغي ان اجعل حياتي المتوسطة بين الوقت الحاضر والغاية محل كدر واوهام بل اللازم ان اصرف الوقت في عبادة وكتابة حتى اصل الى الغاية وانا صحيح الفكر والجسم ان شاء الله تعالى

٣٦ س

ارى ان السيد بعد سرد صفات نبيهم (عليه الصلاة والسلام) سيدخل على المسئلة الشرقية ببيان اصول دعوتهم وانتشارها وابتداء التخاذل الحاصل بين الامم الآن بسبب الخلاف الديني واحب ان يؤخر السيد هذا ويوسع لي من جانبه ما يمكنني من الخوض معه اولاً في بحر عصبيته الشرقية الاريية او السامية وما كانت عليه قبل البعثتين وبعدها من حيث المدنية والسياسة والعوائد والاخلاق والمعاملة وارتباط فروع هذه الجنسية المنتشرة في جزيرة العرب والشام ومصر والغرب والعراق والحبشة وما تخلل الحالتين من العوارض والمقتضيات وما بارضكم من المعدات العمرانية والمعينات الاستيطانية وما خصصتم به من

الطباع والفطريات قبل ان ندخل في المقابلة بين المسئتين الشرقية والغربية لاقف على الحقائق اصولاً وفروعا قديماً وحديثاً حتى لا ارجع الى الحوادث الحالية ومظاهرها واعرف سياسة ملوككم واطبقها على سير عصبيتكم لا تبين النفور الحاصل الآن بين المائين في وطن او وطنين واتحقق ما للعصبية الشرقية من الارتباط والافتراق قبل البعثتين فاني ارى هذا البحث يكشف وجوه المسئلتين لمن لا وقوف له على الحقائق الا بالسماع والتلفيق من متعصب او متغال في الاطراء او متلون بشريعة ...

ش

لم تقترحي غير ما هممت بان اوعز اليك به فاطرحي رداء المحاباة والمالأة وشمري عن ساعد الجد في البحث والنقد والاعتراض واستقصاء احوالنا الشرقية وكل ما كان عليه قومنا وما طرأ عليهم ولا تؤخري امرا مراعاة لجانبي ولا تتغاضى عن آخر في جانبك فهات سؤالا وخذي جوابا حرًّا لنا وعلينا فالمباحث تكشف الحقائق وتعرف البسائط وتحل المركبات غير اني ارجوك ملاحظة انتظام الموضوع وتتبع فروعه من غير شذوذ الى غيره مع مراقبة اننا في التأسيس الشرقي فلا تحولي عنه الى التفريع وعوارض المسئلتين حتى لا تتشوش المطالب بتوزيعها في اطراف المناظرة ونرجو حضرة الخواجة ان يمعن النظر ويدقق البحث فيما يدور بيننا لينبهنا على خطاء او يردنا عن خروج او يعترضنا بما يعن له كما ارجوك ان لا تخرجي بي الى ما يعجزني عن الجواب لعدم المواد وان لا تؤاخذيني بما اقصر فيه مما اقف عند المتخيل منه او المحفوظ فان سؤالك تضمن مباحث طويلة ومواضيع واسعة .

٣٧ س

ماحملني على تطلابي هذه المباحث والوقوف على حقائقكم قبل البعثتين الا فكر اشغل ذهني وذهول اعتراني وأسف عظيم اكمدني عند ما مررت في فلوات الشام وبجانب بلدانه في الشهر الماضي عند قدومي من دمشق الى بيروت بعد ما زرت شقيقتي اذ رأيت آثار التدمير والتخريب ونظرت في تلك الاودية الوسيعة الخالية من السكان وقدرت عدداً من النفوس العادمة ممن كان يسكنها ويعمرها فكاد يخلع عظمه قلبي لشدة تأثره به ثم تصورت ان تلك الارواح الطاهرة والنفوس الزكية اقتطفت زهرة حياتها من رؤس اغصانها في سبيل الدعوات الدينية والمغالبات الملكية وبينما انا اتذكر في تلك الام وما دهمها من الغارات خطرت لي الحروب الصليبية ومن هلك فيها من الامتين الشرقية والغربية فهترت جوانحي وتشنجت اعضائي وارسلت عيوني دمعاً كاد ان يخط له مجرى في خدي وكلما هممت بتخطيء امة من وجه صوبت عملها من آخر ولا اراك الا متأسفاً مثلي نائماً على من انقم عليهم عند كشف حقائق الظالمين والمتغلبين فانما العرب والشاميون فرعان من الفروع السامية او الاريية وقد اخذا دوراً عظيماً في المدنية ايام الجاهلية الاولى . غلبني البكاء بمجرد التذكار فلا حول ولا . . . .

ش

آه اوّاه من الم، ألمّ باجسام العقلاء لابرء منه مدة دوام الشام وهي لا انقضاء لها ما بقيت الاجزاء الارضية اشركيني معك في سح الدمع ساعة على جنة يبست اغصان ثروتها وذوت ازهار بهجتها ونضبت مياه حياتها

فاصبحت محل تذكار واعتبار · تلك الساحة التي كانت ميدان الرهان ومجرى السوابق ومنشأ الصناعة ومكتب المعارف ومبدأ السياحة ومجمع التجارة ومرجع الملاحة ومسكن العز ومثوى الرفاهية ومعقل الالتجاء ومرجع المفاخر ووطن الحركة وارض النشاط ضربت عليها السعادة خيامها فقصدها العالم يتفياء ظلالها ويتداوى بعرف شذاها ويقتبس من نور معارفها ما يستضيء به في ظلمات اوطانه · هذه هي الارض المباركة الطيبة التي بذر فيها وفي مجاورها الجنس القوقاسي حبة الاصل الاريمي فانبتت شجرة مباركة تحلت بفروعها العربية والشامية والمصرية والتونسية والمراكشية والعراقية والحبشية ثم نمت تلك الفروع وتشعبت منها اغصان عمرت كثيراً من الخراب واصلحت اقطاراً فاسدة وزاحمت الوحش في غاباته حتى طردته الى الاقاصي وزينت وجه الارض بمظاهر العمران ثم ظهرت تلك الفروع والاغصان بابتداع الصنائع والآلات والمعدات التي بها خرج العالم من الكهوف وتمتع بلذائذ لم تكن في تصوره فضلاً عن اكنانه · هذه هي الفروع التي سارت امام العالم تحدوه باناشيد العمران وتقوده بقود المدنية ايام كانت فروع الاجناس المغولية والملابارية والهند الجرمانية (الاوروباوية) والزنجية تائهة في الجبال والمغارات تتغذى بطبيعي النبات وتلتحف بجلود الحيوان منكبة على الوثب الحيواني منقادة للطبيعة البهيمية فارغة من الآداب والكمالات فمدت هذه الفروع العمران في الاقطار وفتحت ابواب الاكتشافات البرية وخاطرت حتى دخلت المضايق البحرية ووصلت الى كثير من الجزائر والقارات ونقلت اليها أُلوفاً من قبائلها واختطت بها مدناً وبلداناً لا تنقص عن الوقت الحاضر مدنية بالنسبة لدورها الاولى

ونشرت على العالم علمَ تمدن فتربي كثير من الامم تحت احضانها حتى تهذبوا وعرفوا قدر الجنسية وشرف الوطنية بما غذتهم من ألبان معارفها وما اشتغلت به افكارهم بالاحتكاك في افكارها فقاموا عليها ومزقوا علمها واخذت كل امة قطعة لونتها بلون خاص ونشرتها على مرتفعات اوطانها فما ترينه من اعلام المدنية الكثيرة العدد الآن هي تلك القطع التي كانت مجتمعة في العلمَ الاريمي المرفوع على مصر والشام والمغرب وبلاد العرب والحبشة والعراق فلا بدع ان قلت بالشرقيين تمدن العالم ومن شرقهم ظهر العمران فابك الآن على بقايا تدل على كميات واثار تدل على امم ولك العذر في البكاء ولا اوم عليّ ان ضربت الكف بالكف اسفاً وا كلت اصابعي غيظاً وندماً — واسمع حضرة الخواجة يقول اننا تأثرنا بعبارة حركت سوا كننا واني انتقلت من الموضوع العربي الى موضوع شامي اتكلم فيه بحرقة مصحوبة بفيض دمع وتصعيد زفرات — اما التأثر فطبيعي لكل باحث في آثار الاوائل منقبض من اهمال الاواخر واما الموضوع فاني لم اخرج عن الموضوع الشرقي بل التأصيل العربي المتفرع مع الاصل الشامي من اصل واحد وانما الدم الجنسي يميل بوحداته المتفرقة الى جرثومة الاجتماع ويجتمع في دورته حول اروحة المنشاء. فما رأيته من انفعالي عند ذكر وطن اريمي على اختلاف فروعه فذاك قسري يجذبه الطبع فيتراخى فيه التطبع فقد قال علماء السير والتاريخ ان اولاد سام بن نوح الشهيرين عند الافرنج بالقوقاسيين عند ما تفرقوا نزل كنعان بن سام بولده دامشقيوس وولد ولده بارض الشام ونزل ارفخشد بن سام بولده عابر وولد ولده بفلسطين من ارض سورية ونزل الفالوح بن سام بولده همذان وولد ولده وسط الجبال من بلاد

فارس ونزل اشور بن سام باولاده باسل وايران ونبيط وولد اولاده بارض فارس فالديلم من باسل والفرس والخزر من ايران والنبيط والسريان من نبيط ونزل اليقن بن سام بولده الروم في آسيا الصغرى واختطت زبطرة بنت ابنه الروم مدينتها الشهيرة باسمها ونزل ارم بن سام باولاده اشوذ ولاوذ وجاثر وجديس وعابر وعرص بجزيرة العرب فمن عوص جاء عاد ومن عابر جاء ثمود ومن لاوذ جاء عمليق ومن جاثر جاء طسم . وللمتأخرين من مؤرخي الافرنج اختلاف مع المتقدمين في هذا التفريع بل في الاصل التوليدي لا نطيل بذكره لما في ذلك من الخروج عن حد الايجاز الملتزم . وكيف لا ترى مني ما ترى والست تعرض لي بحركات جنسية تدافعت تدافع الصخر من قمم الجبال فكسر بعضها بعضاً . ام كيف لا ارسل العبرات وهي تذكرني بارض رضي الله والانسان عنها وجفاها اهلها وعقها بنوها . الست ترى ان جميع الاديان على اختلاف مصادرها لم تظهر الا من هذا الجنس العاق لمنار نشأته فان مهابطها محصورة في العرب والشاميين والعراقيين وهم كما قدمنا ابناء جنس واحد لم تداخله امشاج المولدين ولا اخلاط الدخلاء ثم هم هم الذين تقاسموا العداوة ووزعوا الاحقاد في مجامعهم العمرانية تاركين تعاليم كتبهم الادبية وارشاداتها المدنية آخذين بظواهر الاختلاف والتباين حتى قست القلوب وافترقت الكلمة وتنافر الاقارب واختلف الاهل وعرفت الاجنبية بينهم فتسمى كل قسم باسم خاص يميزه عن فرده او جذعه وسنّوا العدوان والمغالبة بما تدعو اليه المطامع وسقوا ارض نشأتهم بدماء ابنائهم وآبائهم واخوانهم فهم يجنون من غرس التعصب اكباد آباء وقلوب امهات يرثونها بذائب

العداوة ويسيغونا بماء الخلاف ويهضمونها بحرارة الاحقاد · وليتهم حافظوا على ما افترقوا لاجله حتى تكون الثمرات الملكية والمظاهر الزمنية ستراً على تلك الاضغان ولكنهم تهاونوا وقصروا ثم تنافروا وتخاذلوا فماتت الدعوة الكلدانية بالقوة الفارسية وتبدد المظهر الاسرائيلي فكان غنيمة للاجناس وانتقلت مظاهر الدعوة الشامية الى الفرع الهند الجرماني ومظاهر الدعوة العربية الى المغولي ثم الى فرعه التركي · فمن يجيل انظاره في صفحات التاريخ السامي ولا يشق الاكباد بدل الاطواق ويرسل الدم بدل ماء العيون دعيني ابكي وانوح وما عليّ من لائم او لاح فافكاري الآن في مأتم شرقيّ تسمع من رثاء النادبات لفروعه قولي

مساكين اهل الشرق باتوا بظلمة ومن شرقهم بانت الى الأمم الشمس

٣٨

غ

اراك تغالي في جانب فروعكم السامية بلا دليل تقيمه وتتجافى عن الهند الجرماني واغصانه مع شروق شمس مدنيته فادفع عني هذا الخاطر بما تعلمه في جانب فروع جنسيتنا العظيمة الشأن وما لها من الاعمال البديعة والافعال الغريبة فان اندفاعك في جانب جنسيتكم ورفعها الى اعلى مقام مع تغاضيك عن غيرها ما يعاب عليك ويوجب انقباض النفوس منك

ش

ارى الخواجة غضب عند ذكر الفروع الاريية بطريق التلويح وظن اني احابي قومي واتحامل على غيرهم مع اني لم اذكر الا كليات استدعاها المقام ثم نسب اليّ التجافي عن الفروع الهند الجرمانية مع علمه اننا لم نحقق الاصول

الشرقية واعمالها حتى ندخل على الغربية واحوالها ثم اراه يطالبني بالدليل واقامة البرهان على ما نسبته لفروعنا من المدنية وسابقة العمران وما اظنك ترد المأثور او تنكر المشاهد او تجحد المعلوم فان العرب والشاميين اسسوا من مبادىء المدنية وقواعد العمران وممدات الحضارة ما حفظه لهم التاريخ وان جهله ابناؤهم او تناسوه ولا تظن اني اعني ما كان منهم بعد بعثتهم بل اريد ما اتوا به قبلها فانه اعظم في الفضل وارقى في المجد وحيث انك طالبتني بالدليل والمقام غني عنه فخذ الجواب بحسب الممكن بالاستقراء . تعلم ان اللغات دلائل على درجات اهلها من حيث المدنية وعدمها والقدم والحدوث فان اللغة تعظم وتتسع موادها كلما دعت ضرورة العمران والمدنية الى اتساع نطاقها بتسمية الموجودات والمبتدعات وتوضع على قواعد مطردة عندما تنمو معارف مستعمليها وتتنور افكارهم وتنتشر فيهم العلوم وتوجد عندهم المدارك العالية وتقصر في الامة القاصرة في المدنية والعلوم وتضيق الى حد المصطلحات على ضروريات المآكل والمشارب والمعاملة الفطرية . وهذه اللغات السريانية والعربية والفارسية والعبرانية تخبرك بابوابها وفصولها وقواعدها المنتظمة المضبوطة عما دعت اليه ضرورة عمران اهلها ومدنيتهم من كثرة الاشتقاق وتعدد المترادفات وتقسيم المواد وتسمية الموجودات من معدن ونبات وحيوان وآلات صناعة واثاث بيت ومواد زراعة وممدات حرب واصطلاحات تجارة وتعليم ومعاملة وتنبئك بما يوجد في كل واحدة من دخيل الاخرى عن تبادل المحبة بين اهلها واختلاطهم في الجامع والاستيطان والرحلة والاتحاد فلا تكاد ترى

رقم الايداع
٩٥/١٠٥
I.S.B.N
977- 18 - 0010 - 8


DAR EL KOTOB
$24.00
97756832125


منتدى أنا المصرى